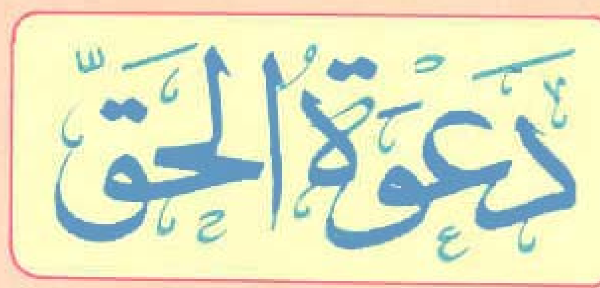
البعد الحضاري لثورة الملك والشعب



• شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية . الرباط . المغرب

• تقديم الفكر الإسلامي القديم
• من نوادر مخطوطات خزانة القرويين
• حول تاريخ الأديان السماوية

العدد 239 • ذو القعدة 1404 / غشت 1984 • الثمن : 4 دراهم

الترجمة العربية لمذكرات جلالة الملك الحسن الثاني

الحسن الثاني

ملك المغرب



التحدي

صدرت عن المطبعة الملكية بالرباط الطبعة العربية لكتاب "التحدي" بقلم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله
وتضم هذه الطبعة وثائق تنشر لأول مرة.



شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: 55 درهما
في البلاد العربية: 67 درهما
في العالم: 77 درهما

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

فهرس العدد 239



البعد الحضاري لثورة الملك والشعب

●● ترمز ثورة الملك والشعب في المغرب إلى المعنى الحضاري الذي يختزل خلاصة تاريخ المغرب في إشراقاته وعطاءاته وأمجاده وملاحمه وإشعاعاته عبر الحقب والأزمان، تأثيرا ونفوذا، وجهادا ونضالا، وحركة ونشاطا، من أجل نصرة الدين الحق، وحماية بيضة الإسلام، والدفاع عن شرف المغاربة أجمعين، الذين أكرمهم هذا الدين، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، بالتوحيد وبالعدل، وبالمساواة وباحترام كرامة الإنسان.

● إن ثورة الملك والشعب منظورا إليها من زاوية الحضارة الإسلامية تعد من المعالم البارزة في تاريخ العروبة والإسلام. فهي ليست حدثا عابرا، وليست تطورا في مسلسل النضال ضد الاستعمار في المغرب فحسب، ولكنها رمز ذو دلالات غنية وإيحاءات ثرة ومعان بعيدة الغور تؤكد أن العرش في هذه البلاد هو أكثر من مؤسسة للحكم وأسلوب لتسيير البلاد، وإنما هو ميثاق روحي بين الشعب وملوكه، وعهد لا ينقطع له حَبْلٌ بين الطرفين يجعل من الشعب حاميا للعرش ويجعل من العرش راعيا للشعب في تلازم مطرد، وفي تلاحم يقوى مع توالي الأزمان.

●● إن المتأمل الحصيف في تاريخ المغرب، سواء في عصوره السابقة وعهوده الغابرة أم في المراحل الحديثة والمعاصرة يقف على حقيقة العلاقة بين العرش والشعب، ويدرك البعد الحضاري والتاريخي لهذه العلاقة التي قامت على هدى من الله ورضوان. ولذلك فإن الارتباط القائم بين الملك والشعب في هذه البلاد يشكل في حقيقة الأمر خاصية من خصائص المغرب الذي لم تقم فيه دولة إلا على أساس العرش، ولم يعرف مجدا وفتحا ونصرا إلا تحت ظل العرش.

● وعلى هذا الأساس، كانت ثورة الملك والشعب التي انفجرت يوم 20 غشت سنة 1953 امتدادا لهذا الرصيد، وإضافة له، وتعبيرا بليغا وبالغ الدلالة عن تشبث هذا الشعب برمز وحدته وعنوان سيادته ومحور حركته التاريخية ألا وهو العرش العلوي المجيد.

●● وليس شك أن ثورة الملك والشعب، بعمقها، وبرصيدها، وبامتداداتها، مدرسة للوطنية، وأسلوب للعمل السياسي والحضاري والفكري والنضالي عز نظيره وقل مثيله في هذا العصر. وهذا مصدر اعتزاز الشعب المغربي ومبعث فخر للأجيال الحاضرة والقادمة بمشيئة الله.

● وإذا كانت ذكرى ثورة الملك والشعب تحل هذا العام في ظل تعبئة وطنية متينة وراء عاهل البلاد وعلى أعتاب مرحلة متطورة في تقدم المغرب وازدهاره، فإن الدروس والعبر والعظات المستخلصة من هذه الذكرى حريَّةٌ بأن تكون لنا زادا في ظروفنا الراهنة ونبراساً في عملنا الوطني الهادف إلى تعميق عقيدة الديمقراطية والشورى في نفوسنا، وميثاق عمل جدير بأن يضبط مسيرتنا الجديدة مع العرش وبالعرش ووراء العرش القائد.

●● إن المعنى الحضاري لثورة الملك والشعب يتمثل لنا اليوم في امتداد إشعاع هذا الحدث ونفوذ أثره إلى حياتنا الجديدة. فما أحرى المغاربة اليوم، وهم يبنون نهضتهم

الجديدة، أن يستوعبوا هذا المعنى استيعابا يضفي على عملهم في مختلف الحقول، الأصالة والعمق والجدية والمسؤولية.

● ورحم الله رائد ثورة الملك والشعب وبطل الحرية والاستقلال جلالة المغفور له محمدا الخامس، وقدس الله روحه، وحفظ وصان ورعى قائد المسيرة الخضراء وحامي الكيان والدولة والسيادة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأعز أمره الذي يؤكد بعمله وجهاده وجهده أن ثورة الملك والشعب لا تزال مشعة نافذة مؤثرة هادية كفاح المغرب وراء العرش المجيد إلى سواء السبيل.



جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله في خطاب هام بمناسبة عيد الشباب:

● مشيئة الله اختارت للمغرب ان ينشر كلمة الله والحضارة الاسلامية وهو لا يمكن أن يتنكر لماضيه.



●● ألقى جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله خطاباً سامياً بمناسبة عيد الشباب الذي صادف هذه السنة الذكرى الخامسة والخمسين لميلاد جلالته أدام الله علاه.

ويعتبر الخطاب الملكي الهام بهذه المناسبة وثيقة سياسية قيمة تلقي الضوء على المرحلة القادمة من العمل الوطني وتنير الطريق أمام العاملين من أجل عزة المغرب وكرامة أبنائه.

ويتضمن هذا الخطاب توجيهات ملكية من الأهمية بمكان مستمدة من روح الدين الإسلامي ومن الأصالة المغربية ومن تقاليد العرش المغربي الملتزم دائما وعلى مدى العصور بقضايا الشعب وبشؤون الوطن.

وننشر فيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي ●●

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز،

ها نحن مرة أخرى نحتفل بعيد الشباب، وبم يمكننا أن نحتفل في عيد الشباب ياترى ؟ علينا أن نحتفل بمسرات الشباب، وبسمات الشباب، وتطلعات الشباب، ولكن علينا كذلك أن نحتفل بتفاؤل الشباب، والتفاؤل ليس بالنسبة إلينا كدولة أو كجيل عاطفة من العواطف، أو مدرسة من مدارس العقلانية والفلسفة، التفاؤل هو قبل كل شيء مدرسة للعمل فتفاءل مثل تَهَذَّب، وتَدَخَّلَ، وتَصَاعَدَ، وتَحلّق، معنى هذا، أن هذا الوزن للفعل يقتضي من كل واحد، ومن كل واحد يريد أن يتصف بهذه الصفات، يقتضي منه عملا، وجهدا، وجدا. فالتفاؤل مرة أخرى، ليس فرصة نلتقي بها في طريقنا، وليس حدثا من أحداث الزمان، بل هو مدرسة تعرف ما تريد، وتقصد الهدف الذي تريد، فتفعل ما يجب عليها أن تفعل، وتخلق ما يجبُ أن يخلق، حتى يمكن للمتفائل أن يكون متفائلا حقا. وحتى يتنى لكل من اراد أن يتخذ من هذا المنهج في عقله وسلوكه وتفكيره أن يتخذ من هذا المنهج طريقة تؤدي به إلى ما يريد ألآ وهو إسعاد نفسه وإسعاد ذويه واسعاد وطنه.

إذن، إذا كنا نريد أن نحتفل بعيد الشباب في جو من المرح والفرح، والسعادة والابتسام والتفاؤل، علينا أن ننظر إلى التفاؤل بعين الواقع، التفاؤل يقتضي منا جميعا أن نرى الأهداف التي نريد أن نصل إليها وأن نحلل الوسائل المادية والمعنوية التي من شأنها أن توصلنا إلى تلك الأهداف، وأخيرا، بعدما نأخذ، نكون قد اخذنا بعين الاعتبار هذا وذاك، وضعنا الكل في مقاييس إما الخيال، أو مقاييس المعقول الممكن تطبيقه.

نعم شعبي العزيز،

أيها الشباب،

علينا أن نعلم أن المغرب لا يمكنه أن يبقى وهو يريد أن يساير العالم الحر، العالم المتطور، أن يبقى متمسكا ومتشبثا بأحلام وخرافات، الأحلام والخرافات التي تخالف وتتخالف مع عاداتنا وتقاليدنا وحتى مع ديننا، فالنبي ﷺ يحكى أنه كان يمر يوميا بالمسجد، وكما تعلمون كان بيته في المسجد النبوي، كان كلما غدا وراح وجد رجلا يصلي ويتعبد، وفي يوم من الأيام، بعد أسابيع مرت، سأل أحدا من أصحابه ﷺ ورضوان الله عليهم قال : هذا السيد من يعوله ؟ معنى من يرزقه، قالوا : أخوه، أما هو فيبقى متشبثا ومعتكفا بالمسجد، فقال النبي ﷺ : والله إن أخاه لأعبد منه، ويقول القرآن : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. معنى هذا كله، معنى هذا أن العضو الطيب، المستطاب، الحسن، المستحسن، الجاد، الواعي، في كل وطن محترم، عليه أن يؤدي مهمته كاملة غير منقوصة، وذلك باختيار المهنة التي هو لائق لها، وهي لائقة به، بعدما أن يكون هو وذووه وأساتذته، قد قيموا بالضبط ما هي إمكاناته البشرية والفكرية، وما هي المسؤوليات الأسروية والفردية التي سوف تكون ملقاة على عاتقه، وما هو في الأخير، وفي آخر المطاف، ما هو الدور الذي يحسن به، بل ويجب عليه أن يقوم به في بلده، ومجتمعه، حتى يكون ذلك العضو الصالح، الذي يعول ولا يعال، الذي يعبد الله عملا، وقلبا، وعزيمة وعقيدة. ومن هنا إذن ندخل في صلب الموضوع. وموضوعنا ينقسم إلى نقطتين، وإلى قسمين، ندخل في النقطة الأولى من صلب الموضوع.

جرت شعبي العزيز، وشبابي العزيز هذه الأيام وهذه الأسابيع إشاعات، لا أريد أن أصفها هل هي صحيحة مبنية على نية صحيحة، أو على نية غير صحيحة، نحن في أيام الأفراح والمسرات

والتفاؤل، المهم أنه جرت إشاعات وتناقلت، وانتفخت، وتبرمت، مثل الشر الذي يتبرم، على أن الدخول المدرسي سوف يكون دخولا مبتورا وأن الحكومة التي هي حكومة جلالة الملك، وأن الحكومة قررت بين عشية وضحاها، وبجرة من قلم، أن تضحي بعدد غير قليل من الشباب، سواء في الطور الابتدائي، والثانوي، والعالي، وقررت أن تغلق أمام هؤلاء الأطفال والشباب جميع أبواب العيش، وبالتالي أن تنعدم لديهم كلهم جميع أسباب الأمل. ويمكنني أن اقول وأن التزم في هذا اليوم، الذي هو عيد الشباب، أن اقول إن المغرب لم يكن من طبائعه، ولن يكون أبدا من طبائعه، الإجهاض بجميع الإمكانات التي يمكن أن يعتمد عليها، وأن يضعها في حساباته، ليبني ذلك المستقبل، الذي ما فتئت أصوره لكم وأنعته بيدي، وبعيني، وبجميع جوارحي. ذلك المستقبل الذي سيجعل من المغرب أحسن مما كان عليه أيام كانت خريطته شرقا وغربا وشمالا وجنوبا تلك الخريطة التي لا ولم تخطها عزيمة الاستعمار ولا إرادة الاستيلاء، ولكن تلك الخريطة التي خطتها يد العالي جل علاه حينما أراد أن يقلد هذه الأمة، وهذا الشعب، مسؤولية نشر كلمة الله، ونشر الحضارة الإسلامية، والعلم الإسلامي، والثقافة الإسلامية.

إذن هذا المغرب لا يمكنه أن يتنكر لماضيه، ولكن هل يمكنه أن لا يساير العصر ومقتضيات العصر ؟ لا، يجب عليه أن يحترم هذا وذاك، علينا إذا نحن اردنا أن نكون مواطنين كاملي العضوية في القرن المقبل، وقبل القرن المقبل، في المجتمع المتحضر، أن نكون أعضاء كاملي العضوية والمواطنة. علينا أن نميز بين ما هو واجب، وبين ما هو حرام. الواجب هو أن لا تبقى أية عزيمة، ولا تبقى أية موهبة غير مستثمرة، والحرام هو أن نريد أن نستثمر جميع المواهب على صنف واحد، وفي قالب واحد، ولهدف واحد. بعبارة أوضح علينا أن نعلم هذا المجتمع إذا كان يحتاج إلى أطباء، ومهندسين، ومحامين، وقضاة، ومدرسين، وأساتذة، وباحثين، ومؤرخين، ونحاتين، وفنانين، وشعراء، هذا البلد يحتاج إلى من يعوله، إلى من يخدمه، ومن يكون له أسس حياته الحالية والاستقبالية. وهل تعلم شعبي العزيز، وشبابي العزيز أيمكنك أن تقول لي ماهي المهنة وما هو هذا الشغل الغير الشريف ؟ ما عدا ما نص عليه القرآن، وما تواتر في كتب الأخلاق، هل هناك شغل غير شريف ؟ هل هناك مهنة تؤدي بصاحبها إلى الحضيض الأسفل ؟ هل هناك عمل يمسخ ماء الوجه ويمسخ المغربي الشريف، فيرده أو يصبحه قردا من القردة الممسوخة ؟ لا أعرف عملا، ولا مهنة من هذا النوع. وعلينا شعبي العزيز، أن نعلم أن المغرب عليه أن ينظر إلى مشاكله من جميع الجوانب، نريد العملة الصعبة، نريد الشغل للجميع، نريد التعليم للجميع، ولكن من سيضمن لنا هذا النوع من التعليم ؟ نحن. وما سيضمن لنا هذا التعليم ؟ هو الكسب، والعمل المجدي، والإشعاع، واقتناء العملة الصعبة، وترويج المغربي ترويجا عالميا صحيحا، اقتصاديا، واجتماعيا. وهذا الترويج لا ينحصر على الأساتذة ولا على المهندسين ولا على الأطباء بل هذا الترويج وهذا الإشعاع سوف يكون في صحيفة أولئك الذين سيمثلون المغرب لا بسواعدهم فقط، أو بقدرتهم على حمل الأثقال، أو العمل بالموانئ والمناجم، لا، بل أولئك الذين سيكونون ذلك الجسر، ويكونون ذلك الجسر فيما بين ما هو الأسفل وما هو الأعلى. ذلك الجسر من البشر المثقف الغير الجاهل العارف لأحكام الله وأحكام الناس، المطلع على ما يجري حوله في العالم، المندمج في الوسط العالمي، كان عربيا، أو إسلاميا، أو افريقيا، أو آسيويا، أو أوروبيا، أو امريكيا. إذن، عضوا يعرف ما عليه وما له، ولكن عضو ينفع بلده سواء داخل بلده أو خارجها. فلهذا أريد بعد هذه التفاصيل كلها أن اقول إن هذه السنة، المغرب لن يقتصر فقط على أن يضمن للجميع

الدخول المدرسي أحسن من السنوات الماضية، بل قد اخذ على نفسه أن يخط خطة جديدة ستنمو كل سنة، إن شاء الله، هو أن ياخذ بعين الاعتبار وبعين الاحترام اللازم لكل مواطن، كيفما كان سنه وذلك بأن يجد له مدرسة تلائم مواهبه، وتتفق مع إمكاناته الفكرية، وتفتح لهذا البشر عيشة من الاحترام، ومن التعامل البشري، والتبادل البشري، والأخذ والعطاء بين المجتمعات البشرية. فحينما نقول التعليم المهني، نقوله بنوع من الاستخفاف، أو الازدراء، كأن آباءنا لم يخدموا أبدا بأيديهم، كأن هؤلاء المتخرجين من المدارس العليا ومن الجامعات كان آباؤهم كلهم أغنياء، وأثرياء. كأن هذا الدكتور، أو هذا الأستاذ الذي يركب سيارة ميرسيديس، وله ڤيلا في آنفا مثلا، لأننا في الدار البيضاء، كأنه حينما ازداد وجد الميرسيديس تنتظره، ووجد تلك الڤيلا، والحالة هاته أن الجل فيهم يعرف أن آباءهم وجل آبائهم، بعرق جبينهم وبخدمتهم اليدوية وتكوينهم المهني، ذلك التكوين الذي ألزم الجميع أن يحترمهم، ذلك التكوين الذي مكنهم من أن يروا في أبنائهم ما كانوا يتمنونه لأنفسهم. فإذن لماذا لا نرضى، ونرتفع ونتعالى وننظر بعين الازدراء والاحتقار إلى ما هو عليه سواد الدول كلها. ألا وهو الطبقة العاملة تلك الطبقة المحترمة الشريفة، الطبقة العاملة إذا كان هناك في المغرب عضو من الأسرة الكبيرة المغربية يعرف قيمتها ويعرف كيف يشرفها وكيف يكرمها فهو خديمكم هذا. الطبقة العاملة حضرية كانت أو بدوية هي التي قامت بالكفاح والكفاحات في الماضي وبالكفاح الأخير، الطبقة الكادحة هي التي كانت تقول : لا استقلال بدون رجوع رمز البلاد، الطبقة الكادحة من فلاحين ومن عمال هي التي أرهبت الاستعمار، ودكت الاستعمار، الطبقة العاملة هي التي حررت المغرب وبالتالي حررت افريقيا.

فأريد أن تبقى هذه الطبقة العاملة لاصقة بالحقيقة المغربية، لاصقة بواقع المغرب، ولكن في إطار آخر، بمعلومات أخرى، بمواهب تمكنها ألا تبقى منحصرة في الرقعة الجغرافية المغربية، ألا تبقى مجيبة فقط إلى حاجيات المغرب، بل أن تكون كما قلت لكم طبقة مكرمة محترمة أينما ذهبت وأينما حلت وارتحلت وأينما عملت واشتغلت، طبقة قادرة على أن تخلق بنفسها ثروتها، طبقة جديرة بأن تكون مواطنة للمجتمع كله في أواخر هذا القرن وفي القرن المقبل.

لذا شعبي العزيز، يقول المثل الفرنسي : ليس هناك شغل سخيف، ولكن هناك ناسا سخفاء. وأقول : ليس هناك عمل قذر أو منحط ولكن هناك ناسا قذرين منحطين. فلهذا قررنا أن نشرف ونكرم العمل، ونرد له قيمته وحرمته المفقودة، وأن ننظر شيئا ما إلى الوراء لآبائنا وأجدادنا، فأجدادي مثلا قبل أن يعتلوا هذا العرش عاشوا في هذا البلد ستة قرون في تافيلالت، بماذا كانوا يعيشون ؟ يعيشون بنخيلهم، وبفصتهم، وبشيء من الجمال، وبشيء من الغنم، وكانوا يعملون بيدهم بكيفية شريفة، وجاهدوا في اسبانيا حينما نودوا للجهاد، فحينما أراد الله أن يقلدهم المسؤولية هل معنى هذا أن جميع أعضاء الأسرة من يوم اعتلت هذه الأسرة على عرش المغرب إلى يومنا هذا، أن جميع أفراد هذه الأسرة لم يشتغلوا ولم يخدموا بأيديهم، ولم يتعاطوا أية مهنة، وكانوا دائما صباح مساء ينتظرون أن تمطر عليهم السماء ذهبا، ذهبا وفضة ؟ لا، لم يكن هذا لا في آبائنا ولا في آبائك، ولا في أجدادنا ولا في أجدادك. كرمنا العمل وسنبقى نكرم العمل، شرفنا العمل وسنبقى نشرف العمل، ولكن، حتى يكون هذا العمل مشرفا مكرما، علينا أن نضع له أطرا، ومدارس وتشكيلات، ونماذج تجعله ليس عملا مكرما مشرفا أخلاقيا ومعنويا بل كالعملة الصعبة التي تروج في جميع الدول، عملا مكرما مشرفا في جميع المستويات وفي جميع الدول.

أظن شعبي العزيز، أن ما قلته لك يكفي فيما يخصني وفيما يخص دوري، وستأتي ندوات وتفسيرات وتحليلات تعبر لك تطبيقيا وبجميع التفاصيل اللازمة، تعبر لك عما نريده لك وما نطمئن إليه لاختياراتك في المستقبل وما نأمله لك من الراحة ومن النتاج في آن واحد، ومن العمل حتى يكون ضميرك في مستوى طموحك وحتى يكون المغرب كما قلت لكم دائما، حتى يكون المغرب ليس صالحا لنفسه فقط، بل صالحا لجميع كل المجتمعات الدولية.

طيب ولنفرض أن هذا كله تحقق وما ذلك على الله بعزيز ولا على همتنا، ولنفرض أننا وجدنا المناهج والطرق لتشغيل من يريد أن يشغل بالتكوين المهني لكل من يريد أن يكون مهنيا، أن نفتح الآفاق لكل من أراد أن يكون جامعيا، لنفرض أننا وصلنا إلى هذه الأهداف كلها، ماذا يا ترى ستكون حياتنا غدا وبعد غد ؟ لنفرض أننا تغلبنا على - لا أقول - الكل، ولكن على مجمل أو أكثر ما يمكن من المشاكل، كيف ستكون حياتنا الاجتماعية ؟ كيف سننظم تعايشنا اليومي ؟ كأفراد وجماعات ودولة وإدارة وقضاء ووظيفة عامة ومجتمع حر، اختار حريته، في المعاملات، سوف يكون هذا المناخ ما نريد أن يكون.

وهذه هي النقطة الثانية من خطابي شعبي العزيز. في هذه السنة، شعبي العزيز، سندخل مرحلة أخرى، مرحلة الست سنوات الديمقراطية الجديدة، وستكون هذه المرحلة حاسمة وخطيرة بالنسبة لتنظيم مجتمعنا، بالنسبة لنقش منهجنا ومنهجيتنا لا على الماء ولا في التراب، بل بنقشها على الحجر، حتى تبقى بعز الله ونصرته، ماثلة دائما بين أعيننا كالمحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. لأن في هذه الست سنوات، من كان شابا سيصبح رجلا، ومن كان كهلا سيطل لا على الشيخوخة أبدا، ولكن على ما بعد الكهولة، وست سنوات لا يعدها إلا الفم، وست سنوات من الممارسة المباشرة وغير المباشرة للأعمال الجماعية، من المشاركة في تسيير الدولة، من المشاركة في الاختيارات الكبرى إما على المستوى العالمي أو الجهوي، أو القاري، أو على المستوى الوطني. ست سنوات ليست سهلة وليست عديمة الانعكاسات سيمكنها أن تكون ست سنوات التي تمثل تلك البقرات العجاف أو أن تكون ست سنوات التي تنبئ بتلك السنابل المليئة التي في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء.

فلهذا شعبي العزيز حاكمين أو مسيرين لا أقول محكومين مديرين أو مدارين في جميع المستويات في سلم المسؤوليات، علينا أن نفكر من الآن ماذا سيقع يوم 14 سبتمبر من هذه السنة، يوم 14 سبتمبر ستكون الانتخابات العامة، وبذلك حلقات المسلسل الدستوري الديمقراطي سوف تكون قد شد بعضها في بعض وكونت خاتما أو إطارا في الحياة اليومية، والحياة القرنية. علينا أن نفكر فيه من الآن حتى لا نصبح في أيام الحملات الانتخابية مرتجلين أو دجالين أو كذابين أو نصابين أو من تلاميذ ذلك الشاعر الذي يقول في مدرسته :

«إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر»

يعني فلأكذب لأصل ولا يهمونني بعد ذلك ؟!

فكل من أراد أن يخوض في معركة سياسية عليه أن يعلم أن الكذب حرام، الكذب حرام بكيفية عامة وحرام حينما يمكن أن يعم أو تعم نتائجه وطنا كله، وشعبا كله. حاولنا ما أمكن أن نهيء لهذه الانتخابات المقبلة جوا من التساكن بين الأحزاب السياسية، حاولنا أن نجمعها حولنا لترى المشاكل ولتبحث الملفات في أعماقها وفي تفاصيلها، حاولنا جهد المستطاع، أن نشركها في جميع اختياراتنا وقراراتنا، وعلينا إنصافا لها ومنذ أن عملت بجانبنا بوزرائها ووزراء الدولة أن نقول هنا : إن هذه الهيئات السياسية عملت بوطنية ونزاهة وأخلاق المواطنة اللازمة. ولكن المغاربة لهم طباع وأخلاق خاصة وأريد أن تبقى

فيهم هـذه الأخـلاق وأتمنى أن تبقى فيهم هـذه الأخلاق. ولقد طلب مني واحد من وزراء الدولة أن اعطيه حريته لأنـه كما قال لا يمكنـه أن يخوض المعركة الانتخابيـة ويستعمل ربما في خطبـه كلمات نابية وهو جالس بجانب أصدقائه على منصة المسؤولية ولي اليقين أن هذا الشعور هو شعور جميع وزراء الدولة، ذلك لأن المغاربة - ولله الحمد - أعطاهم الله أخلاقا غير الأخلاق السياسية التي هي موجودة في غير هذا البلد. ولذا حتى لا نحرج أحـدا وحتى لا نجعلـه لا يحس بـالحريـة الكافية إما في لباسه أو جلبابه، قررنا حينما يأتي الوقت ويأتي الزمن قبل الانتخـابـات أن نحلل وزراء الدولة كلهم من مهماتهم السياسيـة - على شرط - لأنه يجب أن لا ننسى سبب دخولهم وهو أن يتتبعوا داخل الحكومة سير الانتخابات ونزاهتها، على شرط أن يتركوا من يمثلهم في الحكومة حتى يتمكنوا بواسطة ممثلهم لكل واحد في الحكومة أن يكون هو المراقب على سير تلك الانتخابات كما أردناه وقررنـاه دون أن يكـون أي وزير للـدولـة محرجا وملزوما بأن يتعايش مع فلان وفلان في الصباح ويذهب في المسـاء لالقاء خطاب أو كلمة أيام المعركة الانتخابية. وعمل كهذا سيمكن الجميع من أن يتتبع السير وبأن يحترم الأخلاق والفضيلة المغربيـة التي هي مبنيـة كـذلـك على الأخـلاق العربية الأصيلة والإسلامية.

لهـذا شعبي العـزيـز منعطف هـذه السـنـة واختيـارات هذه السنـة سيكون هـذا كلـه تغييرا خطيرا وأقول لك بكل صراحة وما دمت تمنحني ثقتك إنني سأنكب أكثر من ذي قبل على شيئين على أن تعطيك دولتك وبلدك ووطنك ما يجب أن تعطيك لا فقط من حقوق فكرية وسياسية، بل من حقوق مادية تؤهلك أن تعيش شريفا كريما مواطنا مغربيا. لا يمكنني أن اعطيك أكثر، فالذي لم يعطه الله القراءة والفتح، نعطيه نحن بماذا سيعمل.

والمسألة الثانية إنني باسمك لن اغفر أبدا في المدة التي هي من اليوم وحتى يوم الانتخابات، لن اغفر أبدا لكل من حـاول أن يضلل أو يكـذب عليـك متعمـدا، قـال النبي ﷺ : «من كـذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النـار» وجماعـة عشرين مليون من المسلمين أقول فيها لن اسمح لأي أحد أراد أن يضللك أو يكذب عليك متعمدا لأنـه من واجباتي الدستورية وهو ضمان الحريات للأفراد والجماعات والسهر على حقوقهم والسهر على وحدة البلاد وسيادتها ووحدتها الترابية، ومن حقوق الجماعات والأفراد أن نبعد عنها بأي كيفية كانت، أن نبعـد عنهـا المضللين والمشعوذين وبـالأخص الذين يعلمون ويعرفون الأرقام وهذا ليس تهديدا هذا، هو فقط لأن الحملة الانتخابية بدأت، هذا، هو نداء من مغربي إلى مغاربة حتى يمكننا أن نمر بهـذا المنعطف الـذي هـو المنعطف الاجتمـاعي لاختيار المناخ الذي نريد أن نعيش فيه والمنعطف لصنع - بعد الله - وبحفظه ورعايته لصنع المغربي لا أقول، للقرن المقبل لا بل السنة المقبلة سنعمل لننطلـق من هـذه السنـة إلى السنـوات المقبلـة وانطلاقتنا ستكون مستهدفـة السنـة المقبلـة، والسنوات المقبلة حتى نوجد بعطف الله وعونـه المغربي الـذي نريـده وكمـا تستلـزمـه الظروف وحاجيات البلاد.

وبما أننا في عيد الشباب شعبي العزيز، أريد بهذه المناسبة وأنا رياضي كما أنت رياضي أن اهنئ إقليم العيون بصحرائنا العزيزة حيث ان فريقه في كرة القدم قد خرج من المنتظم الثاني إلى المنتظم الوطني الأول، وهذا ما سيؤهله إن هو فـاز فـي البطولة مثلا في السنة المقبلة أن يمثل المغرب في جميع الدول البطلة التي كانت بجانبنا أو بغير جانبنا، وهذا ما يدل على أن العمل الجاد المجدي قد اعطى لصحرائنا الأمن والأمان وأعطاها التوسع والرخاء وأعطاها حملة البكلوريا، واليوم هـاهو يعطيها فريقا في كرة القدم ومن كـان يظن هـذا الفريـق ملتحقا بـالمنتظم الوطني الأول، وأقول مرة أخرى لهذا الفريـق بعـد تهنئتي إنني قررت نظرا للمسافات البعيدة أن تضع القوات المسلحة

الملكية رهن إشارة جميع الفرق إما التي ستزور العيون في المقابلات أو لفريق العيون لينتقل إلى الأقاليم الأخرى طائرة حسب البرنامج الذي ستقرره عصبة كرة القدم وسوف تكون هذه المباريات الرياضية رابطة أخرى وتكون رابطة الشباب بالشباب رابطة الفرق بالفرق رابطة شعبية حقيقية أصيلة فليفرح من يريد أن يفرح وليقرح من اراد أن يقرح والله سبحانه وتعالى أعطانا وسوف يعطينا مستقبلا ولن يزال يعطينا وسوف نبقى نلح عليه لأن في الحديث النبوي الشريف يقول النبي ﷺ : «إن الله يحب العبد الملحاح».

وما دمنا في ذكر الصحراء مرة أخرى ننوه بوحداتنا العسكرية الموجودة هناك من قوات مسلحة ملكية ودرك ملكي وقوات احتياطية وشرطة وسكان لأن السكان هم الأساس لنقول لهم إنكم كنتم في المستوى فادعوا لنا الله أن نبقى نحن كذلك في المستوى حتى نسير سواء في الطريق الذي لا أرى فيه لا غماما ولا حجرا ولا أذى وحتى لو وجد لأماطه الله سبحانه وتعالى عن طريقنا لأنه ما عودنا إلا الخير وهو سبحانه المجيب المستجاب والسلام عليكم ورحمة الله.

الإسلام اليوم



●● تضمن العدد الثاني من الزميلة الدورية (الإسلام اليوم) الصادرة عن منظمة (ايسيسكو) موضوعات أكاديمية هامة منها : الفكر الإسلامي السياسي، منهجية للثقافة الإسلامية، وللغة العربية واللغة السواحلية، المصادر الدينية في القانون. جراح مسلم : أبو القاسم الزهراوي، تعريف بالنيجر وباكستان، عرض لنشاطات المنظمة خلال الفترة الأخيرة.

●● العدد الأول من (الإسلام اليوم) صدر في السنة الماضية.

على هامش أحداث 20 غشت:

مواكب النصر

للأستاذ محمد العربي الزكاري

يصدر هذا العدد من مجلتنا (دعوة الحق) وذكرى «ثورة الملك والشعب» تظلل وطننا العزيز، فتذكرنا ببطولة ليس لها نظير في التاريخ المعاصر باعتبارها ثورة عارمة تلاحمت فيها قوتان فريدتان لم يكن المغير يتصور أبعادها، ولم يدر بخلده أن شعبا أعزل وعرشا محاصرا يستطيعان مجابهة عسكرية هائلة، ومتحديان دولة غرتها قوتها، وخدعها سراب سطوتها، وبهرتها انتصاراتها على دول تعثرت في مسيرتها فترة من الفترات.

ومن حق هذا الحدث أن لا يمر دون أن تحتوي (دعوة الحق) وهي من غرس بطل الملحمة مولانا محمد الخامس نور الله ضريحه، على كلمة تعرف شبابنا بمواكب النصر ولو بصفة إجمالية، وفي هذا الإطار تستعرض مخيلتنا شريط الأحداث التي سبقت 20 غشت 1953، ونعود بذاكرتنا إلى الأوضاع التي مهدت للحماقة الاستعمارية المتطاولة على رمز الوحدة المغربية، فنجدها أحداثا وأوضاعا لا تخلو من «طرافة» على ضوء النتائج السارة التي واكبت المكاسب التي حققتها الانتفاضة الملكية والشعبية، وأبرزها الالتحام الهائل بين ملك وشعب في معركة ضارية وقاسية وغير متكافئة القوة المادية، والاستقلال الذي توج هذا التجاوب الفريد الذي واكب المعركة، وسيتواصل بمشيئة الله لإحباط كل مناورة تستهدف النيل من حقوقنا الثابتة ووحدتنا العقائدية والترابية.

وإن نحن استعرضنا تاريخ شعبنا منذ أن اشرقت عليه أنوار الرسالة المحمدية، نجد تاريخا مطبوعا بالبطولات الخالدة التي تجد هيامه بحريته وتطلعه للحياة الكريمة في ظل ملكية ارتضاها نظاما خالدا لمسيرته في الماضي والحاضر والمستقبل.

وبحكم موقع وطننا الجغرافي ومركزه الاستراتيجي، وبالنظر إلى وقوف ملوكنا الأقدمين رحمة الله عليهم، في وجه الأطماع الخارجية، وباعتبار شجاعة شعبنا الذي أحبط التدخلات الأجنبية والمؤامرات الاستعمارية، فقد اصبح بلدنا محسودا على هذه المزايا من طرف الأقزام، وعرضة لأطماع أشعبية من العمالقة الذين لا يتورعون عن تسخير البيادق وتحريك الدمى بخيوط رقيقة لا يكتشفها إلا من حباهم الله بالتعمق في تحليل الأحداث وأبعادها الخفية.

والطريف في هذا المجال أن المغرب مر بتجاريب عديدة ومتنوعة، وخاض معارك ضارية كان النصر فيها معقودا بألويته، وأبرزها ملحمة وادي المخازن التي كانت ضربة قاسمة للمغامرين، ودرسا من الدروس الرائعة التي

لقنها سلفنا الصالح للطامعين وإن تكتلوا وتحالفوا، ولو اتعظ خصوم المغرب بنتائج هذه الملحمة لكان خيرا لهم وأنفع، ولكن جشعهم العريض وطمعهم البعيد، يدفعهم إلى التجربة من جديد، والمغرب لا يجيب في هذا الموقف إلا بقول الله تعالى : ﴿**وإن عدتم عدنا..**﴾

ولا مناص من الإشارة إلى أن جل جولات المغرب ضد الطامعين في موقعه الحساس وخيراته المتنوعة، ومناجمه المتعددة، كانت في عهد وطن حر مستقل، وملوك يتوفرون على قوة عسكرية بالإضافة إلى الدعم الشعبي، أما الذكرى التي تظلنا الآن، فتختلف كل الاختلاف عن سابقاتها شكلا وموضوعا وملابسات، فكان على الدمى أن تعي هذا الواقع وتجعل في حسابها أن المغرب استطاع وهو أعزل أن ينتزع حريته واستقلاله من بين مخالب استعمار عتيد وعنيد.

فشعب وعرش خاضا معركة قاسية من هذا القبيل كيف لا يستطيعان إحباط أطماع المغامرين، وهما يتوفران اليوم على كل ما تتطلبه المعارك الحديثة بتنظيماتها وعتادها وقوتها الضاربة، بالإضافة إلى شعب ربط حاضره ومستقبله ومصير أجياله بعرش علوي عتيد، وملك عصامي يشهد له المنصفون بالكفاءة العلمية والحصافة العقلية والإيمان القوي والاستعداد المطلق لخوض المعارك المفروضة على أمتنا.

ولعل مقارنة بين وضعنا يوم 20 غشت 1953، وما سبقه ولاحقه من أحداث، ووضعنا اليوم الذي اعددنا فيه لكل مفاجأة ما تستحقه من عناية واهتمام، وما تتطلبه من يقظة واستعداد، كفيلة بأن تحد من غلواء المرتزقة ومن وراءهم إن كانت لهم عقول ناضجة تقدر العواقب.

وما دمنا في مجال توضيح الصورة الحقيقية لهذا الصراع المفتعل في منطقة المغرب العربي ولو بشكل مختصر، فلا مناص من الإشارة إلى أن الصحوة الإسلامية التي يتزعمها الحسن الثاني، ومواقفه الرائعة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ونضاله المتواصل لتحرير الأراضي العربية وفك الأغلال عن القدس الشريف، من الأسباب التي دفعت بأعداء الإسلام وخصوم العروبة والطامعين في الحفاظ بالاسلاب والغنائم أن يعملوا على تحريك بيادقهم لمناوشة المغرب وصرف اهتمامه عن الأوضاع التي يعيشها عالمنا العربي والإسلامي.

ونعتقد أن أهم دوافع الأعداء التقليديين لبلدنا تتجلى في المواقف البطولية التي وقفها جيشنا العتيد في الجولان وسيناء، وتلافيا للعودة مرة أخرى إلى نصرة إخواننا هناك تفتقت عبقرية الأعداء عن شغل أبطالنا بمعارك جانبية في صحرائنا التي لا ينازعنا فيها إلا من تنكر للعهود ومزق المواثيق وقطع الأرحام.

وإن غابت هذه الحقائق عن البعض، فحري بنا أن نذكر - والذكرى تنفع المومنين - أن شعبنا الذي دك معاقل الاستعمار الفرنسي والإسباني والدولي، لا يزال محتفظا بروحه النضالية العالية، وعلى استعداد لخوض أية معركة تفرض عليه، وما كانت تعبئة 20 غشت 1953 إلا نموذجا مصغرا للتعبئة المعاشة اليوم، فجيشنا ولله الحمد وله المنة، عتيد ويقظ، وجبهتنا الداخلية متماسكة موحدة، وعرشنا يقود المسيرة بمقدرة وكفاءة وشجاعة وإيمان بالله، وشعبنا برمته يسير في ركاب عرشه العتيد ولا ينتظر إلا الضوء الأخضر لمواجهة كل احتمال، وهذه المعطيات تعد ظاهرة صحية تؤهلنا للملحمة الفاصلة في نهاية المطاف.

فعسى أن تراجع بعض الجهات مواقفها العدائية، فتغلب العقل على الهوى، والمصلحة الإسلامية والعربية والإفريقية على مطامع خصومنا جميعا، فالخير كل الخير في تصحيح المفاهيم، والرجوع عن الأخطاء، والعودة إلى الصفاء والإخاء.

ورحم الله شهداءنا الأبرار وفي طليعتهم فقيد العروبة والإسلام جلالة محمد الخامس الذي قاد معركة 20 غشت بلباقته وصبره وتضحيته وإيمانه بربه، وبارك في عمر وارث سره وحامل لواء كفاحه جلالة الحسن الثاني الذي يقود سفينة المغرب بحكمة وروية وتعقل ورزانة وشجاعة حتى تصل بمشيئة الله إلى بر السلامة عن طريق الأخوة والصفاء، أو بواسطة مواكب النصر التي عودنا الله إياها، وإن جندنا لهم الغالبون.

محمد العربي الزكاري

ذكرى الكفاح

ثورة الملك والشعب

للشاعر الأستاذ محمد بن محمد العلمي

في مثلِ يومكَ هذا أيها الوطنُ، … لقد تعجّبَ من إقدامكَ الزمنُ
نفضتَ عنكَ غبارَ الذلّ منتهجاً … سُبُلَ المعالي التي تجثو بها المحنُ
ما نالَ همتكَ القعساءَ مغتصبٌ، … إنّ اعتزامكَ لا ضعفٌ ولا وهنُ
ذكرى الكفاحِ تُعيدُ القلبَ مبتهجاً … وليس يبقى بها في شعبنا حزنُ
ذكرى تعيدُ إلى الإيمانِ قوّتَه، … والتضحياتُ لما نهفو له ثمنُ
وسطوةُ الغاصبِ الملعونِ ما قهرتْ … شعباً تلاشتْ به الأحقادُ والإحنُ
قد كانَ مطمحَ الاستعمارِ منحصرا … في أن تسودَ هنا الأرزاءُ والفتنُ
لكنْ، لقد خابَ في مكرٍ يُبيّتُه، … والاتحادُ على أعدائنا حسنُ
عفْنا القيودَ، فحطّمنا سلاسلها، … والشعبُ لم يُرضِه في حقّه الغبنُ
والجمرُ تحتَ رمادِ الشعبِ مستترٌ، … فلا يغرّنْكَ لا سرٌّ ولا علنُ
إنّا أردْنا حياةَ العزِّ في بلدٍ … يفديه في الأزماتِ الروحُ والبدنُ
فسلْ تواريخَنا عن نُبلِ همّتنا … فإنها شممٌ منْ دونه القُننُ
لم نرهبِ الظلمَ، والأهوالُ ماثلةٌ، … وليس في قصدنا شرٌّ ولا درنُ
منْ عاشَ منا، ففي البُشرى معيشتُه، … أمّا الشهيدُ، ففي عليائه الكفنُ
مرحى لِمنْ ناضلوا، والحقُّ رائدهم، … فالقلبُ يعشقهم، والعينُ والأذنُ
طوبى لمنْ ثبتوا عند الكفاحِ، فما … هانت عزائمهم يوماً، ولا فُتِنوا !
لم يُخدَعِ الشعبُ بالأوهامِ تنسجها … يدُ الدخيلِ الذي في جفنه الوسنُ
ولم يقلْ غيرَ حقٍّ كانَ يطلبه، … فلم تفتْه فروضٌ دونها السُّننُ
ولم يُخاتلْه منْ ياتي بحيلته، … فما استوى الورمُ المفضوحُ والسِّمنُ
وقد تفنّنَ أهلُ البغي في كذبٍ، … لكنّهم عند فجرِ الحقّ قد لُعِنوا
وقد تحوّلَ في ذلٍّ ومسكنةٍ، … منْ كانَ بالأمسِ للأحداثِ لا يزنُ

وقد تجرّع كأس الصّاب في ضعة … منْ باللذائذ والأحلام قدْ فُتنوا
وقد تستّر في الآهات يقرأها، … مَنْ للخيانة والأعداء قدْ ركنوا
وقد تباعد أهلُ الشرّ أجمعَهم … إذ لم يَفُزْ منهمو قِرْدٌ ولا وثَنْ
واليومَ هاهُمْ من الأخواف في رهَقٍ، … يَستنجدُون، فما سادوا، ولا أمِنوا
كانوا يظنّون أن الأمر مُنسجِمٌ … لكنّهم بُهتوا طراً بما احتضنوا
بالأمس غرّتْهم الدنيا وزخرفُها، … واليومَ لمْ يَجِدهم أهلٌ ولاسكَنْ
والبؤسُ يضربهم بالسوْط منتقماً، … إذْ ليس في جوفِهم ثَمَنٌ ولا لَبَنْ
وكلّما ذُكِروا فاحَتْ مساوئهم، … فهُمْ بمأساتِنا الكبرى قد اقترنوا
فنحنُ كنّا معيناً راقَ منهلُه، … وهُمْ من اللُّؤمِ في أحشائهم أسَنْ
والغاصبُ الجلْفُ لا تخفى حقيقتُه، … بَعْدَ الليونةِ يَبْدو طبْعُه الخشِنْ
أمّا الأُباةُ، فقد ساروا لغايتهم، … وللخلاصِ والاستقلال قد ضَمِنوا
فلنمْلإِ الجوَّ أنغاماً نُردّدها، … فالخصْمُ في قلبِه منْ نَصْرنا شجَنْ

بشرى بنهضَتِنا الكبرى، ونغْمتِها، … فإنّها زهَرٌ قدْ ضمّهُ الْفَنَنْ
فالشعبُ رامَ من الأمجادِ أحسنَها، … إن (ابنَ يوسفَ) في إيمانِه الرّسَنْ
قد شرّفَ الوطنَ المحبوبَ حين مضى … إلى الفداء، وقلبُ الشعب مُرْتهَنْ
ودشّنَ الطفرةَ الأُولى لأمّتِه، … وللمليكِ على أبنائِه مِنَنْ
ولم ينَمْ جفْنُه والخصمُ مُنتصِبٌ، … ونارُه تشتكي مِنْ وقْعِها الدِّمَنْ
بل قامَ قوْمتَه، واللهُ يكْلأهُ، … وفي القُرى ثورةٌ ترتادُها المُدُنْ
قد هبّ للوثْبةِ الكبرى ورَوْعَتِها … مَنْ لم يخبْ منهم الإحساس والرّكَنْ
وللشبابِ أيادٍ لسْتُ أغفلُها، … وقد تقدّمَ في إبدائها (الحسَنْ)
و(عائشٌ) روحُها نورٌ وتضحيةٌ … تَسْمو بها الصالحاتُ الحُورُ والحصَنْ
أكْرِمْ بنَهْجِ أُباةٍ كلُّهُ عِظَةٌ، … والمخلصونَ لهم مِنْ بأسِهم سَنَنْ
إنّ الفِداءَ من البلْوى يطهّرنا، … أعظِمْ بها مِهْنةً تهْفو لها المِهَنْ !

☆ ☆ ☆

للّهِ درُّ أُسُودٍ قامَ يحفِزُهم، … حُبُّ البلادِ، فما ارتاعوا، ولا جَبُنوا !
للّهِ درُّهمو، والشعبُ خلْفَهمو، … يحمي العرينَ، ومِنْ أرْواحِه الثّمَنُ !
والضّيقُ منفرجٌ مهما طغَتْ فِئَةٌ، … والنصْرُ توّجَ مَنْ في حبّه امْتُحِنوا
ما كان في السجنِ عارٌ لِلأُلى عَظُمَتْ … أخلاقهم، فذَوُو الإيمان قد سُجِنوا
إنّ الشهيدَ لَحَيٌّ في عشيرتِه، … والأغبياءُ، وهُمْ أحياءُ، قد دُفِنوا !
وإن تلاطَمَ موْجُ الظلم في بلدٍ، … فمنْ أشاوسِه قد هبّت السُّفُنُ
وإن تحرّكتِ الأحرارُ في جلَدٍ … وقوّةٍ، فالأعادي كلُّهم سكَنوا
فقد مضى جيشُ الاستعمار مُنخذِلاً، … والظلم مندحِر، والحقُّ لا يَهِنُ
والأشقياءُ بنفْسِ الدّاء قدْ قُتِلوا، … والغاصبونَ بنفْسِ السّيْفِ قدْ طُعِنوا
فلم يُفِدْهم قتيلاً كلُّ ما شحَنوا … مِنَ الجيوشِ، وما جاروا، وما اختزَنوا

وسبتةٌ (مليليةُ) (الصحراءُ) مَغْرِبُنا ... أصْلٌ لها، فهو باسْترجاعها قَمِنْ
إنّ الدخيلَ الذي ندري دَخيلتَهُ، ... لم يُجْدِهِ معْنا التحذيرُ وَالحَقَنْ
لا تَقْبلُ المَسْخَ في أوطاننا أبداً، ... ولا يميلُ بنا تغريرةُ العَفِنْ
لا تَقْبلُ البَتْرَ في أوطاننا أبداً، ... فَنَحْنُ طَرّاً على الأوطانِ نُؤتَمَنْ
فلا انفصالَ، ولا استفتاءَ في وطَنٍ ... أبناؤهُ لاَحْتيالِ الجارِ قدْ فَطِنُوا
فنحْنُ لَسْنا منَ القومِ الذين لقدْ ... أغْواهمُ الباطلُ المَعْسولُ فافْتَتَنُوا !
مَنْ رَامَ حقاً تصدّى بالجهادِ لهُ، ... فالحقُّ في غَيْرَةِ الأحرار يُرْتَهَنْ
والحقُّ يُعْطَى لِمَنْ نادى بهِ أبداً، ... وإنْ تجاهلتِ الهيئاتُ واللّجَنْ !
ونَحْنُ نَشْجُبُ من باعوا ضمائرهم ... للطامعينَ، فلم يُذْكَرْ لَهُمْ ثَمَنْ !

☆☆☆

إنّ التلذُّذَ بالذكرى لَمَأْثُرةٌ ... تحيا على نورها الألبابُ والفِطَنْ
وفي الإشادةِ بالأوطانِ مَفْخَرةٌ ... لقدْ تكاملَ فيها الشعْرُ واللّسَنْ
فعِشْ عزيزاً، رفيعَ الشأن، منتهجاً ... شرْعَ المحبّةِ، وَاسْلَمْ أيُّها الوَطَنْ !

خُطّة الحِسبة
في النظر والتطبيق والتدوين



●● أصدر الأستاذ عبد الرحمان الفاسي محافظ الخزانة العامة وعضو أكاديمية المملكة المغربية كتابا بعنوان (خطة الحسبة في النظر، والتطبيق، والتدوين) عن دار الثقافة بالدار البيضاء. ويقع الكتاب في 176 صفحة من القطع المتوسط ●●

من التراث الفقهي في المغرب الإسلامي:

وثائق أبي الحسن الجزيري

للأستاذ محمد العربي الخطابي

يرتبط التوثيق بالفقه وأحكام الشريعة ارتباطا تاما، وهو كالنوازل والفتاوي وجه من وجوه التطبيق الفقهي، ولذلك عني به فقهاء الإسلام ووضعوا له القواعد والأصول حتى أصبح علما قائما بذاته في ظل الفقه الإسلامي العام.

وقد عني أهل المغرب الإسلامي بهذا الضرب من علوم الفقه، وبرز فيه فقهاء وقضاة ذوو مكانة مرموقة حتى إنك لتجد في كتب التراجم والطبقات أعلاما مشهورين يوصفون بمعرفة الشروط وضبطها وبالمهارة في عقدها والتصرف فيها وفقا لأحكام الشرع، وصنفت مؤلفات أصبحت من المراجع الرئيسية في هذا الفن مثل كتاب «الوثائق والسجلات» لمحمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار (ت عام 399 هـ / 1009 م)، و«المقنع في علم الوثائق» لابن مغيث (ت عام 459 هـ / 1066 م)، و«الوثائق والمسائل المجموعة من كتب الفقهاء» لابن فتوح البنتي (ت عام 462 هـ / 1070 م) و«المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود» لأبي الحسن علي بن يحيى بن القاسم الصنهاجي الجزيري (ت 585 هـ / 1189 م)، وهو موضوع هذا المقال. وكتاب الوثائق للقاضي أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم محمد الفشتالي (ت 823 هـ / 1420 م)، والمنهج في أداب الموثق وأحكام الوثائق» لأحمد الونشريسي (ت 914 هـ / 1508 م) * وشرح فقه وثائق الفشتالي لنفس المؤلف.

وقد عني جل مؤلفي هذه المصنفات بتقديم نماذج من الوثائق والسجلات تشمل جميع أنواع العقود في مختلف فروع الفقه الإسلامي بما يقتضيه الحال من تقييد أو إطلاق، وذيلوا صيغ هذه العقود بمادة فقهية غزيرة على مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه - مما أضفى على مصنفاتهم قيمة علمية إلى جانب أهميتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية.

ومما يؤسف له أن هذا الفرع الجليل من علوم الفقه لم يلق من الباحثين المسلمين في هذا العصر الاهتمام الذي يستحقه ولم تنهض الهمم للبحث عن مظانه ودراستها ونشر المخطوط منها بعد تحقيقه وتعليقه وفهرسته على المنهج الحديث، على أن بعض المستعربين الأسبان قد وجهوا عنايتهم لدراسة فن التوثيق الشرعي عند مسلمي الأندلس نذكر منهم سالبادور بيلا Salvador Vila الذي أنجز دراسة

---

*) طبع هذا الكتاب بالطباعة الحجرية في فاس عام 1298 هـ، طبعة بدون مقدمة ولا فهارس يعوزها منهج التحقيق. ومن هذا الكتاب نسخ خطية عديدة بالخزانة الحسنية بالرباط، ويمتاز منهج الونشريسي بكونه مؤلفا في قواعد التوثيق وأحكامه وأساليبه.

حول كتاب «المقنع في علم الوثائق» لابن مغيث، وخابيير أكيري سابدا Javier Aguirre Sabada الذي أخذ على عاتقه ترجمة هذا الكتاب، وبيدرو شالميتا Pedro Chalmeta الذي حقق كتاب الوثائق لابن العطار وصدره بمقدمة باللغة الأسبانية وطبع ضمن منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة في مدريد (1983) بتعاون مع مجمع الموثقين المجريطي. هذا ويعتزم شالميتا السير في هذا الطريق بما خططه لنفسه من دراسة مصنفات الوثائق وتحقيق ما يقع بين يديه من أمهاتها، وقد قدمنا له منها مادة مصورة مأخوذة من ذخائر خزانة الكتب الحسنية تشجيعا له على المضي في هذا السبيل لما نعرفه فيه من مقدرة، وصبر على البحث واطلاع على تراث المغرب الإسلامي في مجال الوثائق والسجلات والتاريخ الأندلسي بصفة عامة.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن بعض الجمعيات المهنية للموثقين الأسبان - من غير المستعربين - تظهر من جهتها اهتماما بالوثائق الإسلامية الأندلسية بدافع الرغبة في الاطلاع على التطور التاريخي لهذا الفن واستجلاء آثاره، وتأثيراته.

المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود

يعد هذا الكتاب من المصادر الرئيسية في علم الوثائق وعقد الشروط، وهو ما يزال مخطوطا ينتظر من يحققه ويخرجه إلى النور. وقد اشتهر في المغرب والأندلس باسم «وثائق الجزيري» وبقي عمدة الموثقين والقضاة أحقابا من الزمن حتى انحطت خطة التوثيق وأصبحت قوالب جامدة ركيكة اللفظ مهلهلة التركيب.

مؤلف الكتاب هو أبو الحسن علي بن يحيى بن القاسم الصنهاجي الجزيري، نسبة إلى الجزيرة الخضراء التي نزل بها وولي قضاءها، وأصله من المغرب، وكان فقيها عارفا بعقد الشروط، معدودا من الزهاد الأتقياء (1) توفي عام 585 هـ / 1189 م. من مؤلفاته «المقصد المحمود» نهج فيه طريقة الإيجاز، وصدره بباب فيما يجب على الموثق وما ينبغي أن يتوافر فيه من شروط، وهو كتاب وثائق وفقه يقدم مؤلفه الصيغة النموذجية للعقد ويتبعها بما يقتضيه الحال من تقييد ثم يعرض المادة الفقهية المتعلقة بموضوع الوثيقة على مذهب الإمام مالك. وفي الكتاب باب متعلق بالقضاء وأحكامه لخص فيه المؤلف آراء علماء المذهب في شروط القاضي وواجباته الدينية والخلقية والمهنية، وبين الأحكام الموكول إليه النظر فيها شرعا مع الإجراءات المسطرية التي يجب اتباعها في مجلس القاضي.

يوجد من كتاب «المقصد المحمود» نسختان خطيتان بالخزانة الحسنية في القصر الملكي العامر بالرباط. رقم الأولى 5867 / فقه، وهي بخط مغربي متوسط، بمداد بني والعناوين بالأحمر في الغالب، وعليها طرر، مسطرتها 29، ومقاسها 4، 28 × 5، 20، وعدد أوراقها 112، كتبها الطاهر بن محمد بن ابراهيم المصلى وفرغ من نسخها في 27 شوال عام 1189 هـ. وفي آخر هذه النسخة تقاييد فقهية مختلفة، (وقد رمزت لها بحرف أ).

ورقم النسخة الثانية 5221 / فقه، تقع ضمن مجموع، وهي بخط مغربي متوسط بمداد بني مسطرتها 23، ومقاسها 5، 20 × 15 سم، وعدد أوراقها 131. لم يرد فيها اسم الناسخ ولا تاريخ الفراغ من كتابتها، ومع هذه النسخة فصول من «مسائل أبي سعيد بن لب» (حرف ب).

وقد اخترت من كتاب «المقصد المحمود» فصولا أحببت تقديمها للمهتمين بهذا الفن من الباحثين والطلاب، وغرضي من ذلك ببليوغرافي في المقام الأول، وهو التعريف بذخائر التراث الإسلامي المخطوط والإشارة إلى مظانه.

وقد اعتمدت في تحقيقها على النسختين المذكورتين آنفا، وعلى نسخة جيدة ثالثة من خزانة أستاذنا وصديقنا الوزير الجليل والأديب البارع الحاج محمد أبا حنيني حيث تفضل بتمكيني من الاطلاع عليها والإفادة منها بعد أن أهدى نسخة مصورة منها للخزانة الحسنية.

وهذه النسخة عتيقة مكتوبة بخط أندلسي مليح بمداد أسود، وعليها حواش فقهية بخط مغاير لخط المتن، مسطرتها 25، ومقاسها 26 × 20 سم، وعدد أوراقها 155، تنقصها نحو ورقتين من آخرها. (حرف ج).

---

1) انظر ترجمته في «نيل الابتهاج»، ص 200، وفي «شجرة النور الزكية»، ص 158، وفي «الأعلام» 5 : 32 (الطبعة الرابعة).

وقد اخترت من «المقصد المحمود» فصلا في واجبات الموثق، ونموذجا لعقد قراض بإطلاق وتقييد مع ما يتصل به ويحكمه من فقه، ثم أتبعت ذلك بفصول في خطة القضاء وواجبات القاضي.

ويضم الكتاب في جملته نماذج من العقود الشرعية التي تدعو إليها الحاجة في المعاملات المدنية والتجارية والمالية والاجتماعية كالزواج والطلاق والحضانة والوصايا والتركات والبيوع والمساقاة والمغارسة والودائع والعرايا والتزكية وإشهار الإسلام والأحباس والهبات وغيرها، وكل ذلك مدعم ببيان الأحكام الفقهية التي تناسب كل وثيقة.

ما يجب على الموثق

«يجب على الموثق أن يتقي الله تعالى فيكتب كما علمه الله وينصح فيه لمن استعمله، فيوثق للمحق ويتحرز من إبطال حق، ويتجنب الألفاظ المحتملة والمجملة والمبهمة والمشتركة لاسيما في قطع الدعاوي، ولا يقيد موضع الإطلاق كما لا يطلق موضع التقييد لأن في ذلك إخلالا بالعقود وتسبيبا للضرر من دليل لفظ الخبر كما قد رأيت لبعضهم وقد قصد نفي الشرط مطلقا فقيده بصفة الفساد وذلك يحيل حقيقة الإطلاق فوجب بدليله وجود شرط صحيح فيدخل الضرر. وأقل ما يلزم في الحكم لحقوق اليمين، ولعله ممن يتورع ولا يريد أن يحلف وإن كان محقا فيكون ذلك ذريعة للفساد، وكذلك رأيت آخر يقول في عقود البيوع : لم يستبق البائع لنفسه، فزيادة «لنفسه» هاهنا تدخل الضرر لاحتمال أن يكون استبقى لغيره من جار له مرفقا أو منفعة في العقار، وأمثال هذا يقع كثيرا من غفلة الموثق أو من جهله بمعاني الكلام.

ومدار التوثيق على معرفة الفقه والأحكام والفهم لمعاني الكلام، فإذا رام العاقد المحسن عقدا من العقود ربط أصوله، وهذب فصوله، وسد مسالك الخلل، وعفى موارد الزلل حتى لا يجد الناقد مدخلا للحل، ولا لينا في ألفاظه يتأتى فيها الفل (2) ويعتذر بعد التاريخ من بشر أو لحق أو محو، وقيل لا يعتذر من المحو إذ لا يقع إلا من الكاتب، والأول أقطع للاحتمال، وإن وقع بشر أو محو في اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ أو في اسم نبي استبدل العقد إجلالا وتعظيما لله ولرسله عليهم السلام (3).

عقد قراض*

دفع فلان إلى فلان كذا وكذا دينارا من سكة كذا، وقبضها منه فلان وصارت في يده طيبة وازنة (4) ليتجر بها فيما شاء من أنواع المتاجر ويضرب بها في البلدان إن شاء ويبتغي فيها من فضل الله تعالى، وله منها نفقته في شخوصه وإقامته في سفره ورجوعه إلى بلده بالمعروف، فما أفاء الله تعالى عليهما من ربح فهو بينهما بالسواء بعد أن ينض (5) رأس المال ويحصل بيد ربه، وعلى العامل بذل النصيحة وإخلاص النية وإصلاح السريرة والاجتهاد في أداء الأمانة في سره وجهره وألا يحابي في بيعه وابتياعه قريبا مناسبا ولا صديقا ملاطفا. ولم يتصل بينهما في ذلك شرط ولا مثنوية ولا خيار، على سنة المسلمين في قراضهم الجائز بينهم ومرجع دركهم(6).

تقييد :

وإن شرط عليه التجارة به في نوع مخصوص وكان كثير الوجود قيدت في ذلك وصارت في يده وازنة طيبة

---

2) الفلّ : من فلّ السيف : ثلمه وكسره في حدّه، والمقصود وضع الألفاظ في مكانها المناسب بحيث لا تؤدي إلى اختلال المعنى وغموض القصد.

3) للتوسع في قواعد التوثيق وأحكام عقد الشروط يراجع كتاب «المنهج» للونشريسي الذي سبقت الإشارة إليه.

*) القراض ـ ويقال له المضاربة أيضا ـ هو إعطاء المال لمن يتجر به بجزء مسمى من الربح.

4) وازنة : قائمة الوزن.

5) نضّ (المال) ينض : حصل وتيسّر.

6) الصيغة التي قدمها ابن العطار في وثائقه تختلف في الشكل والتفاصيل عن صيغة الجزيري، فابن العطار أوضح في البداية أن وثيقة القراض من مشكل المساقاة لا تقاس بشيء ولا يقاس عليها شيء وإنما فيها الاقتداء بالسلف واتباع الأثر، كما عين ابن العطار ما ينوب ربّ المال من ربح فقال : «فما يسر الله عز وجل في الذهب المذكور من ربح... اقتسماه بينهما بنصفين، أو لرب المال ثلثاه وللعامل ثلثه، أو ما اتفقا عليه من الأجزاء بعد أن يقبض رب المال رأس ماله ويحصل له». فابن العطار قدم نموذجا لوثيقة بإطلاق وتقييد بينما قدم الجزيري وثيقة مطلقة ثم ذيلها بما يناسب من تقييد.

ليديرها في متجر البزازين أو الخياطين بسوق كذا ولا يتعدى المتجر المذكور إلى غيره، ثم تكمل العقد، وإن أطلق له التجر في كل شيء إلا في شيء واحد معين ذكرت ذلك بحسب ما يقع عليه الاتفاق ويوافق الشرع.

فقه :

القراض مستثنى من الجعل المجهول فيفسد بما يعدل به عن وجه الرخصة الواردة به ولا يلزم بالعقد وإنما يلزم بالشرع، وللعامل أن ينحل متى شاء ما لم ينشب رأس المال في سلع فعليه بيعها وما اتفقا عليه من الأجزاء جاز، ولأحدهما أن يشترط على الآخر زكاة الربح ولا يجوز أن يشترط رب المال زكاة المال على العامل.

ولا يجوز القراض إلا بالعين، وفي النقد والفلوس خلاف، وبالمنع جرى العمل.

ولا يجوز قراض بوديعة ولا بدين يقتضيه أو هو عليه ولا بعرض ولا بطعام.

وإذا وقع القراض فاسدا وجب الفسخ، فإن فات بالعمل فللعامل أجر مثله إلا في أربعة أشياء، وقد جمعها بعضهم في بيتين وهما :

لكل قراض فاسد أجر مثله
سوى أربع قد حصلت ببيان
قراض بعرض أو قراض لغاية
أو إبهام حظ أو قراض ضمان

وللعامل أجر مثله في بيع العرض وقراض مثله في العمل بثمنه، ولا ضمان على العامل فيما أتلف (7) إلا أن يفرط أو يتعدى، وكذلك لا خسارة تلزمه، فإن عمل بعد ذلك جبر الخسارة من الربح، وعمل على ذلك إلا أن يكون قد صرف بقية رأس المال إلى ربه وقبضه منه وبرىء منه ثم أخذه منه بعد ذلك.

ولا يجوز أن يقتسما الربح إلا بعد تنضض (8) رأس المال وإبرازه، فإن اقتسما الربح قبل ذلك ثم خسر في المال جبر رأس المال مما اقتسماه، وكذلك إن تلف رد العامل ما أخذ، ولا نفقة للعامل من المال إذا اتجر به في البلدان (9) إلا أن يشغله البيع والشراء عن الالتفات (10) إلى منزله فله أن يتغدى بالأفلس وله النفقة منه إذا سافر به ولا كسوة له إلا أن يكون المال كثيرا، وإن كان المال يسيرا جدا فلا نفقة له وإن سافر إذا كانت النفقة تستغرق أكثره، ولو سافر (به) إلى بلد له فيه أهل فلا نفقة له في ذهابه ولا في إيابه، وإن لم يكن له فيه أهل فله النفقة في ذهابه دون إيابه، وإن كان بيده مال (له) كانت نفقته بقدر ماله ومال القراض.

وإن اختلفا في أجزاء القراض فالقول قول العامل إذا أشبه.

وإذا ابتاع العامل سلعة فتلف ثمنها قبل دفعه لزمه الابتياع، فإن دفع رب المال من عنده الثمن بقي على قراضه وإلا كانت للعامل.

ولا يجوز لرب المال أن يشترط عليه ألا يشتري أو يبيع إلا من فلان إلا برأيه (11)، ويرد العامل في ذلك إلى أجر مثله.

ولا ينبغي أن يدفع القراض إلا لمتدين عارف بأبواب الربا ووجوه المكاسب المباحة. وإن ادعى العامل رد مال القراض إلى ربه : فإن كان قبضه ببينة لم يبرأ إلا ببينة، وله تحليفه، وإن قبضه بغير بينة صدق في رده، وإن قال رب المال : هو سلف، وقال العامل : قراض، فالعامل مدع، وفي عكس هذا يكون رب المال مدعيا.

ولا يجوز دفع المال على أن يشتري به جلودا يعملها أو نخلا يطلب ثمرها أو حيوانا يبتغي نسلها أو أن يزرع به أو أن يعطيه مالين على جزءين مختلفين أو أن يكون لأحدهما من الربح عدد مسمى ثم يقتسمان الباقي أو على ألا يبيع إلا بالنسيئة أو من رجل مخصوص، وذلك كله مفسوخ ويتعذر استقصاؤه.

---

7) في ج : فيما تلف.
8) في ج : تضوض.
9) في ج : في البلد.
10) في ج : الانقلاب.
11) في ب : وإلا برأ به.

وإن أراد رب المال التفاصل (12) وأبى العامل، والمال في سلع، فإن كان وقت (13) سوقها بيعت وتقاصلا وإن لم يحل وقت إبان سوقها أرجيء الأمد إلى وقته. ويجوز أن يشترط رب المال على العامل ألا يبيع بدين وألا يشتري سلعا سماها إذا كانت قليلة وألا ينزل بطن واد ولا يركب بحرا، ولا نحو ذلك.

شروط القاضي

شروط القاضي (14) على ضربين : مستحقة ومستحبة.

فالمستحقة ثمانية : الحرية، والإسلام، والعقل، والبلوغ، والذكورة، والرشد (15)، والعدالة، وسلامة السمع والبصر والكلام، لا يتولى (16) القضاء إلا من اجتمعت فيه وتسقط الولاية بانخرام شرط منها (17).

والمستحبة كثيرة وإياها عنى مالك - رحمه الله - بقوله : «لا أرى خصال القضاء تجتمع اليوم في أحد، فإذا اجتمع له منها خصلتان ولي القضاء وهما : العلم والورع» وقال ابن حبيب، فإن لم يكن علم فعقل، فبالعقل يسأل وبالورع يعف».

ومن المستحبة **العلم** الذي يتأتى به الاجتهاد في النوازل أو عند حصول الخلاف، وذلك بمعرفة أحكام القرآن وحفظ الحديث الصحيح وقوانين القياس والإجماع واختلاف الصحابة، وأن يعرف من العربية ما يفهم به معاني الكلام ومقاصد الألفاظ، ولهذا قال مطرف وابن الماجشون وأصبغ : «لا يولى القضاء صاحب رأي لا حديث عنده ولا صاحب حديث لا فقه له»، ومنها **الورع والغنى والذكاء** وأن يكون معروف النسب صحيح القريحة حصيف العقل لا يستقل بالعقل الغريزي **مستخفا بالأئمة** (18) بلديا، مستشيرا لذوي الرأي، ويعزل الجاهل إلا أن لا يوجد غيره ويومر بالسؤال ويتفقد أمره في كل حين.

والعالم الذي لا بأس بحاله أولى من العدل الفاضل (19)، قال سحنون : «فإن لم يكن في المصر إلا عالم فقير ولي ولا يقعد حتى يغنى وتقضى عنه ديونه، ولا بأس باستقضاء ولد الزنى ولا يقضي في الزنى». واختلف في أحكام الفاسق فقيل : ترد - وهو مشهور المذهب - وقال أصبغ (20) : لا ترد.

فصل : القضاء محنة وبلية ومن دخل فيه فقد عرض نفسه للهلاك لأن التخلص منه عسير، فالهروب منه واجب، لا سيما في هذا الوقت، وطلبه نوك (21) وإن كانت حسبة، قاله الشعبي ورخص فيه بعض الشافعية إذا خلصت نيته للحسبة بأن يكون قد وليه من لا ترضي أحواله، والأول أصح لقوله عليه السلام : «إنا لا نستعمل على عملنا من أراده» وقال : «لا تسأل الإمارة فإنك إن أتيتها من غير مسئلة تعن عليها وإن تؤتها عن مسئلة وكلت إليها» (22) ولا شك أن من وكل إلى شيء ولم تكن له معونة من الله فقد أضاع ما وكل إليه، وطلبه والحرص عليه حسرة وندامة يوم القيامة. وقال عليه السلام : «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين».

والواجب على من ابتلي به أن يحكم بالعدل ولا يتبع الهوى ولا يمايل أهل النار (23) ولا يقضي وبه معنى يشغل ذهنه وفهمه من غضب أو جوع أو عطش أو ضجر أو عجز أو هم أو نعاس أو كسل. ويجب عليه تحري العدل في الملاحظة وقعود الخصمين بين يديه، فإن حكم بالعدل وتوخى الحق فله الأجر العظيم لقوله تعالى : **﴿إن الله يحب المقسطين﴾** (24) ولقوله عليه السلام : «المقسطون

---

12) في أوب : التفاضل (بالضاد المعجمة).
13) في ج : فإن كان حل وقت.
14) في ج : القضاء.
15) في ج : التوحيد بدل الرشد.
16) في ج : لا يولى وهو أصوب، لأن القاضي لا يتولى بنفسه.
17) في مذهب الإمام الطبري أن المرأة يجوز لها أن تتولى القضاء، وأجاز أبو حنيفة قضاء المرأة في الأموال.
18) عبارة ساقطة في ج.
19) في ج : العدل الجاهل.
20) في ج : أشهب.
21) النوك : الحمق.
22) في ج : فإنك إن تؤتها عن غير مسئلة تعن عليها وإن تؤتها عن مسئلة وكلت إليها. ولفظ الحديث في صحيح البخاري : «عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها...».
23) في ج : يمائل أهل الدنيا.
24) سورة المائدة / 42.

يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين» ولأنه بدأ بالإمام العادل في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله، (وظله هنا جنته ورحمته). فمن عصى من هذه صفته فقد عصى الله ورسوله وتعدى حدوده.

ويستحب له الجلوس في رحاب المجلس ليصل إليه الضعيف والحائض والجنب والكافر من غير تضييق عليه في ذلك. واستحب له أشهب وابن المواز أن يجلس معه الفقهاء لينبهوه إن أخطأ أو وهم، ويستدرك قضيته للحين قبل الفوت إلا أن يخاف الحصر (25) من حضورهم أو اشتغال خاطره بهم فلا يفعل، ويستشيرهم إذا قام من مجلسه، ولم يستحب ذلك غيرهما (المقصود : أشهب وابن المواز).

ويكره له أن يخص أحد الخصمين بسلام أو بر أو بكتاب يكتبه إليه أو يضيفه، ولا يبيع ولا يبتاع في مجلس حكمه، ولا يقبل هدية لا من قريب ولا من صديق وإن كان كافأ عليها بأضعافها إلا أن يكون مثل الولد والوالد، ولا يجيب الدعوة إلا في الوليمة، وهو في الأكل بالخيار، ولا يقول للمرأة والضعيف : اقعد هناك حتى أنظر في أمرك، لنهي النبي عليه السلام عن ذلك، ويتنزه عن طلب الحوائج والعواري والمقارضة، وذلك خفيف إن وقع، ولا يقضي وهو ماش ولا في أيام العيد إلا فيما يخاف فوته ولا يسعه تأخير النظر فيه، ولا يقضي بليل ولا في سحر إلا فيما خف مما تدعوه إليه الضرورة، ولا يفتح مجلسه إلا لأهل العدل والفقهاء ممن يحتاج إلى مشورته أو شهادته، ولا يفتي في مسائل الخصام، وله ذلك في مسائل الحلال والحرام وأمور الصلاة والصيام.

ولا يحكم إلا لمن تجوز له شهادته، فلا يحكم لابنه ولا لأبيه ولا لزوجه أو محجوره وشبههم، ويجوز حكمه عليهم، ولا يحكم على عدوه ويحكم له.

ولا بأس أن يحد نظره أو يرفع صوته لمن استأهل ذلك من الخصمين، ولا بأس أن يحتج عمن ضعف عن حجته إذا ظهر له الحق فيها ولا يفعل ذلك لقوم دون آخرين.. (وإذا كثر عليه الخصوم قدم الغرباء قبل المقيمين وكتب أسماء المقيمين) (26) ثم يدعو باجتهاده من شاء منهم واحدا بعد واحد.

وله أن يعود المرضى ويشهد الجنائز ويسلم على من يمر عليه ويرد السلام.

وينبغي له أن يتخير الأعوان ويتفقد أمورهم، فمن استراب منه أمرا نفاه، ولو أمكن الاستغناء عنهم لكان أحسن، ولكن الضرورة تدعو إليهم.

كتاب الخليفة عمر

ورسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ أصل في القضاء يجب حفظها وهي :

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك وأنفذ إذا تبين لك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

«آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك.

«البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا.

«لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

«الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك بنظائرها، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق.

«واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى.

«المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو نسب، فإن الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان.

«وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتلكؤ (27) عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق

---

25) الحصر (بفتح الحاء والصاد) : ضيق الصدر.

26) جملة ساقطة في ج.

27) في ج : والتنكر على الخصومات، وفي الكامل للمبرد : والتنكر عند الخصومات.

يعظم الله به الأجر ويحسن عليه الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب (في) عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام» (28).

سلطة القاضي

ويشتمل نظر القاضي على عشرة أحكام :

أحدها : قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين إما بصلح عن تراض يراد به الجواز، وإما بإجبار بحكم ثابت يعتبر فيه الوجوب.

والثاني : استيفاء الحق لمن طلبه وتوصيله إلى يديه إما بإقرار أو بينة. واختلف في جواز حكمه بعلمه، والصحيح منعه.

والثالث : إلزام الولاية للسفهاء والمجانين والتحجير على المفلسين حفظا للأموال.

والرابع : النظر في الأحباس والوقوف، والتفقد لأحوالها وأحوال الناظر فيها.

والخامس : تنفيذ الوصايا على شروط الموصي إذا وافقت الشرع، ففي المعينين يكون التنفيذ بالإقباض، وفي المجهولين يتعين المستحق لها بالاجتهاد، فإن كان لها وصي رعاه وإلا تولاه.

والسادس : تزويج الأيامى (29) من الأكفاء إذا عدم من الأولياء.

والسابع : إقامة الحدود، فإن كانت من حقوق الله تفرد بإقامتها إما بإقرار يتصل بإقامة الحد أو بمعظمه، وإما ببينة أو ظهور حمل من غير زوج. وإن كانت من حقوق الآدميين فبطلب مستحقها.

والثامن : النظر في المصالح العامة من كف التعدي في الطرقات والأفنية، وإخراج ما لا يستحق من الأجنحة والأبنية.

والتاسع : تصفح الشهود وتفقد الأمناء واختيار (30) من يرتضيه لذلك.

والعاشر : وجوب التسوية بين القوي والضعيف وتوخي العدل في الحكم بين الشريف والمشروف.

صفة قعوده للأحكام وكيفية نظره فيها

يجلس متربعا أو محتبيا (31)، عليه السكينة والوقار. ويقعد الخصمين بين يديه كانا قويين أو ضعيفين، أو أحدهما قويا والآخر ضعيفا، ومن جفا منهما صاحبه زجره وأدبه بحسب ما تقتضيه حاله.

ويجلس معه عدلان، ويجوز أن يكون أحدهما كاتبه.

ويسمع (قول المدعي، فإن لم يفهمه استعاده، فإذا فهم قوله سأل) (32) المدعى عليه عما عنده، فإن أقر له قيد إقراره وشهد عنده العدلان، ولا يجتزيء بسماعهما بمحضره، وهل يعذر فيهما إلى المقر أم لا فمنعه ابن العطار (33) وأباحه ابن عمر وأنفذ القضية عليه، فإن أنكر سأل المدعي أله بينة ؟ فإن قال نعم، قال قربها إن شئت.

فإن جاءه الشاهد فليسهل (34) عليه أمره ولا يطل عليه القيام، فإن كان من أهل النباهة (35) اكتفى بمجرد الإدلاء، وإن كان ممن لا يعرف بما تصح به الشهادة سأله عن وجه معرفته بها ـ وقد تقدم هذا ـ وإن قال كل واحد من المتداعيين إن المدعي أو المدعى عليه أمرهما بالارتفاع عنه، فمن جاءه منهما قبل الآخر فهو المدعي، وقيل يقرع بينهما، وإن سأل المدعي القاضي أن يرفع له المطلوب رفعه بطابع يدفعه إليه، وقال سحنون : لا يرفعه حتى يثبت شبهة توجب ذلك ليلا يدعي باطلا إلا أن تكون عليه آثار من جراح ونحو ذلك. وإن كان لأعوانه رزق من بيت

---

28) نص هذه الرسالة في عيون الأخبار 1 : 66، وفي البيان والتبيين 1 : 69، وفي الكامل للمبرد 9، وفي الأحكام السلطانية للماوردي 119 ـ 121، وفي العقد الفريد 1 : 33، وفي السنن الكبرى للبيهقي 10 : 182.

29) في أ ـ ب : اليتامى.

30) في أ : واختبار (بالباء).

31) احتبى : جلس على أليتيه وضمّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

32) جملة ساقطة في ج.

33) لفظ ابن العطار : «ولا يجتزيء بسماعهما بحضرته دون أن يشهدا عنده، فإذا وجب القضاء نفذ تلك المقالة وقضى بها على قائلها بشهادتهما دون أن يعذر إليه فيها إذا كان الإقرار في مجلس نظره» انظر كتاب الوثائق والسجلات، ص 495.

34) في أ : فليشهد عليه.

35) في أ ب : من أهل النيابة.

المال أرسل أحدهما عنه وإلا فليستأجر الطالب من يرفع له خصمه، وأجاز ابن العطار - إن تبين لدد المطلوب وامتناعه من الترافع إلى القاضي - أن تكون الأجرة عليه، ومنعه ابن عمر، وإن بعد المطلوب عن موضع القاضي بنحو الستين ميلا فليكتب القاضي إلى من يثق به أن ينظر في أمرهما ويكتب إليه بما يصح لديه فينفذ ذلك القاضي. وإن تغيب المدعى عليه طبع القاضي عل داره، وهو أحسن من التسمير لأنه يفسد الباب، فإن لم يفسده سمره عليه بعد أن يخرج منها ما فيها من الحيوان وبنى آدم.

وإذا قرر (36) أحد الخصمين صاحبه على كشف لزم خصمه الجواب بالإقرار أو بالإنكار، فإن امتنع من الجواب أمر بضربه بالدرة على رأسه حتى يجيب.

وأجاز سحنون قضاء القاضي بعلمه فيما أقر به أحد الخصمين (لصاحبه) (37)، ولم يجز ذلك مالك إلا في الشهود خاصة.

ومدار القاضي على معرفة المدعي من المدعى عليه لأن كل واحد منهما في الحقيقة مدع ومدعى عليه، لكن إذا كانت لأحدهما شبهة أو أمارة واستصحاب حال (ملك) (38) فهو المدعى عليه، وكل غارم فهو المدعى عليه إلا فيما يدعي سقوط ضمانه بعد اعترافه، كمدعي القراض في مال بيده يدعي صاحبه أنه سلف، وكل حائز (39) مدعى عليه، وقد أشرنا إلى مجمل ذلك في باب البيوع (40).

وينبغي للقاضي موعظة الخصمين وتعريفهما بأن من خاصم في باطل فإنه خائض في سخط الله، ومن حلف ليقتطع مال أخيه بيمينه حرم الله عليه الجنة، ويعظ الشهود أيضا كما روي عن شريح القاضي أنه كان يقول لمن يشهد عنده : «إني لم أدعكما وإن ذهبتما لم أردكما وإنما يقضي على هذا المسلم أنتما، وإني متق بكما فاتقيا» ثم يقول لهما : «أتشهدان ؟» فإذا قالا : نعم أجاز شهادتهما. وكان بعض قضاة العدل يقول للشهود : أنتم القضاة وإنما أنا منفذ».

محمد العربي الخطابي

36) قرر صاحبه : المقصود حمله على الاعتراف.
37) كلمة ساقطة في ج.
38) كلمة ساقطة في ج.
39) في ج : وكل جاحد.
40) عقد المؤلف في باب عقود البيوع فصلا في اختلاف المتبايعين انطلاقا من قاعدة : «التداعي يرجع إلى أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر» وذلك في الأكثر، إذ القاعدة ليست بمطردة وقد بين المؤلف الأحوال التي يشكل فيها معرفة المدعي من المدعى عليه في قضايا البيوع واختلاف المتبايعين. وفي كتب الفقه (باب الأقضية) ما فيه غناء في هذا الباب (انظر على الخصوص : الكافي لابن عمر يوسف ابن عبد البر، وبداية المجتهد لابن رشد والقوانين الفقهية لابن جزي الكلبي).



من أي جانب يمكن تناول النموذج المحمدي ؟ إن جوانب المثالية والتكامل والقدوة المثلى لا تضبطها الصفحات والأمثلة المحدودة، فمحمد الرسول ﷺ، له إسهام في مسالك الخير والحكمة العميقة والمبادرة ذات البعد الإنساني الذي لا نهاية له.

نظر الرسول محمد ﷺ إلى الإنسان في مظهره فرأى أن النظافة تجعل منه المؤمن الصالح، وهو في ذلك يستجيب قبل غيره، لمبدإ سام في الإسلام قوامه الغسل والوضوء والطهارة.

وفي تعامله مع العرب كان يختار لكل مجتمع لهجته ويخاطبه بمصطلحاته الخاصة حتى يكون قريبا إلى كل منهم قلبا ولسانا وليعطي المثال للمسؤولين بعده، فلا يضربوا بفصاحتهم في واد، ويتركوا المحكومين في واد آخر.

وبرور محمد الرسول ﷺ عجيب بأسرته ومجتمعه، وكان شديد الحض على الإحسان إلى الوالدين والبر بهما، فهو يريد مجتمعا متماسكا، لأن المجتمع قوامه الأسرة، والأسرة قوامها الوالدان ثم الأبناء، جاء رجل إلى الرسول ﷺ يبايعه على الهجرة وترك والديه يبكيان، فقال الرسول ﷺ : «ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما» !

حقا لقد فقد محمد ﷺ والديه صبيا ولكن مرارة اليتم أذكت فيه الرغبة في تكريم أسرته وكل من يقصده، وظلت الأسرة عنده خلية مقدسة حتى إنه احدث بهذا الحنو على الأسرة بعض ما لم يكن مألوفا في المجتمع الجاهلي، بل وحتى ما تركته مجتمعات متقدمة كالفرس والروم. قال رجل للرسول ﷺ : من أبرُّ ؟ قال : أمك وأباك وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي. ذاك حق واجب وصلة موصولة. فالموالي والخدم كانوا أحط الناس قيمة حتى رفع من شأنهم محمد الرسول ﷺ، والأسرة انحط شأنها في أوساط الفرس والروم التي أفسدها التفرق والشذوذ الجنسي فأعاد محمد النبي إلى الذين دخلوا في عقيدته كرامة الأسرة وعلمهم تكريم الوالدين والرأفة بالأبناء وتكريم الموالي وصلة الرحم، وفي ذلك يقول ﷺ :

«إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

ويقول ﷺ : «لا يكون لأحدٍ ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة».

وكان الرسول ﷺ ببيته يجالس أحد زعماء تميم : «الأقرع بن حابس» فقبل الرسول حسن ابن علي وهو صبي

يدرج، فقال حابس : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فقال الرسول : «من لا يَرْحم لا يُرْحَمْ» !

وخدم أنس بن مالك الرسول عشر سنين فلم يتأفف منه الرسول قط ولم يسأله لِمَ فعل شيئا أو لِمَ لم يفعله.

وقالت عائشة عن الرسول : ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظُلِمها قط، مالم يكن حرمة من محارم الله، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادما ولا امرأة (1).

عرفنا الرسول منذ صغره نموذجا للرجل الذي يكسب قوته بعرق جبينه، فهو راع في صباه وتاجر في شبابه، وهو أمين في تجارته وفي تعامله مع الجميع، وكم كان وفيا لأصدقائه الذين وقفوا إلى جانبه في المحنة ونالوا شرف صحبته وتحملوا الأذى من أجله وعقيدته، ولقد صبر على البلوى بكل صنوفها من سب وسخرية وقذف بالحجارة وحصار وتجويع ورمي بالقاذورات، واتهام بالسحر والجنون والكهانة والطمع المادي والطموح إلى السلطة، فوقف صلبا ثابتا حتى أدى الرسالة وهو عنها راض بعد رضا ربه.

لم يتوان الرسول محمد ﷺ، عن أداء تعاليم ربه ورسالته حتى آخر رمق من حياته، ولم يقبل من العرب أن يعبدوا الأوثان ويتقربوا للأصنام وينفقوا من أجلها الأموال ويحتفلوا لها في المواسم، فإذا دخل منهم فريق في الإسلام رفض كل تنازل في هذا الشأن وعمل على تحطيم الأصنام فورا، وهو رَفَضَ تقديس الشخصية البشرية نفسها ونهى أن يتخذ قبره مسجدا، وحرم التصوير لأسباب ظرفية، فالبشر متساوون لا يكرّمون إلا لتقواهم، ولا يتخذ من أشخاصهم معبودون فأحرى من رسومهم أو تماثيلهم، ولقد كان للإجراء المحمدي أثر كبير على الكنائس التي قامت بها حركة معادية للصور الدينية حتى بلغت من الخطورة مبلغا.

كان محمد ﷺ ثوريا بالمعنى السليم، في حركته التصحيحية العالمية، لقد جاء دينه بأشياء كثيرة جديدة في مبادئها غالبا، وفي شكلها أحيانا، فقد وضع فكرة المساواة البشرية بشكل لم تعهده المجتمعات السابقة والتي عاصرته، ونَصَّ الدين على تعاليم جديدة في الطلاق والزواج والصوم والتجارة وسبل التعامل، ونص القرآن على كتابة العهود والعقود وتوثيقها، ولفت القرآن نظر الجميع إلى آيات من الكون والحياة والطبيعة والنفس والإنسانية، وبالإجمال، جاءت ثورة محمد لتلزم الناس بالتفقه في الدين، هذا الدين الذي لم يعد صلاة ولا طقوسا فحسب، كما ألفته كل الأديان السالفة، بل أنشأ شريعة واسعة للعمل اليومي وبناء الأسرة والصراع ضد الشر والموبقات، ومن أجل ذلك ألزم محمد ﷺ الناس أن يقرأوا ويكتبوا، لأن القرآن هكذا نزل، ولأن الحضارة التي أنشأ محمد ﷺ أسسها انطلقت بسرعة من العلم والمعرفة، وبدونهما لا تعرف حتى طقوس الإسلام وشعائره بكيفية دقيقة، وإن كان في الإسلام تسامح كبير في الممارسة.

وحيث ان محمدا هو أيضا رجل دولة، فشخصيته بهذا الاعتبار تتكامل فيها الجوانب السياسية والإدارية والعسكرية، فمحمد السياسي يستخدم الحوار الحر مع الأفراد والوفود ومع الذين يدعوهم إلى اعتناق دينه ومبادئه، والذين يرغب في أن يعايشهم سلما لا حربا. وهو سياسي في التخطيط الشامل للحكم، فهو ينطلق من الشورى ولا يتصرف دكتاتورا، ولم يتخذ المبادرة الفردية إلا في حالات نادرة من غير نزول عند رأي الأغلبية كما فعل في معاهدة الحديبية لأنه نظر إليها وإلى ما فيها من تساهل في حق الطرف الإسلامي، من زاوية بعيدة لم تقترب منها رؤية الأغلبية، وهو مع هذا يتلقى الوحي بهذا الشأن بحيث يطبق تعاليم إلهية أُجِّلت معرفة خفاياها لوقت لاحق.

ومحمد السياسي لا يحتقر شعوبا ولا يهددها بالويل، فإن تصرف ولاتها بسوء نحو رسالته دعا عليهم وليس على شعوبهم البريئة.

ومحمد العسكري إنما نال هذه الصفة مجاهدا ومقاوما للطغيان ودعاة الشرك والمستغلين للأديان السماوية لمصالحهم لتقوية جاههم وتوسيع ثرواتهم، ولذلك ينهى قادة السرايا أن يقاتلوا الذين لم يقاتلوهم، وينهى عن قتل الشيخ والمرأة والصبي، وهو بصفته القيادية لا يستنكف من الاستفادة من تجارب الآخرين في اتخاذ وسائلهم الحربية

---

1) ما تقدم من الأحاديث في الأدب المفرد للبخاري، والحديث الأخير في الشفاء لعياض.

وفي وضع حد لطريقة الكرّ والفر التي كانت من الطرق الفوضوية في حروب الجاهلية، وهو يستعين بالنساء في تمريض الجرحى وإسعافهم، ومع هذا يعرف بالكمين والحرب النفسية، ويتعرف على أخبار العدو من شتى الطرق وفي الوقت المناسب، ولا يكل أسراره إلا لمن يثق

ومحمد الإداري ينظم المراكز الحضرية والقروية ويطبق الرسالة السماوية بشأن الزكوات جباية وتصريفا، ولا يختار للولاية إلا الأكفاء ويحاسبهم ويتتبع أحوالهم، ويفرق بين من مهمته عسكرية ومن له مهمة إرشادية عقائدية ومن له مسؤولية جبائية، فاجتماع المسؤوليات كلها في يد واحدة تطغي صاحبها وتحوله إلى الاستبداد والجور، ولئن كانت حالات نادرة جمعت فيها المسؤوليات فإن من وكلت إليهم كانوا ندرة في كفاءتهم وأهليتهم.

وانتصار الحزب المحمدي في كل الحالات لا يسمح بظلم أو عدوان على المغلوب، ودخول الرسول إلى مكة في تواضع جم بعد أن تجلى انتصاره على أكبر معقل للوثنية في الأرض العربية وعفوه الذي شمل كل قريش وزعماءها يمثل أحد أكرم الفضائل في شخصية هذا الرسول العظيم.

ولقد علم الرسول الناس أن يستميتوا من أجل العقيدة وأن يستشهدوا دفاعا عن الشرف، لكنه ليس شرف قبيلة ولا نسب، إنه شرف العقيدة والمبدإ، وهو شرف يتجاوز المحيط الجغرافي والاجتماعي الضيق، إنه شرف الدفاع عن وحدانية الله ورسالة نبيه محمد، وأكبر الشعوب حضارة اليوم، تدافع عن التراب أو القومية في شكل من أشكالها، أما هذا الشيء الذي جاء به الرسول محمد ﷺ ليدافع الناس عنه ويستشهدوا عند الاقتضاء، فإن ترابه العالم كله، وانه ليستند إلى مبادئ يسع عدلها ورحمتها الناس جميعا، ومن أجل ذلك ألغيت القبلية ولم يعد لها اعتبار في تشريع الرسول محمد ﷺ، ولقد اراد هذا الرسول الكبير القلب أن يجعل من المدينة نموذجا للمجتمع الذي تتعايش فيه العقائد والديانات السماوية وتمحى فيه الفوارق القبلية فآخى بين المهاجرين والأنصار، وتلك كانت خطوة بالغة الأهمية في مقدمات الوحدة الإسلامية، وقد أتت هذه الوحدة أكلها في الحين وعلى طول السنين. أما اليهود فتخلوا عن عهودهم تلقائيا، وتخلوا عن الانسجام الاجتماعي والتعامل مع عقيدة موازية لا تمسهم بسوء ولا تنال في شيء من أموالهم واقتصادهم، فما كان عليهم من جزية ليس شيئا يذكر، وعلى المسلمين أكثر منه في زكواتهم وصدقاتهم.

وحافظ محمد الإنسان، والرسول السياسي والعسكري على التزاماته ووعوده وعهوده طيلة حياته، فقد كان يغضب إذا جرأ غيره على خرق عهد التزم به، وكان يغضب إذا وفى بعهد وخرقه المعاهد له، ولذلك نجد بصمات الرسول ووفاءه ينعكس بوضوح على التزامات خلفائه وصحابته وخصوصا من تحمل من هؤلاء مسؤوليات قيادية، وعهود الصلح لم يكن يقبلها إلا مكتوبة ومختومة، فقد ولى عهد الالتزام الشفوي الذي كان من سمات القبائل العربية ونهى عنه القرآن.

كان محمد الرسول ﷺ رجل نظام ومجتمع، فانتماؤه القرشي والعربي يختفي كليا في أسرته ومحيطه الصحابي وتعييناته للولاة والعمال، فقد حل المسلم محل القرشي والعربي، ليكن مولى من أصل مجهول، وليكن حبشيا أو روميا أو فارسيا وليكن غنيا أو فقيرا، فكفاءته تعد بعمق دينه ومعرفته لهذا الدين، ولقد بقي العرب كثرة في المسؤوليات بعد الرسول لا لأنهم عرب، ولكن لمعرفتهم بتعاليم الإسلام ولغة القرآن أكثر من غيرهم فلما انتشر الإسلام أصبحوا شعبا من شعوب الإسلام ليس أكثر.

ولم يكد محمد الرسول ﷺ يلتحق بربه حتى كان قد كوّن مئات الأطر القاعدية والقيادية في كل المجالات التي يحتاج إليها الإسلام في عصره، وبعده لفترة غير قصيرة، فالذين تكونوا على يده، هم الذين تابعوا نشر الإسلام وأعادوا المرتدين إلى رشدهم واقتبسوا من هديه في الاجتهاد القضائي وأعطوا للإدارة في بقعة شاسعة من العالم وفي أمد قصير طابع الرسالة المحمدية، وأعادوا توزيع الثروات بشكل أعدل.

لم يكن أحد غير محمد ﷺ، ولن يكون، بقادر على أن يحقق كل هذه المنجزات الرائعة والغنية في تعددها ومناحيها. لقد كان بحق، رسول الله وخاتم النبيئين.

إبراهيم حركات



مراجعة وتقويم :

لابد لنا بعد هذا العرض الموجز أن نقوم بتقويم شامل لما قررناه كي تكون رؤيتنا واضحة، فنعرف مواضع أفكارنا تجاه التغيرات الكبيرة التي حدثت في العصر الحديث أو التي يجب أن تحدث.

الأول :

لاشك أن لكل عصر مشاكله ورؤيته التي تنبثق من طبيعة العصر، ترتبط ارتباطا كبيرا بالتغيرات المتنوعة والصراعات التي تنتج منها. فالفكر الإسلامي في عصر ما هو : محاولة فهم وهضم تلك التغيرات والصراعات في ضوء الإسلام. وقد تكون تلك المحاولة ناجحة تستطيع أن تنفذ بفقه ذكي إلى أصول الإسلام وقواعده الكلية لاستنباط قوانين الحركة الاجتماعية، بالاستجابة لها في جوانب وتطويعها وضبط حركتها في جوانب أخرى. غير أن الحلول الفكرية في شتى المجالات التي يقدمها ذلك الفكر والتي تعبر عن حاجة العصر الذي ظهرت فيه، لا يمكن أن تكون صالحة لكل عصر في تفاصيلها، ولا يمكن أن تكون هي الإسلام من حيث هو وحي معصوم. وإنما الصحيح أن يقوم الفكر الإسلامي الجديد في العصر المتأخر بعملية تواصل عميق مع الفكر الذي تقدمه، ويقوم بموازنة دقيقة تعبر عن المتغيرات الجديدة، ليكون الفكر الجديد في العصر الجديد أكثر تعبيرا عن أصول الإسلام في ضبط الحركة الاجتماعية، على اعتبار أن الإسلام من حيث هو دين حق وخاتم كمال مطلق إلى يوم القيامة. كل عصر يستطيع أن يستنبط منه ما يعينه على فهم ثوابته ومتغيراته. وبذلك يكون الفكر الإسلامي حيا متواصلا مرنا متطورا إسلاميا دائما في منطلقه، دون إعادة الصياغات الفكرية السابقة في محاورها كلها، لأن إعادة خصائص وملامح واستجابات العصور السابقة برمتها وبدون اعادة النظر فيها تعني السكون والموت، بينما الإسلام يريد من المسلم الحياة والحركة. ولا يعني ذلك أن الفكر الإسلامي ليس إلا محاولة اجتهادية واحدة في عصر واحد. بل قد تتنوع الاجتهادات، فتتنوع الحلول في القضايا النظرية والعملية. ومن هنا فلا يجوز لنا أن نستل اجتهادا واحدا من تلك الاجتهادات فنجعله الممثل الوحيد للإسلام في ذلك العصر. وإنما لا بد أن توزن الأمور بدقة، ويرجع فيها إلى

موازين الإسلام نفسه. فيقال إن هذا الاجتهاد هو الأقرب إلى تحقيق مقاصد الإسلام. ولقد عبر فقهاؤنا في عصر الإبداع عن هذه المسألة تعبيرا دقيقا عندما قالوا : مذهبنا راجح يحتمل الخطأ والمذاهب الأخرى مرجوحة تحتمل الصواب.

وانطلاقا من هذا المبدأ، لا بد أن نعد الاجتهادات التي جرت في تاريخنا الحضارى الطويل، سواء أكانت في أمور العقائد التفصيلية أم في أمور الحياة العملية، اجتهادات مشروعة إسلاميا في عصرها، طالما أنها من مبادئ الإسلام الكلية وأصولها العامة، وأنها لم يرد بها في الواقع إلا تركيزها وجعلها في خدمة حركة الحياة وضبطها، بغض النظر عن مقدار ما أصابت أو اخطأت.

إن اتباع المنهج الإسلامي الواعي في دراسة مظاهر الفكر الإسلامي القديم له نتائج خطيرة في عصرنا هذا، من حيث أنه ينقذ فكرنا الإسلامي الحديث من بعض مظاهر التمزق نتيجة للنظرات المتطرفة والمتعصبة الناتجة عن الجهل بحقائق الإسلام التي تقرر التغيرات الاجتماعية والاجتهادات المتنوعة، التى تجرى في داخل أصولها الكلية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مواجهة المقالات الفكرية السابقة التي عبرت عن عصورها وأوضاعها بمنهج إسلامي مرن ستساعد على عقليات مرنة تفهم طبيعة عصرنا وتواجه الاجتهادات المتنوعة التي قد تظهر بروح القبول الحسن والنقد العلمي البناء والبحث عن الدليل والبرهان والابتعاد عن النظرة الذاتية المتعصبة التى تعين على توسيع الهوة بين النظرات الإسلامية المتقاربة ذات المنطلق الأصولي الواحد.

الثاني :

إننا عندما نراجع المادة المعرفية المتنوعة التي كانت تعبر عن مظاهر الفكر المتنوعة في العصور الماضية، نجد أنها تمثل نمط زمانها في التفكير والاختلاط الحضاري، وتستجيب للتحديات التي ظهرت في تلك الأزمنة بفعل العوامل الداخلية والخارجية، ولم تعد تمثل تطور الأفكار والصراعات في زماننا، لا شكلا ولا مضمونا. لأن الحضارة المعاصرة التي داخلت حياتنا بتفاصيلها، بإيجابياتها وسلبياتها، بموافقاتها لأسس حياتنا الحضارية الإسلامية ومخالفاتها، قد غيرت حياتنا وحياة غيرنا، فظهرت قضايا جديدة وفلسفات متباينة ومناهج عدة، تستدعي منا أن نعيد النظر في ميراثنا المعرفي الذي نتج عن مواقف المفكرين المسلمين أو الإسلاميين في العصور الماضية، كي نطرح منه كل ما لا يعبر عن عصرنا ولا يشترك في تغيير حياتنا ولا يحقق مصلحة الجماهير الغفيرة من أبناء أمتنا الإسلامية، بل لا بد أن نجتاز كل مظاهر الفكر الإسلامي التي سادت في العصور الماضية، لنوصل أنفسنا مباشرة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، فنستنبط فكرنا الإسلامي الجديد من هذين المصدرين المقدسين المعصومين، كما استنبط المفكرون الإسلاميون فكر عصرهم دائما منهما، أصابوا أم اخطأوا، إذ هما الملزمان دينا للمسلمين في كل عصر، وليس غيرهما من مظاهر الفكر المتغير. فلندخل في شيء من التفصيل لتوضيح هذه المسألة الخطيرة.

ففي مسائل الفلسفة القديمة، لم يعد شيء من صراعاتها التفصيلية، يعبر عن مصطلحات عصرنا وفكره، ففلسفات اليونان التي كانت المصدر الأول لأفكار فلاسفتنا قد سقطت من حيث المادة المعرفية ومن حيث منهج معالجة القضايا. وأسلوب تناول تلك الفلسفات من جانب فلاسفتنا ومحاولتهم تقريب مبادئ الإسلام منها والنتائج التي خرجوا بها غدت اليوم في خضم صراعاتنا الفلسفية مع الفلسفات المادية الحديثة، موادا متحفية لا قيمة لها ولا تأثير. ومن هنا فإن دراستها لا بد أن تنحصر في دوائر ثقافية ضيقة كأقسام الفلسفة مثلا في الجامعات الإسلامية. وتدرس حينئذ كحلقة من حلقات اجتهادات المفكرين المسلمين في القضايا الفلسفية التي واجهوها، وأرادوا أن تكون حلا للقضية التي شغلت بالهم وهي قضية التعارض المزعوم بين ظواهر النقل مع ثوابت العقل.

أما الفلسفة الإسلامية التي يجب أن تسود اليوم، فهي الفلسفة التي تعالج فكر العصر وفلسفاته وقضاياه بعمق ودقة، وتكتشف من خلال المنطق الحديث حقائق نظرة

الإسلام إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان وتركز على الواقع المنهار لتحدث فيه التغيير المطلوب بمنهج عقلي اسلامي واضح المعالم، يقضي على معوقات القيام الحضاري الإسلامي، البعيد عن عقلية التواكل والخرافة والأسطورة والزهد الغنوصي المدمر، والتعصب والجمود الذي يحول الأعراف المتغيرة والأفكار البشرية الماضية إلى وحي إلهي مقدس!!.

إن الفلسفة الإسلامية الحقة في هذا العصر لا بد أن تبني العقائد الإسلامية على مرتكزات المنطق والعلم الحديثين، وتكتشف الأصول الوثنية في الحضارة المعاصرة، ولا بد أن تضع يدها على الثغرات الكبيرة فيها والناتجة عن القطيعة مع الله تعالى خالق الوجود، والداعية إلى تأليه الإنسان وعبادته.

إن الفلسفة الإسلامية التي يحتاجها عصرنا هي تلك الفلسفة التي تلحق الهزيمة الفكرية بالفلسفات المادية الحديثة وتنقذ الجيل المسلم من الاضطراب والقلق والحيرة وتشعره بأصالته وذاته وتسحبه من أعماق ماضيه الفكري البشري إلى حاضره ومستقبله، وتبنى قاعدة رصينة من النظر الإسلامي الرصين، ينطلق منها إلى بناء حياته الجديدة ويشترك في انقاذ الحضارة الحاضرة من أزماتها الروحية والنفسية والأخلاقية.

وإذا قامت الفلسفة الإسلامية بهذه المهمة الإسلامية العقلية العلمية والواقعية في عصرنا، فعند ذلك لا تبقى حاجة لتلك الأساليب والموضوعات التي لا يفهمها عصرنا لأنها كتبت بغير لغته، لا تعبر عن مواقفه الجديدة والأفكار المطروحة في ساحة صراعه مع نفسه ومع خصومه وأعدائه.

على أننا نظلم فكرنا الإسلامي الحديث إذا زعمنا أنه لم يبدأ بتقديم مثل هذه الفلسفة الإسلامية الحديثة في كتابات الأفغاني ومحمد عبده واقبال ومحمد فريد وجدى وسعيد النورسي والمودودي وسيد قطب ونجيب فاضل ومالك بن نبي ووحيد الدين خان ومحمد البهى وعلال الفاسي.

قلنا لم يبدأ بتقديم هذه الفلسفة الإسلامية، لأنها في الواقع بدايات لم تكتمل حلقاتها بعد، في التناسق الفكري والتصور الكوني العام الشامل المبني على البرهان والدليل بحيث يستقيم على منطق عقلي علمي واضح، لا سيما في النفوذ الدقيق إلى معضلات عصرنا الفكرية والتفاعل الأصيل مع التغيرات الحضارية التي دخلت في كل جزئية من جزئيات حياتنا، والخروج منها بتقارير فلسفية إسلامية عقلية تضع الحلول الحاسمة للمشاكل الحيوية التي تعاني منها أمتنا الإسلامية في نواحي الحياة كلها، تتحول إلى ما يسمى بـ «ايديولوجية» إسلامية شاملة تقوم بصياغة الأجيال الجديدة، وتنقل الفكر المجرد إلى حيز التنفيذ والحركة لاخراج المسلمين من الأزمة الحضارية المعقدة الخانقة التي تهددهم بالتخلف والذوبان والسقوط.

الثالث :

وأما بالنسبة للفكر الأصولي والفقهي الإسلامي فإن القضية تختلف اختلافا جوهريا عن قضية الكلام والفلسفة، لأن الفقهاء الأصوليين عبروا عن واقعية الإسلام تعبيرا صادقا، وتحركوا في إطار الكتاب والسنة، واستنبطوا منهما القواعد الأصولية التفصيلية التي قادت حركة الاستنباط الفقهي في نواحي الحياة، فانتجت مذاهب فقهية متنوعة في غاية الخصوبة والدقة والموضوعية، استوعبت حياة الإنسان بأدق تفاصيلها ومشاكلها خلال قرون طويلة من الزمان وفي رقعة مكانية شاسعة تشمل أمما وشعوبا تمتد بين المحيطين شرقا وغربا وبين القارتين آسيا وافريقيا شمالا وجنوبا.

فالمادة المعرفية الفقهية لا تشبه المادة المعرفية الفلسفية والكلامية، لأنها ليست مادة متحفية كمادة الكلام والفلسفة القديمة، بحيث أن مفكرا مسلما اليوم في مواجهته الفلسفات المادية المعاصرة، يستطيع أن يدرسها بعمق ودقة ثم ينطلق من القرآن والسنة مباشرة للتعامل معها وبيان الثغرات الكامنة فيها، واكتشاف وجوه الموافقة أو المخالفة لهما، ولا يحتاج في هذه الدراسة الفلسفية الحضارية المعاصرة أن يطلع على كتابات الكندي وابن سينا والفارابي ولا على كتابات المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، لأن الموضوعات التي بحثها هؤلاء والمصطلحات التي استعملوها قد عفى عليها الزمن، لا يفهمها الجيل المسلم المعاصر ولا أصحاب الفلسفات التي تواجهنا اليوم، باعتبارها

فلسفات مادية واقعية تعالج قضايا الإنسان في واقعه، في حين أن موضوعات الفلسفة والكلام القديمين موضوعات عقلية مجردة ومحاكمات جدلية منطقية في معظم جوانبها يمثل ترفا عقليا، لا يمت إلى واقع الإنسان المعاصر وآلامه وأزماته الفكرية والنفسية بصلة.

إن الفقيه المفكر المعاصر في مواجهته قضايا الإنسان الجديدة، الجزئية والكلية، لا يستطيع أن يستغني عن المادة المعرفية الفقهية بمذاهبها المتنوعة، لأنها عالجت أصلا قضايا ومشاكل الإنسان في الإطار الذي بيناه. والإنسان هو هو في تكوينه «البيولوجي»، في مشاكل حياته، في أزماته، في آلامه وهمومه، في صراعاته المتنوعة مع العالم الخارجي.

إن المذاهب الفقهية والأصولية الكثيرة تضع أمام الفقيه اليوم عدة حلول للقضية الواحدة أحيانا. ولو راجعنا كتب الفتاوى الحديثة التي تعالج مشاكل الناس في عصرنا رأينا أنها تعتمد في معالجة تلك المشاكل والقضايا على مادة فقهية ضخمة، بحيث تعطي الأرضية القوية والمادة الخصبة للفقيه الواعي المستنير لإصدار الحكم العصري المناسب للقضية المعينة، بعبارة أخرى، إن الفقيه اليوم عندما يواجه قضية ما ويريد أن يحقق فيها المصلحة المطلوبة في عصرنا، يجد أمامه أكثر من رأي وذلك بأدلته الأصولية. ولم أجد في قراءاتي تلك الكتب الفقهية قضية معاصرة تبقى معلقة سلبا أو إيجابا إلا نادرا. وهذا يدل دلالة قاطعة واقعية على الثروة الفقهية الهائلة التي يستحيل على الفقيه اليوم الاستغناء حتى عن رأي واحد فيها أو نظرية واحدة من نظرياتها، وإلا فإنه سيبدأ من الفراغ، ويعجز عجزا كاملا عن مواجهة القضايا المعاصرة، وإيجاد الحلول اللازمة لها.

ولكن قد تقول : ما أكثر ما ينطلق بعض الفقهاء المعاصرين من تلك الثروة الفقهية ثم يقدمون لنا آراء وحلولا لمشاكلنا لا تحقق مصلحتنا ولا تحل مشاكلنا، أقول : إن السبب ليس ذلك التراث الفقهي وإنما السبب يكمن فيما يلي :

- قد يعالج الفقيه مشكلة معاصرة، دون أن يستكمل دراسة كل الآراء الواردة في تلك المشكلة بأدلتها التفصيلية، فيخطىء في الاختيار.
- قد يتعصب الفقيه لمذهب معين، فلا يرى الحق إلا فيه، فيصدر حكما لا يحقق مصالح الناس في المشكلة المعروضة.
- قد يتعصب الفقيه لرأي الجمهور ويعد الآراء الأخرى شاذة، فيحرم الناس من ثمارها الطيبة.
- قد يعالج الفقيه القضية المعروضة بعقلية المحدثين لا بعقلية الفقهاء المجتهدين، فيسيء فهم النصوص ولا يوازن بينها، إذ يحكم من خلال ظواهرها دون دراسة عميقة لروحها وأهدافها ومقاصدها ومآلاتها.
- قد لا يعيش الفقيه في عصره، فيقف عند حدود العصور السابقة فينتهي إلى أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان.

ولا يظن أحد أنني لا أعتقد بالاجتهاد المستمر في ظل تغير الظروف والأحوال، ولا أومن بأنه من الممكن إضافة الكثير إلى ما استنبطه الأولون، لا سيما في المسائل التي استجدت في حياتنا اليوم من خلال اجتهادات فردية أو جماعية، ولكنني أقرر هنا أن أيّ اجتهاد فقهي اليوم لا يمكن أن يبدأ من الفراغ. بل لا بد للمجتهد أن يعرف الآراء والنظريات الفقهية في الموضوع المبحوث عنه، ذلك لأن الفقه الإسلامي حلقاته متصلة مستمرة بعكس مسائل الكلام والفلسفة القديمين، إذ يستطيع المفكر الإسلامي اليوم أن يستغني عن معظم مصطلحاتهما ومادتهما المعرفية كما قررنا.

الرابع :

لاشك أن النظام العبادي في الإسلام يقوم بدور كاملا في تطهير النفس من أدران الفساد ومحاربة نوازع الانحراف والهوى فيها. ولا يحاول قتل الفطرة الإنسانية، بل يهذبها ويصقلها من أجل أداء دور متوازن في تحقيق خلافة الله على الأرض. وهو بذلك يحرم الرهبانية والعيش خارج حركة الزمن. وهدف الإسلام في هذه الناحية خلق إنسان رباني، يعبد الله ولا يعبد سواه من مظاهر الحياة المادية،

التي إن طغت على الإنسان أفسدت فطرته وحرفته من مساره الإنساني المتزن إلى مسار حيواني قائم على الصراع وحده، صراع الغرائز مع نفسها ومع غيرها. وفي ذلك شقاء الإنسان.

ولقد كانت الحركة الروحية الأخلاقية في الإسلام جزء لا يتجزأ من عقائده وشرائعه المتكاثفة في صياغة الإنسان وصيانته من الانحرافات السلوكية. ولم تكن قط في مصادره وعصوره الأولى حركة منفصلة لها مصطلحات وطقوس خاصة.

ولكن المسألة قد تغيرت بعد عصر الاختلاط الحضاري، عندما دخلت في المجتمع الإسلامي تيارات روحية متطرفة نتجت عن المذاهب والفلسفات الهندية والغنوصية واليونانية وانتهت إلى تيار منحرف غريب في جسم الأمة الإسلامية له رموزه ومصطلحاته ومقوماته غير الإسلامية التي انتهت إلى نظريات الإشراق والحلول ووحدة الوجود على الصعيد النظري، واستغلت النظام الطرقي في معظم الأحوال استغلالا كبيرا في تحريف الحقائق الإسلامية وبناء العقلية الخرافية ونشر الأساطير والبدع والقضاء على الروحية الإسلامية الصافية واتجاهها العقلاني وإحداث شرخ كبير في وحدة التربية الإسلامية لتكوين كيان إنساني متناسق موزون.

والحق أن هذا الاتجاه المخدر الذي غلب على الحياة الثقافية والعامة في العالم الإسلامي، كان من أهم أسباب شلل الإنسان المسلم وسقوطه الحضاري في القرون الأخيرة.

ونحن اليوم عندما نقوم بمراجعة الفكر الإسلامي القديم وتقويمه، لا نحتاج إلى إعادة هذه المأساة الفكرية والسلوكية، بل علينا أن نطرحها من حياتنا الفكرية ونعدها من أشد مظاهر التخلف والسقوط في حياتنا. وهذا لا يتم إلا إذا استعاد الفكر الإسلامي توازنه في نظرته إلى الكون والحياة والإنسان.

إن عصرنا هذا ليس عصر العزلة والهروب إلى خارج إطار الزمن الحاضر المتحرك، وليس عصر التقوقع حول أشكال وطقوس روحية معينة، وإنما هو عصر الصراع وعصر إنقاذ الإيمان وإلحاق الهزيمة بالطواغيت الكثيرة التي انتجتها المذاهب المادية. وهو كذلك عصر بناء الشخصية الحضارية الإسلامية المستقلة.

إن معركة الإسلام مع أعدائه في هذا العصر يحتاج إلى حضور دائم في الساحة، وهذا الحضور ليس فرضا كفائيا إذا قام به جمع من المسلمين سقط عن الآخرين. وإنما هو فرض عين على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يدلو بدلوه، لسانه، فكره، ماله، قلمه، قوته، سلطانه.

قلت : هو فرض عين، لأن المعركة المخططة الشاملة التي يخوضها أعداؤنا في الداخل والخارج ضد الإسلام وأهله، لا يكفي في مواجهتها جهد البعض، وإنما لابد من التخطيط الشامل والجبهة المتكاملة التي تشترك فيها الطاقات الإسلامية برمتها، حتى يكتب لمعركة الإسلام في هذا العصر النصر الكامل بإذن الله على قوى التأخر والتأخير.

د. محسن عبد الحميد



ناظر الوقف (2)

للأستاذ محمد بن عبد الله

تورع المسلمين من تسلم مهام الوقف :

لقد تورع كثير من المسلمين من تسلم مهام الوقف، وتحامى كثير من المتورعين والمتحققين بالشرع الشريف النظارة على الأوقاف، والإشراف على شؤونها.. وأخذ مقابل عمله من ريعها...

وكان لا يرشح لناظر الوقف، غير الموثوق بدينه وأمانته وعدله، المتيقن تيقظه، واقتداره وضبطه وحزمه، من الأئمة الاعلام، وعِليةِ القوم، المشهورين بمتانة الدين، والسلوك المستقيم، ولم يكن لأحد منهم الاستبداد بشيء، وإن كان من أهل النظر العام، والنفوذ التام، بل لا بد من الرجوع لقضاة العدل، والخضوع أمام القوانين الشرعية، والضوابط الوقفية (1).

بل إن شرائع الجاهليين قد شدّدت كما كتبنا سابقا في وجوب المحافظة على حرمة وحماية الحبس من أرض وحيوان، وعدم الاعتداء عليها.. وهددت من يتجاسر على مال الأرباب بعقوبة تنزل عليه منها، وبغضب الآلهة عليه، وبمصير سيء يلحق به، فضلا عن العقوبة التي تنزلها المعابد به، قد تصل حد القتل، فصار من المحظور صيد الحيوان في الحرم، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، وفسق عن أمر به، ويكون آثما عرض نفسه لغضب الناس عليه، فصار الحرم مرتعا أمنا للطيور، وما زال الناس لا يتحرشون بطيور المعابد، ولا يمسونها بسوء، بل يقدمون لها ما تحبه من المأكول لتعيش عليه، وجعلت المعابد لحيواناتها وللهَدْي وللقلائد مواضع خاصة اختارتها لترعى فيها جعلت «حمى» للأرباب لا يجوز لأحد رعي سوائمه بها. ولا التطاول على دواب تلك الأحمية. لأنها مما حبس للأصنام. وتكون هذه المواضع مخصبة معشوشبة، ذات حياة، وقد تزرع غلتها للمعبد (2)...

وإن اعتناء رجال الشرع بالأوقاف قد بلغ إلى حد أن جعل قضاياها، كما تقدم بيانُه، على خصوص القضاة الشرعيين، دون غيرهم من بقية الحكام، حتى قال صاحب المهذب : «والنظر في أوقاف المساجد والمدارس والزوايا من أهم ما ينظر فيه القضاة، وذلك رأس عمارتها، وإهمالها داعية للخراب» (3).. وقال المتيطي : «وللقاضي تقديم

1) المنزع اللطيف، في التلميح لمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف لابن زيدان، ص : 293 ـ 294، مخطوط بالمكتبة الوطنية ـ الرباط ـ تحت رقم : 595، حرف : ج.

2) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي، وأنظر ما كتبناه في هذا الموضوع : «دعوة الحق» عدد : 231.

3) حجة المنذرين، للعلامة أحمد بن المواز.

صاحب الأحباس للنظر في حبوسات جامع حضرتها ومساجدها، وإصلاح ما وَهَى منها وكرائها، وقبض غلاتها، ويصرفه في مصالحها، وذلك من الأمور التي لا بد للقاضي منها»...

وقد كان النظار، محافظين على أموال الوقف وأملاكه، وقضاة العدل كانوا مشرفين على أعمالهم بداعي الارتباط الديني الذي كان لهم بالأحباس.. وعموم الناس كانوا مثالا للعفة والنزاهة والتباعد بل ما كانت فيه شائبة حبسية، حتى اعتقدوا أن مساس الأحباس، مؤذن بخراب البيوت، وأنه قنطرة للإفلاس..

فهذا عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي الأندلسي يخاطب في ديوانه (4)، الرئيس القاضي الماجد أبا عمر بن منظور في شأن المحافظة على الأحباس :

يا أيها الماجد المامول جانبُه
لحفظ الاحْباسِ من عادٍ ومفترس

الله فيها، فقد ضاعت وقد خربت
وأصبحت في عِداد الأربع الدُّرُس

وللمساجد يسري أمر ضيعتها
إن حقها دون أحباس البلاد نسي

وقد أتتك، بما تلقاه شاكية
مع أنها وصفت بالعيّ والخرس

ومُشرفا وشهيدين انظرنّ لها
وناظراً... طاهر الأغراض من دنس

لا زال جانب ذاك المجد مرتفعا
مبلغ القصد منه كل ملتمس...

وقد تحامى النظارة على الأوقاف كثير من المتورعين، حتى قال الإمام خير الدين الرملي صديق المغاربة، ومفتي الحنفية، ومرجعهم في ديار الشام. وهو يؤكد عزوفه عن تسلم مهام الوقف :

بورك لي في المرّ والمحاةِ
فما هو المَلجئ للجهاتِ

وهْي لمن قام عليها صدقةْ
وللذي فرّط نارٌ محرقةْ (5)

وخير الدين الرملي هو الذي أخذ عنه محمد بن محمد بن سليمان بن طاهر السوسي الروداني (6) نزيل الحرمين لما مرّ بالرّملة، في طريقه إلى اسطنبول صحبة مصطفى بك، أخي الوزير الفاضل أحمد باشا «الكبرلي».. وهو الذي تحامى النظارة، وما ولي قط ولاية ولا منصبا، وقد أخبر أبا سالم العياشي، كما في «ماء الموائد» أنه غرس بيده المباركة على ما يزيد على مائة ألف شجرة، كلها أطعمت، وأكل ثمرها، وهذا أغرب ما يكون، وما سمعنا بمثله (7)، وأغرب ما ذكر البلوي في كتابه : «ألف باء» (8) عن بعضهم أنه غرس ثلاثين ألف شجرة...

وقد قال لأبي سالم العياشي، كان ابتداؤه في الغرس من سنة 1017 هـ. وكان هذا الشيخ مباركا له في عمره، وجمع له فيها بين الدين والدنيا، وليس في تلك السواحل كلها أكثر منه عقارا، ومع ذلك فلم يترك ما هو فيه من الاشتغال بالعلم : فتوى وتدريسا...

قال العياشي : أخبرني الثقة أنه بنى في الرملة ما يزيد على ألف عتبة، وغالب خانات الرملة وكرومها له... وأخبرني أنه أدرك الرملة وليس بها من الفاكهة إلا القليل، فلما اشتغل بالغرس تابعه الناس، فصارت، الآن، من أكثر بلاد السواحل فاكهة... وأخبرني أنه لا يدخر شيئا مما يدخل بيده من المستغلات، فما فضل عن حاجته أنْفَقَهُ.

4) ديوان القيسي ص : 91/ مخطوط، حرف : ف : 190، المكتبة الوطنية، قسم المخطوطات الرباط، كان بقيد الحياة عام 836 ـ 1432 م، ومن مغربياته أربع قصائد في ذكر شيوخ الغزاة المغاربة في مدينة بسطه بالأندلس، قصيدتان في مخاطبة أبي الحسن علي الشريف الحسني، وقصيدة في مخاطبة محمد بن عثمان، وقصيدة في مخاطبة عبد الله بن عمران.

5) «خلاصة الأثر» للمحبي ص 2/137.

6) أنظر ترجمته في الرحلة العياشية ص : 2/30، «وخلاصة الاثر» للمحبي ص : 4/204، و«تاريخ مكة»، لأحمد السباعي ص : 378 ـ 379 ـ 380؛ والاعلام، لابن ابراهيم المراكشي ص : 334 ـ 4/359، «وفهرس الفهارس» للكتاني ص 1/26 وسوس العالمة ص :181، والفكر السامي : ص :115، 4/116، ونشر المثاني ص 81 ـ 2/88، وطبقات الحضيكي، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ص : 2/459، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، د. محمد الأخضر، ص : 106.

7) الرحلة العياشية ص 2/311.

8) «ألف باء» في المحاضرات للشيخ أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي الأندلسي المعروف بابن الشيخ، وهو مجلد ضخم، ذكر فيه أنه جمع فوائد بدائع العلوم لابنه عبد الرحيم ليقرأه بعد موته إذ لم يلحق بعد لصغره إلى درجة النبلاء، ومما جمعه لهذا الطفل : «المرباء بكتاب ألف باء وهو تأليف غريب، لكن فيه فوائد كثيرة.

وأخبرني الثقة، أيضا، أن مدخوله كل يوم يزيد مائة قرش، وما ولي قطُّ ولايةً ولا منصبا، وإليه انتهت الفتوى ببلاد الشام (9).

ويحكى عن مبارك أبي عبد الله أنه كان يعمل في بستان لمولاه، وأقام فيه زمانا، ثم إن مولاه صاحب البستان جاءه يوما، وقال له : «أريد رمانا حلوا» فمضى إلى بعض الشجر، وأحضر منها رمّاناً، فكسره، فوجده حامضا فحَرَد عليه، وقال : «أطلبُ الحلو، وتحضر لي الحامض، هات حلوا، فمضى وقضى من شجرة أخرى، فلما كسره وجده، أيضا، حامضا، فاشتد حَرَدُه عليه، وفعل ذلك مرة ثالثة، فذاقه، فوجده حامضا، أيضا.. فقال له بعد : «أنت مالك لا تعرف الحلو من الحامض ؟! فقال : لا، فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : لأني ما أكلت منه شيئا حتى أعرفه، فقال : ولِمَ لم تاكل ؟، فقال : «لأنك ما أذنت لي بالأكل»، فعجب من ذلك صاحب البستان، وكشف عن ذلك، فوجده حقا وصدقا، فعظم في عينه، وزاد قدره عنده، وكانت له بنت خطبت كثيراً، فقال له : يا مبارك، من ترى تُزوج هذه البنت ؟ فقال : «أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدين». فأعجبه عقله، وذهب، فأخبر به أمها، وقال لها : ما أرى لهذه البنت زوجا غير مبارك، فتزوجها. فجاءت بعبد الله بن المبارك، فتمت عليه بركة الله، وأنبته الله نباتا صالحا، ورباه على عينه (10).

قال محمد بن مرزوق التلمساني إنه حدثه أبو الحسن المريني أنه أكل يوما حبة من تين من شجرة على قارعة الطريق، قال : «فتنغصت واشتد علي الحزن، حتى عرض لي ألم بسبب أنها كانت بغير إذن صاحبها، حتى تحللت من صاحبها، وحينئذ سكن مابي، على كثرة أشجار التين ثمة، وعدم اعتبارها بوجه، وهذا من توفيق الله ونهيته، لأن يجعله خليفة على خليقته (11).

وكان الشيخ زادة قاضي قضاة الشام متقيدا بأوقاف الجوامع والمساجد بدمشق، مشددا على متوليها، وينكر على الناس سكناهم في المدارس، وكان يحضر بالجامع الأموي للجماعة في أكثر الأوقات، ويطوف كل يوم بعد صلاة الصبح بالجامع، وينظر فيما فيه وحواليه (12).

وهذا حسن الحكيم، النزيه الأمين الذي كان أنصف وأشرف وأعف من عرفته سوريا في الاربعينيات. كما وصفه الشيخ علي الطنطاوي...

رجل تقلد أكبر المناصب، صار وزيرا غير مرة وولي رياسة الوزارة السورية عام 1941، وما ملك إلا شقة صغيرة صغيرة جدا، عادية جدا، فرشها عادي جدا، وعاش أكثر عمره بعد أن ترك العمل على راتب تقاعدي لا يبلغ راتب معلم ابتدائي مبتدئ، يعيش كما كان يعيش أولا... يركب الترام، ويقف على اللحام..

لقد ولي حسن الحكيم السوري المديرية العامة للأوقاف، ولم تكن لها يومئذ في سورية وزارة. فسار فيها على خير ما يكون.. فأنصف أقواما من ظلامات كانت واقعة بهم، وكشف أقواما كانت لهم مطامع يسترونها بمظاهر التقوى والصلاح، كان رجلا من طراز نادر.. وقد وجه إليه الشيخ العلامة علي الطنطاوي، إذ ذاك مقالة طويلة، عنوانها : «إلى القوي الأمين. حسن الحكيم فيها اقتراحات نافعة للأوقاف حقق ما استطاع تحقيقه منها (13).

من يذكر هذا الرجل اليوم في سوريا ؟. لا أحد.. لقد انصف أقواما من ظلامات كانت واقعة عليهم.. وكشف أقواما كانت لهم مطامع يسترونها بالكذب والتدليس والنفاق... لقد أمضى هذا الرجل، حسن الحكيم، القوي الأمين ثلث القرن الأخير من حياته التي امتدت مائة وأربع سنوات في حالة هي أدنى إلى الفقر وإلى الحاجة والخصاصة. ما وجد من يكرم شيخوخته، ومن يسهل عليه حياته (14)..

9) الرحلة العياشية : ص : 2/311، «خلاصة الأثر ص : 2/137.

10) «مرآة الجنان، وعبرة اليقظان» للإمام أبي محمد عبد الله ابن اسعد اليافعي (ت : 768 هـ) ص : 1/379. - «شذرات الذهب، في أخبار من ذهب» لعبد الحي بن أحمد بن محمد المعروف بابن العماد العكري الدمشقي الصالحي الحنبلي (ت 1089) ص : 1/296، وفيات الأعيان، ص 2/237.

11) «المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن» لمحمد بن مرزق التلمساني، تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا ط : الجزائر ص : 127.

12) «خلاصة الأثر» ص : 1/173.

13) وهي في جريدة : «ألف باء» يوم 18 سبتمبر 1937.

14) «مذكرات علي الطنطاوي» الشرق الأوسط، ع : 1955، ص 10. الخميس 1984/4/5.

وتاريخ بلادنا في رحاب الوقف والأحباس، حافل بالمآثر والأمجاد، زاخر بنظار عرفوا بالنزاهة الأمينة، والإنصاف الرشيد، قديما وحديثا، وإننا لنجد المسؤولين في هذه البلاد يولون قطاع الأوقاف عناية بالغة، ويهتمون به أيما اهتمام، ويلاحقون، بالتأديب، كل من سوّلت له نفسه التهاون أو التلاعب بأموال الوقف، وتفويت ممتلكاته.. فهذه رسالة ملكية سليمانية يأمر السلطان فيها القائد اشعاش بأن يؤخر محمد الحصار عن نظارة المسجد الأعظم بتطوان، ويولي بدله رجلا حازما أمينا قديرا، ضابطا، ذا ثروة وديانة وقوة وصدق وأمانة، وهذا نصها : «الحمد لله، نأمر خديمنا القائد عبد الرحمن عشعاش أن يؤخر محمد بن عبد السلام الحصار عن نظارة المسجد الأعظم، وأن يخلي سبيله لعجزه عن القيام بذلك.. واختر رجلا حازما ضابطا ذا يسارة وديانة، وقوة وأمانة، وولّه النظر مكانه. ولا بد. والسلام. في 6/ ربيع 2/ 1235 هـ» (15).

وستأتي بعض النماذج الحية التي تعكس اهتمام المغرب، البلد الذي حافظ على شؤون الوقف، وحماه من التلاعب والسطو والاختلاس فيما يلي وفي غير هذا المكان...

وإننا نجد العلماء، في كل مكان، وفي مختلف الأعصار والأمصار، والبقاع والرّقاع لم يغضوا الطرف عما يرونه من ضيم وظلم وإرهاق يلحق المصالح الحبسية... وصحف الجبرتي وغيرها من كتب التاريخ تسجل لهؤلاء العلماء المتورعين في مقاومة بعض الولاة القاسطين، بطولات ذات مجد، ومواقف حاسمة... ومنها ما حدث في عام 1148هـ حين أرسل السلطان العثماني من يعلن أمره العالي بإبطال بعض ما يصرف في بعض وجوه الخير من مرتبات موقوفة... وقد قرئ الأمر على من حضر من العلماء في اجتماع عقد لذلك، فبدت الدهشة على الوجوه، إذ كيف توقف نفقات المساجد والمستشفيات، وقد رأى القاضي التركي دلائل الغضب، فقال : «هذا أمر السلطان، وهو واجب الطاعة، إذ لا يعصى أمير المومنين... فقام العالم الأزهري الشيخ سليمان المنصوري محتدا، وهو يقول للقاضي : ماذا تقول ياشيخ... أمر السلطان ينفذ إذا كان يتجه وجهة الخير، وهذه المرتبات قد أحدثها نائب السلطان لضرورة يراها، وأمر نائب السلطان كأمره تماما، فلماذا نلغي أمر النائب مع نفعه، ونطيع أمر السلطان مع ضرره !!.. هذه النفقات مما جرت به العادة، وتداوله الناس، ورتبوه على المساجد والاسبلة والفقراء، ووجوه الخير، فإذا بطلت، بطلت هذه الشرائع، وأمر السلطان لايسلم فيما يخالف الشرع...!

وقد ذكر عبد الرحمن الجبرتي (16) في أحداث شهر جمادى الأولى من عام 1191 هـ أن بعض الأوقاف الخاصة بطلبة العلم بالأزهر من فريق المغاربة الذين تركوا بلادهم، ووسعتهم مصر بأوقافها ومساجدها ودورها وعلمائها... بعض هذه الأوقاف كانت هدف اعتداء ظالم من أحد الأمراء الكبار، ويدعى يوسف بك، فاضطر المستحقون أن يلجأوا إلى القضاء، فحكم بما يستحقون، وعز على الأمير الظالم أن يمتثل لأمر القضاء، فرفض الحكم، وزاد فدفع شيخ المغاربة إلى السجن جزاء مطالبته بالحق، وفوجئ الطلاب بما نوى الأمير من شر، فاتجهوا إلى أستاذهم الشيخ أحمد الدردير العالم الورع الشجاع، وشيخ شيوخ المالكية في عصره، وصاحب الحواشي الشائعة بين الأزهريين، فلم يظن أن الأمير جاد في تهديده، وكتب إليه خطابا رقيقا يسأله أن يترك الطالب دون اعتقال. وما كاد خطاب الشيخ يصل إلى الأمير على يدي طالبين من طلابه حتى هاج وزمجر، وأمر بالقبض على الطالبين اللذين يحملان الرسالة وزجرهما زجرا عنيفا، وَفَاهَ بما لا يليق!!..

قال الجبرتي : «ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير، وأهل الجامع، فاجتمعوا في الصباح، وأبطلوا الأذان والدروس والصلوات، وأوصدوا أبواب الجامع، وجلس

---

15) تاريخ تطوان، للأستاذ البحاثة السيد محمد داود ص : 8/53.

16) «عجائب الآثار، في التراجم والأخبار» ص : 2/8 لعبد الرحمن الجبرتي أرخ فيه للقرنين 12 ـ 13، للهجرة إلى عام 1236، أصله من «جبرت» وهي الزيلع في الحبشة، وهو مدفون في قرافة «قايتباي» (الاهرام، 1933/1/15).

المشائخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء.. وأغلق أهل الأسواق متاجرهم، اضطر الأمراء إلى أن يحسموا الشر حين رأوا علماء الأزهر يلتفون حول الدردير، ويقودون حركة مقاومة ناجحة، فأرسلوا إلى يوسف بك، فأطلق سراح المسجونين، ونادوا بالأمان لتفتح الحوانيت..

وهكذا كتب الدردير المالكي صفحة مشرقة ناصعة من كفاحه المتواصل، اذ حمل أمانة الجهاد، وقاد الأمة إلى حقها المغصوب دون استخذاء أو نكوص، ولم يخضع لعوامل الإغراء من قوم كانوا يظنون المال والمنصب مما يحرص عليهما ورثة الأنبياء الحقيقيون.. ولكن الحقيقة السافرة قد بددت هذه الظنون...

وقد عارض مفتي (17) الديار المصرية الشيخ الإمام محمد عبده ـ الذي كان عضوا في مجلس الأوقاف الأعلى بحكم منصبه في الإفتاء كما هو متبع ـ في قوة وصراحة الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان شابا يتطلع للإصلاح في بدايته، ثم أراد أن يكون في الأخير ذا مصلحة شخصية فحسب، حين كان يولي أمور الأزهر أناساً يأتمرون بأمره دون قدرة على المعارضة الناصحة، والمجاهرة الصريحة، وحين جعل أعضاء مجلس الأزهر وسيلة لكسب مادي خطير يرسم له الخطط، ويدبر له طرق الاحتيال، فقد كان للخديوي أرض زراعية في احدى جهات الشرقية، وللأزهر بالجيزة أرض بنائية، تباع الأولى بالفدان، وتباع الثانية بالمتر، وإن تساوتا معا في المساحة العددية، فشاء الخديوي أن يستبدل أرض الأزهر بأرضه. وهي لا تبلغ في قيمتها الشرائية ما يساوي واحدا من الثلاثين، إذا قيست بأرض الأزهر، فأوعز إلى بعض مساعديه من أعضاء مجلس الأوقاف، ولعله حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي، والذي كان صديقا أيضا ـ للشيخ محمد عبده، أن يتقدم باقتراح المبادلة بحجة أن المساحة متكافئة، وظن أن منزلته العليا ستمنع كل اعتراض، ولكن الأستاذ الإمام، مع نفر من المخلصين، قد رفض المبادلة، وأفتى بأن المقايضة بهذه الصورة باطلة شرعا، وفيها ضرر جسيم بأوقاف المسلمين وخيراتهم حيث أعلن أنها اعتداء على أوقاف الأزهر، وأن على الخديوي أن يدفع للأزهر الفرق المالي الكبير بين الصفقتين، وقدره، إذ ذاك، عشرون ألفا من الجنيهات، إذا أراد الاستبدال، وعشرون ألفا في ذلك الزمان مبلغ خطير، ندرك قوته الشرائية إذا علمنا أن ثمن الفدان الواحد حينئذ كان لا يتجاوز ثلاثين جنيها، ثم إن الفصل في مثل هذا الموقف ليس من اختصاص المجلس الأعلى للأوقاف، وإنما هو من اختصاص لجنة تخصصية من المهندسين وذوي الخبرة في شؤون الزراعة في أراضي البناء... وضاق الخديوي ذرعا بصراحة الإمام، وهدده من تابعوه (18)... وقد كان !.

وقد تألفت اللجنة على رأي الشيخ محمد عبده وفتواه وموافقة مندوب الخديوي في المجلس، وهو حسن باشا عاصم رئيس الديوان، عفا الله عن الجميع، ورحم الله الجميع..

يقول الأستاذ محمد الشرقاوي تعقيبا على مثل هذه المواقف : «ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا في غضبتهم نفعيين تحركهم الرغائب والمصلحة الخاصة، حين يغضبون في أمر أوقافهم، إذ أن فيما يذكره الجبرتي، في صفحات كثيرة، من تاريخه ما يظهرها، على أن أهل الأزهر كانوا يغضبون أشد الغضب في أمور الله، لا لمنفعتهم الخاصة (19)...

وقد لجأ محمد علي الكبير إلى تصرف لا يقره شرع، وتأباه خلال الوفاء، ولكنه في عرف السياسة الغادرة مقبول !

فقد استولى محمد علي على معظم أوقاف الأزهر، وضمها إلى ممتلكاته، وبذا فقد الأزهر أكبر مورد مالي يعتمد عليه، وأصبح منذ ذلك الوقت عالة على الحكومات المتعاقبة، وأصبح لأسرة محمد علي سلطان كبير على رجاله، وتدخلوا في شؤونه، حتى اضطربت أموره بسببهم،

---

17) صدر الأمر من الخديوي بناء على قرار مجلس النظار (الوزراء) بتعيين الشيخ محمد عبده، مفتيا للديار المصرية، كان ذلك في 3 يونيه 1899.

18) «الأزهر بين السياسة، وحرية الفكر» د. محمد رجب البيومي ص : 82، وانظر مجلة : «العربي» ص : 133 تحت عنوان : مفتي المسلمين لا ينبغي أن يكون موظفا، للدكتور أحمد عبد الرحمن عيسى عدد 304، مارس : 1984.

19) مجلة الأزهر، المجلد : 261/19.

وقضوا على استقلاله القديم، وخفت صوته الحر الذي كان يرتفع عاليا مدويا (20).

يحكي عن الشيخ الورع أبي الحسن علي المعروف بابن الحاج أنه لما تأخر أبو محمد عبد الغفار رغب إليه من الشيخ الصالح أبي محمد عبد الله الفشتالي أن ينظر لهم خطيبا لجامع القرويين؛ فوعدهم ليستخير الله تعالى، فيمن يصلح لذلك، ونام... فرأى في منامه الرسول عليه السلام يشير عليه بأبي الحسن المذكور، فلما كان في صباح اليوم، جاءه الناس الذين وعدهم، فقال لهم : «عليكم بابن الحاج» فامتنع... ثم رغب المرة بعد المرة، فأجاب، وامتنع أن يسكن الدار المحبسة على أئمة المساجد، وقال : لا ينبغي أن تكون السكنى عوض الإمامة، وتورع عن ذلك، فقيل له : إن لم تسكنها، تعطّل حبسا عينه المحبّس لذلك، فقال : أمهلوني لأنظر لنفسي مخرجا، ثم أجاب لسكناها.. على أن يكون يخيط حُصُر الجامع، ورأى أن ذلك عوض عن السكن، فالله ينفعه، وتوفي عام 653 هـ (21).

☆ ☆ ☆

لقد تولى نظارة الوقف كثير من المستحقين الزاهدين الصالحين الذين أحسنوا تسييرها، وحافظوا على أموال الوقف، وسهروا على دور العلم، لأنهم من العلماء الأمناء الأقوياء الصالحين...

فالمقريزي صاحب الخِطط كان يشغل منصب إدارة الوقف، إلى مهام كثيرة أخرى، حيث عيّن نائبا من نواب الحكم، أي قاضيا، عند قاضي القضاة، وبعد ذلك تولى الخطابة بمسجد عمرو، ثم بمدرسة السلطان حسن، فإماماً لجامع الحاكم مع نظر هذا الجامع، أيام الظاهر برقوق، وابنه السلطان فرج برقوق، الذي عينه في وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري عام 801 هـ ـ ويبدو أنه تردد على دمشق بعد ذلك أكثر من مرة، فتولى فيها نظر وقف القلانسي، والبيمارستان النوري الذي كان من شروط وقفه أن يتولى نظره قاضي دمشق الشافعي (22)، كما شغل منصب ناظر الوقف بدر الدين العيني (23) (762 ـ 855 هـ = 1360 ـ 1451 م) الذي أقام بالقاهرة ما يقرب من ثلاثين عاما، وشغل عدة مناصب، وهي مناصب نافسه عليها معاصراه الشهيران المقريزي وابن حجر، وقد افاد العيني كثيرا من معرفته بالتركية... وكان نصير الدين الطوسي، فيلسوف الرصد بمدينة مراغة (597 ـ 672 هـ = 1201 ـ 1274 م) تحت حكمه جميع الأوقاف في جميع البلاد التي تحت حكم المغول، كما وصفه ابن العبري العالم السرياني الذي كان يعرفه معرفة جيدة (24)... وشغل منصب ناظر الوقف، أيضا، الحافظ ابن حجر، وغيرهم كثير، كأمثال الحافظ عبد الرحمن بن رجب (25)، والأمين الكبير حسن باشا (26)، وقد ولي الشيخ أحمد المغربي المالكي شيخ المالكية بدمشق (ت 1008 هـ) نظارة الجامع الأموي، فحمدت سيرته، وكان ينتدب الأوقاف، فيعمرها مع التوفير في المصارف، ووسع الطرقات إلى الجامع، فوسع باب البريد بتأخير تخوته إلى خلف (27).

ولما انتقل أحمد باشا بن محمد باشا الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحد وزراء الدولة العثمانية إلى حكومة الشام، واعطيها برتبة الوزارة عام 1071 هـ وقدمها، وكانت أمورها مختلة النظام، فأصلحها، وتقيد في أمور الأوقاف، وأزال ما بها من محدثات الوظائف وغيرها (28).

ولقد برز علماء الأندلس والمغرب في هذا الميدان، إذ لا يحصيهم العد، أمثال أبي زكرياء يحيى بن محمد بن محمد السراج النفزي الأندلسي الحميري خطيب مسجدي فاس الأعظمين أحد الأعلام، كان متولي النظارة في تفريق أوقاف الضعفاء والمساكين، قال القادري : «رأيت توقيعات في ذلك من أمير وقته أبي العباس المنصور

20) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى. ص : 48، للأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمة.

21) «جني زهرة الآس» للجزنائي ص : 60.

22) «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي وكتاباته» للأستاذ سعيد عاشور «عالم الفكر» مج : 14/ع : 2/ غشت 1983، وانظر أيضا : «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» للمؤرخ الجغرافي الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي ص : 2/477.

23) أنظر نفس المصدر السابق لكراتشكوفسكي ص : 2/487.

24) تاريخ الأدب الجغرافي العربي للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي ص : 1/114.

25) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج : 19/ ص : 442.

26) «خلاصة الآثر في أعيان القرن الحادي عشر» لمحمد أمين المحبي المؤرخ الحموي الدمشقي ص : 2/25.

27) المصدر السابق ص : 1/373.

28) المصدر السابق ص : 1/153.

يوجه الخطاب يأمره بتنفيذها لمن يذكره له، وذلك من إنصاف الأمير، وحرصه على العدل، فلا يولي إلا من له علم ودين لتبرأ به ذمته (29)... وممن تقلدها، أيضا، محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي نزيل غرناطة، ثم فاس (ت : 754 هـ) كان ناظر مارستان فاس (30)، وكذلك الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري، نزيل آسفي، وبها لقيه ابن الخطيب الذي خططه بصاحب السوق، ومقيم المارستان (31).

ومن الذين أخذوا في الأندلس في تجديد ما كان قد درس من رسم الأحباس، الشيخ القاضي أبو محمد عبد الله بن عمر بن أحمد الوَحِيدي أحد أعلام زمانه جلالة وجزالة ونباهة ووجاهة، (ت :542 هـ) (32).

كما تفرد القاضي محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي الجذامي أيام الأمير محمد بن يوسف بن هود، بالقضاء والنظر في الأحباس، فصانها، واسترجع ما كان منها قد ضاع، أيام دول الموحدين إلى الألقاب المخزنية، وقدم لضبطها، والشهادة فيها، ووضعها في أماكنها الفقيه الورع أبا محمد عبد العظيم بن الشيخ، وأجراها على منهاج السداد (33)...

وقد ذكر القاضي أبو الفضل عياض في «الغنية»، وفهرست شيوخه في ترجمة مُجيزه خلف بن محمد الأنصاري المعروف بابن العُرَيبي من أهل المرية (ت 508 هـ) أن من شيوخه : ابن صاحب الأحباس (34) وذكر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن سعيد اللخمي اللورقي (ت : 516 هـ) أنه سمع بالأندلس من أبي بكر ابن صاحب الأحباس... وكذلك القاضي أبو بكر ابن صاحب الأحباس الذي سمع عنه الأديب الراوية أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي المعروف بابن عاصم (35).

بل ان القاضي عياض نفسه لما اجلس للشورى، ثم ولي القضاء عام 515 هـ فسار فيه أحسن سيرة، محمودة الطريقة، مشكورة الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها. وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله... مما يدل على أن تشييد المساجد وبناء المعاهد يخضع في تسييره في الفقه الإسلامي لنظر القضاة. مما سوغ للقاضي عياض بناء هذه الزيادة في المسجد السبتي...

وكان مولاي الطيب بن عبد السلام الحسين القادري والد أحمد القادري، صاحب «النشر» و«التقاط الدرر» ناظرا، قانعا بما تدره عليه مهنة العدالة من مدخول يومي (36)، والمصادر التي تترجم تذكر أنه كان متوليا لنظارة أوقاف المارستان بفاس (37)، ولم يكن يتقاضى عليها أجرا ذا بال يمكنه من تكوين ثروة ذات بال...

وقد ذكر أبو القاسم الزياني في شرحه «لألفية السلوك» عند تعرضه لجلوس المولى الرشيد على عرش المملكة المغربية أنه وجه للأستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي الفاسي يستقدمه عليه لدار إمارته، فاعتذر بعدم القدرة لكبر سنه، وملازمته لبيته، فأتاه السلطان لعرصة قريبة من بيته من ثقب أحدث في سورها، فقال له السلطان : «جئت لأستشيرك، فيمن أوليه بفاس من حاكم وقاض ومحتسب وناظر...» فقال له : «أما الحاكم، فلا أتقلده، والقاضي حمدون المزوار، والمحتسب عبد القادر المراكشي الفيلالي، والناظر العدل مسعود الشامي، ولما خرج من عنده أمر أن يبنى بالمحل الذي دخل منه باب، وبقي طريقا، فهو درب الدرج الذي لم يكن قبله... ولما بلغ دار الإمارة نفذ الإمارة لسيدي محمد بن أحمد الفاسي، والقضاء للمزوار، والحسبة والنظارة لمن ذكر، فامتنع

---

29) نشر المثاني : ص : 1/70.
30) الجذوة : ص : 191.
31) نفاضة الجراب، ج : 2، لوحة : 16 ـ أ.
32) «تاريخ قضاة الأندلس» للنباهي، ص : 104.
33) تاريخ قضاة الأندلس ص : 113، وانظر شرح أحمد بن علي الشدادي للزقاقية ص : 8، مخطوط بالخزانة العامة تحت حرف د، 873، لدى قوله : لها خطط ست الخ... وانظر أيضا ص : 5، من شرح سيدي عمر الفاسي للزقاقية مخطوط تحت رقم د : 1449.
كان عمر الفاسي عالما مشاركا، فقيها مبرزا له عدة تآليف منها : «لواء النصر في الرد على بعض أبناء العصر» يرد فيه على فتاوي بعض معاصريه الذين أجازوا بيع العقارات الوقفية.
34) الغنية ص : 148، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان.
35) المصدر السابق ص : 59.
36) التقاط الدرر، ص : 77.
37) سليمان الحوات، السر الظاهر، الملزمة : 19/ ص : 6.

الشامي من النظارة، فسجن سبعة أشهر، ولما ضاق به الأمر، أجاب على شرط أن لا يتعرض له قاض ولا وال، لأن الأحباس كلها حازها اللصوص والأشراف أيام الفتنة حتى كادت أن تستأصل كلها، واشتغل بالبحث عنها، واسطرها، ومن اتهم بربع أو أرض أو جنان أو دكان يحوز عنده من الرباع، فما ظهر رسمه رده له، وما وجد مغصوبا أو لا رسم عنده علم أنه مغصوب، فيحوز له للحفس، حتى رد الأوقاف كلها، وزاد عليها ما وجه مغصوبا من الوقف أو غيره...

وقد اسند المولى اسماعيل النظر في عموم الأوقاف بعد الناظر القيسي الفاسي الأندلسي، إلى السيد بلقاسم المسطاسي الذي كان بمنزلة وزيرها ينظر في جميع مصالحها، يولي ويعزل مباشرة نظار الجهات في جميع المدن والبلدان والمداشر، فهذا نص ظهير تجديد المولى عبد الله بن اسماعيل للناظر العام السيد بلقاسم المسطاسي ما كان عليه من الولاية العامة على أمور الأحباس.

بعد الحمد لله، والصلاة على النبي، والطابع العلوي الشريف، كتابنا هذا اسماه الله، وأعز نصره، وخلد في دفاتر المجد ذكره وأمره، بيد خديمنا وحبيب أبوابنا الأرض الأخير الأوب السيد بلقاسم المسطاسي، ويتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه العميم ونصرته، إننا جددنا له به ما كان عليه من النظارة في أمور الأحباس في جميع الأقطار والمدن والبلدان والقرى والمداشر، وبسطنا له اليد الطولى على جميعها بحيث لا يقتصر عن البحث والتفتيش في الأدنى والأقصى، فإن جل مهماتنا هذا الأمر الأكيد، وجعلناه العوض منا بى ذلك... فمن نازعه أو خالفه أو ناوشه، فإثمه على رقبته، وإني بفضل الله تعالى وقوته أقمته هذا المقام على مر الليالي والأيام، فعليه بتقوى الله ومراقبته، في سره وعلانيته، وعليه بمحاسبة النظار، وأهل التصرف في هذا الأمر حتى يترك من أراد، ويولي من أراد، ومنا إليه في التقصير، وعلى الله المعول، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونعم النصير، في منتصف جمادى 2 عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف 1143 هـ (38).

(يتبع)

الرباط : محمد بنعبد الله

38) الاتحاف : ص : 481 ـ 4/482.

ثبت الوادي آشي

•• صدر عن (دار الغرب الإسلامي). النص العربي لأطروحة الدكتوراه التي قدمها لجامعة غرناطة الباحث المغربي الدكتور عبد الله العمراني.

وكانت الأطروحة تحت إشراف البروفيسور ضون لويس سيكو دي لوثينا. وتحمل الأطروحة عنوان (ثَبَت أبي جعفر أحمد بن علي البلويّ الوادي آشي (ت. 938 هـ / 1532 م) : دراسة وتحقيق.

تحتوي الأطروحة على ترجمة حياة هذا العالم الغرناطي، وعلى تحقيق مخطوطه الوحيد في العالم، الذي يحمل بمكتبة الإسكوريال رقم 1725. تشغل النصوص العربية 584 صفحة، يضاف إليها ملخَّصَ باللغة الاسبانية يتألف من عشر صفحات ••

الحضارة الإسلامية

أسسها وعناصرها وعوامل نشأتها الداخلية

للأستاذ عبد القادر البوشيخي

يتكون هذا البحث من خمس فقرات :

1) افتراءات المستشرقين الغربيين المتعصبين.

2) اعترافات المنصفين والانتقال من التصادم إلى التلاؤم، في هذه الفقرة زيارة جلالة الملك نصره الله إلى حاضرة الفاتيكان وانعقاد ندوة القدس في مبنى البرلمان الإيطالي، والبرقيتان المتبادلتان بين جلالة الملك والمنتدين.

3) مفهوم الحضارة وعناصرها وأسسها.

4) منابع الحضارة في القرآن الكريم.

5) العلم الذي يدعو إليه القرآن الكريم وهو ثلاثة كتب الله المستورة والمنشورة والمسطورة.

ثم خاتمة مركزة عن العوامل الذاتية.

تلك هي الخطوط العريضة لهذا البحث وإني لأرجو من الله جل جلاله أن ينفع به ويذخر لي جزاءه وأجره.

1) افتراء وتزييف :

منذ قرون عديدة دأب بعض المستشرقين والمفكرين والمؤرخين الغربيين على تشويه صورة الحضارة الإسلامية ومحاولة الدس والافتراء وتزييف الحقائق، بدوافع الجهل والتعصب العرقي والديني الأعمى، وما ترتب في الأعماق من آثار ومخلفات الحروب الصليبية والمغولية التترية. متخذين من تخلف المسلمين في الحاضر دليلا على صدق دعواهم، وبرهانا على افتراءاتهم ومزاعمهم.

ويصف البعض منهم الحضارة الإسلامية بأنها حضارة طفيلية عاشت في القرون الوسطى على تراث اليونان والرومان والفرس والصين والهنود، وأنها تتطفل اليوم على موائد الحضارة الغربية دون أن تقدم للإنسانية شيئا يذكر في ميادين العلوم والفنون.

هذه الأسباب ـ العرقية والدينية والحروب الصليبية والمغولية التترية ـ وغيرها تضافرت وكونت لدى بعض المستشرقين والمفكرين الغربيين ـ بأمريكا وأوربا الشرقية والغربية ـ فضلا عن عامة شعوب هذه البلدان ـ انطباعا وتصورا مفاده أن الحضارة الإسلامية لم تقم بأي دور في تقدم البشرية ورفاهيتها، وأن الغرب لا يدين بتقدمه وتحضره إلا لليونان والرومان، وهذا ما دفعهم إلى الافتراء وتزييف الحقائق وتشويه الوقائع والأحداث.

وأستشهد في هذا الموضوع، باعترافات مقتطفة من كتب بعض المفكرين والمستشرقين المنصفين، الذين اعترفوا بأن هناك افتراء منهجيا مدروسا ومخططا له، هدفه صرف أنظار الشعوب الغربية وغيرها عن دور الحضارة الإسلامية وفضلها في تمدين الغرب وتحضيره، ووضع القواعد الأساسية التي قامت عليها الحضارة الغربية الحالية.

كتب المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه القيم «حضارة العرب» : «وكان من نتائج الصراع بين الشرق والغرب منذ قرون مضت، وإلقاء الرعب في قلوب الأوربيين أن صاروا يشعرون بمذلة الخضوع للحضارة العربية التي لم يتحرروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب، فأخذوا ينكرون فضل العرب على أوربا وتمدينهم لها، وصار هذا الإنكار من تقاليد مؤرخي أوربا وكتابها». وقد ذكر الدكتور غوستاف لوبون أسباب هذا الرعب، الذي قذف في قلوب الصليبيين، وانها ناتجة عن القذائف النارية التي استعملها العرب لأول مرة في الحروب، وذكر أنه إذا كان هناك خلاف في هل العرب هم أول من اكتشف البارود، فإن من المحقق أنهم أول من اكتشف قوة انفجار البارود، فاستغلوا هذه الخاصية في ملء عبوات وإشعالها وقذف الصليبيين وتحصيناتهم وأساطيلهم بها.

وبين صورة من هذا الرعب فقال :

«وليس بمجهول خبر الرعب الذي قذفته في قلوب الصليبيين هذه الأسلحة، ومن ذلك ما أعلنه جوانفيل، أنها أفظع شيء رآه في حياته وأنها ضرب من التناتين الطائرة في الهواء».

«ولما أصبح جوانفيل ـ يقول الدكتور غوستاف لوبون ـ بجوار الملك سان لويس، ركع ورفع يديه إلى السماء وقال باكيا : أي ربنا يسوع احفظنا واحفظ قومنا».

من التصادم إلى التلاؤم :

لقد كانت الحروب الصليبية، وما ترتب عليها من احتكاك الأمم الغربية بالحضارة الإسلامية السمحة من أهم الأسباب التي دفعت بالغربيين إلى دراسة وتحليل عناصر وأسس الحضارة الإسلامية ودورها العظيم في رقي البشرية وتقدمها.

ومن المستشرقين والمفكرين الذين سلكوا هذا الأسلوب السليم، المستشرق الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»، والمستشرقة الألمانية في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» والمستشرق الفرنسي روجيه جارودي في كتابه «حوار الحضارات» الذي خصص في كتابه فصلا بعنوان «إعصار الإسلام الخصيب» والمستشرق الألماني آدم شيت، في كتابه «حضارة الغرب» وغيرهم من المنصفين. ولا زال هذا الاتجاه يقوى ويتشعب، وسيأتي اليوم الذي يعترف فيه العالم أجمع بأهمية الدور العظيم الذي قامت به الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

من المستشرقين إلى القادة ورجال الدين :

وهذا التفهم والاعتراف بفضل الحضارة الإسلامية لم يقتصر على المفكرين والمؤرخين والمستشرقين، بل

تجاوزه إلى بعض القادة الغربيين المتنورين، ومنهم الجنرال ديغول الذي دعا الأوربيين عامة، والفرنسيين خاصة، إلى إعادة النظر وتغيير المفاهيم المتعلقة بالعرب والإسلام والحضارة الإسلامية وقد دعا مواطنيه الفرنسيين إلى الاحتكاك بالعرب والإسلام، وتطعيم الحضارة الغربية، وتزويدها بما ينقصها من قيم وروحانيات إسلامية وقد سار خلفه جورج بومبيدو على نهجه، وعقد عدة اتفاقيات مع الدول العربية والإسلامية.

وبعد حرب أكتوبر 1973 دعا وزير خارجيته مشيل جوبير - الذي عاش بالمغرب - إلى تكوين كتلة تجمع بين الدول العربية وأوربا تكون محايدة وغير منحازة لإحدى الدولتين العظيمتين.

كما ظهرت فكرة الحوار العربي الأوربي ثم الحوار العربي الأوربي الإفريقي.

ولم يقف هذا التفهم عند القادة السياسيين بل تعداه إلى الرهبان ورجال الكنيسة. وأسطع برهان على ذلك الزيارة التاريخية التي قام بها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأعز أمره إلى حاضرة الفاتيكان، واستقباله من طرف البابا بول الثاني.

وقد استقبل جلالته ذلك الاستقبال الرائع لا بوصفه ملكا فقط، أو رئيس لجنة القدس فحسب، وإنما كزعيم ديني، متفتح متبصر. يدل على ذلك العدد الكبير من العلماء الدينيين المغاربة الذين رافقوا جلالة الملك في زيارته، كما يدل على ذلك الزي المغربي الأصيل الذي كان يرتديه جلالة الملك وهو يطوف صحبة البابا والعلماء المغاربة والرهبان، ويتجول تحت قبة الفاتيكان، كما يدل على ذلك نوع الهدايا التي تبودلت بين جلالة الملك والبابا بول الثاني ومن بينها الإنجيل والمصحف الكريم، وفي ذلك إشارة إلى التسامح والتعاون بين الديانتين السماويتين ضد الوثنية والكفر والإلحاد والهمجية. ومما يدل على هذا الانفتاح والتفاهم المتبادل، انعقاد ندوة القدس في مبنى البرلمان الإيطالي بروما، والتي اشتركت فيها عدة دول عربية وأوربية وإسلامية.

وقد ارسل جلالة الملك إلى المنتدين برقية، كما أرسل المنتدون بدورهم برقية إلى جلالة الملك يعترفون فيها بفضله ودوره العظيم في إنقاذ القدس، وإعادتها إلى حالتها الأصلية عندما كانت موطنا للتسامح والتعايش بين الديانات والأجناس وبفضل عبقرية صاحب الجلالة وفكره الثاقب وتبصره وحكمته انتقلت الحضارتان الإسلامية والغربية إلى مرحلة الانفتاح والتعاون والتلاؤم والتآزر، بدل الانغلاق والتصادم والتناحر.

مفهوم الحضارة :

يختلف مفهوم الحضارة باختلاف اتجاهات واهتمامات وتصورات الباحثين والدارسين وقد عرفها «يودانت» في كتابه القيم «قصة الحضارة» بقوله : «إنها محاولة بشرية مستمرة لتحقيق حياة أفضل للفرد والجماعة عن طريق الإبداع والتغيير في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية والنظم الإدارية والتربوية».

ولا تستمر الحضارة في سيرها الدائري أو التصاعدي إلا إذا أخذت بمفهوم الإنسان الذي هو مادة وروح، وإذا انعدم هذا التوازن تصبح حضارة أحادية الجانب كطائر قص أحد جناحيه.

ولا تبدأ الحضارة إلا حيث تنتهي الاضطرابات والقلاقل والفتن، لأنه إذا أمن الإنسان على نفسه، تحررت دوافع الابداع وعوامل التطلع إلى غد أفضل وأرغد.

أسس الحضارة وعناصرها :

وتتكون الحضارات من مجموعة من العناصر التي تسهم بطريق مباشر أو غير مباشر في تغيير الأفكار والواقع وتطويره وإخضاعه لإرادة وسيطرة الإنسان عن طريق العلم واكتشاف القوانين التي تتحكم في المجتمعات والظواهر الكونية.

وحال المجتمع وظاهره تابع لأفكاره ومعتقداته، ولذلك كانت الحضارات مظهرا خارجيا لروح الأمم الذين أبدعوها.

وتتألف روح الأمة من شبكة من المعتقدات والمبادئ والمشاعر، والتصورات وطرق للتفكير، ومتانة روح الأمة تكون بمثانة قوة تلك الشبكة، وتلك الشبكة - كما يقول غوستاف لوبون في كتابه «الأسس النفسية لتطور الأمم» - وحدها هي التي تمسك الأمم، وإذا انفكت تلك الشبكة أدى ذلك إلى انحلال الأمم وهذه الروح هي الأساس الذي

ترتكز عليه عناصر الحضارة وتستمد منها قوتها ووجودها وتطورها واستمرارها. وقد أجمع علماء النفس والاجتماع والمستقبل وكذا الفلاسفة والمفكرون على اختلاف مذاهبهم أن قوة الإنسان لا تتحرر وتتحرك إلا منفعلة بعقيدة أو فكرة أساسية تستولي على عقل الإنسان وقلبه وروحه وتوجهه، وإنه من المحال على أية حضارة أن تحافظ على كيانها بغير مثال أو عقيدة أساسية تكون بمثابة النواة الجوهرية في روح الأمة، والمحرك الدافع والموجه.

عناصر الحضارة الإسلامية :

في البداية أشير إلى نقطة هامة جدا تميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات، فليس هناك حضارة أخذت اسمها من اسم دين سماوي أو عقيدة أرضية، غير الحضارة الإسلامية، فليس هناك حضارة كونفوشيوسية أو بوذية أو زراديستية أو مسيحية وإنما هناك حضارة صينية أو هندية أو فارسية أو أوروبية غربية.

فالدين الإسلامي وحده هو الذي أقام حضارة باسمه، استمدت أصولها من عقيدته وشريعته وتصوره. من مميزات المستقبليين وصفات العظماء والمبدعين التساؤل وطرح الإشكاليات، وعندما تطرق المفكر العبقري الباكستاني أبو الأعلى المودودي تغمده الله برحمته إلى عناصر الحضارة الإسلامية في كتابه «الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها» ألقى هذه الأسئلة :

1) ماهو تصورنا للحياة الدنيا ؟
2) ماهي منزلة الإنسان في هذه الدنيا ؟
3) وماهي الدنيا في نظرنا ؟
4) وما هي علاقة الإنسان بهذه الدنيا ؟
5) وإذا كان على الإنسان أن يعمل وينتج فعلى أي أساس ؟

وانطلاقا من هذه الأسئلة حصر عناصر الحضارة الإسلامية فيما يلي :

1) العقيدة أو الفكرة الأساسية.
2) تصور الحياة الدنيا.
3) غاية الحياة الدنيا.
4) تربية الأفراد.
5) مختلف القوانين والأنظمة.

وقد عرف الحضارة بقوله : «صورة ظاهرة عابرة عارضة من علوم وآداب، وفنون، وصنائع وبدائع وأطوار الحياة المدنية والاجتماعية وأسلوب الحياة السياسية. أما روحها وأصولها فهي العناصر المذكورة».

وبين في مكان آخر الإطار الذي يضم هذه العناصر ويجعلها تتوازن وتتفاعل وتستمد منها روح المجتمع قوتها واستمرارها وتماسكها وهذا الإطار هو العقيدة الإسلامية.

عوامل نشأة الحضارة الإسلامية

عوامل نشأة الحضارة الإسلامية نوعان : عوامل داخلية وأخرى خارجية.

1) العوامل الداخلية :

القرآن : إن القرآن الكريم هو المنبع الأعظم والمصدر الأساسي للحضارة الإسلامية.

وقبل الحديث عن منابع الحضارة في القرآن أرى من المناسب استعراض بعض آراء المفكرين الأجانب في القرآن الكريم يقول (ارنست رينان) وهو مستشرق فرنسي متعصب ضد الإسلام :

«القرآن هو أساس الإسلام، وقد احتفظ بكينونته دون أن يعتريه تبديل أو تغيير، وعندما نستمع إلى آياته وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة الوله والوجد، وبعد أن نتوغل في دراسة روح التشريع وما تنطوي عليه بعض آياته الإلهية لا يسعنا إلا أن نعظمه ونقدسه. وقد دلتني تحرياتي العلمية أنه لا صحة مطلقا لما اتهم به محمد من كذب وافتراء» - من كتاب قيم حضارية في القرآن ..

وقال غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» : «كان العرب قبل الإسلام بصفة عامة، قبائل متفرقة متنازعة متناحرة، لكل قبيلة أو مجموعة من القبائل صنم تعبده، ولما اعتنقوا الإسلام صاروا أمة واحدة لها مثل أعلى هو نصر الإسلام وانتشاره، ومن أسباب انتصاراتهم العظيمة ودخول الأمم في الإسلام سهولة هذا الدين ويسره ووضوحه، وإن وضوحه مشتق من قوله بالتوحيد المحض الذي ذكره القرآن ودل عليه».

وقال أيضا : «إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فإذا حدث أن اعتنقت بعض الأمم النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله في ساداتهم السابقين ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل. ولم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها».

منابع الحضارة في القرآن الكريم :

يعتبر القرآن الكريم نبع حضاري متجدد ولذلك نرى أنه حتى مع هبوب عواصف الانحراف، فإن القرآن الكريم يبقى دائما داعيا ودعوة إلى الهداية وتجديد أساليب العمل، وهذا سر ما يحدث أحيانا من هزات تجديدية بزعامة مصلحين مجددين ينتصر فيها القرآن وأهله.

ولذلك يبقى القرآن الكريم دائما ضابطا حضاريا حتى لا يحدث الانحراف. وإذا وقع، فإن الدعوات التجديدية كفيلة بتصحيحه، وما الصحوة الحالية ودعوات الإحياء والانبعاث في مختلف الأقطار الإسلامية، والتي يتزعمها كل من المغرب والمملكة العربية السعودية، إلا دعوات للتجديد والعودة إلى النبع الصافي الأصلي الذي هو القرآن الكريم، وشريعته السمحة، ثم إن القرآن نبع حضاري من جهة أخرى لأنه شمولي في أحكامه، ينظم علاقة الأسرة والحياة الفردية والاجتماعية والعمل والحكم. وعلاقة الإنسان بالخالق والكون. وهو إلى جانب ذلك، كتاب يدعو إلى العلم والمعرفة، بل يجعل التفكير واجبا وبه يميز الإنسان عن الحيوان الأبكم.

وقد رفع الباري جل جلاله شأن العلماء وأضافهم إلى الملائكة فقال : ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط**﴾، وقال أيضا : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾. وقال أيضا : ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾.

ولقد بين القرآن الكريم في مواضيع عديدة أن العقل نعمة يجب استخدامها واستغلالها لما فيه مصلحة الفرد والجماعة وتعمير الأرض، كما بين أن العقل والتفكير وسيلة لإدراك عظمة الخالق جل جلاله، وحكمته وقدرته ولذلك يكثر في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ ﴿**ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون**﴾.

وكثيرا ما ينعى على الذين يهملون استعمال عقولهم والاستفادة منها، فيشبههم بالدواب بل أشر ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ ﴿**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾.

العلم الذي يدعو إليه القرآن :

قد يظن البعض أن العلم الذي يدعو إليه القرآن هو العلم «الديني» أي العلم بالله وأحكامه وشريعته فقط، هذا جانب من الحقيقة وليس هو بالحقيقة كلها، أن العلم في القرآن الكريم له ابعاد متعددة يمكن إجمالها في ثلاثة :

1) العلم بكتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم وما يتبع ذلك من العلم بأوامر الله ونواهيه وأحكامه.

2) العلم بكتاب الله المستور وهو النفس ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ وما يستلزم ذلك من فلسفات ومذاهب فكرية ونفسية واقتصادية واجتماعية وآداب وفنون.

3) العلم بكتاب الله المنشور، وهو الكون الطبيعي ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت**﴾.

والعلم بالكون الطبيعي يستلزم العلم بالقوانين والنواميس المتحكمة في الظواهر كما يستلزم تعلم العلوم الطبيعية والرياضية والكيماوية والفيزيائية، والفلك والهندسة والجغرافيا وكل ما له صلة بالأجرام الفضائية كالجاذبية مثلا.

فهذه الاتجاهات أو الأبعاد الثلاثة للعلم الذي يدعو إليه القرآن الكريم يكون مثلثا متساوي الزوايا لا يقوم العلم الحقيقي إلا بها، ولهذا العلم غاية محددة هي إسعاد الإنسان معاشا ومعادا عن طريق العلم العامل والعمل العالم بالله والكون والنفس، وهذا هو العلم الحق ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ فصلت 55. ويذكر القرآن الكريم العلم بالكون

الطبيعي في مكـان آخر : ﴿**ألم تر أن الله أنـزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ فاطر 27 ـ 28.

وواضح من السياق في الآيتين ـ كما يقول الأستاذ عبد الفتاح طبارة ـ أن المراد بالعلماء هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله فيما أشارت إليه هاتان الآيتان وموضوعهما هو نفس موضوع العلم الطبيعي، فالعلم الطبيعي يبحث في الأشياء الكونية وطبائعها وخواصها، والعلاقات القائمة بينها، ثم عن حقيقتها إن أمكن، أي عن آيات الله المودعة في هذه الأشياء.

ففي آية فاطر مثلا لا يعرف سر نزول المطر من السماء إلا بعلم الطبيعة. ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء، ولا يعرف الإنبات والإثمار فيها إلا بعلم النبات، ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض، ولا يعرف اختلاف الأجناس في البشر والدواب والأنعام إلا بعلمي أصل الشعوب والحيوان.

وقد حصر الله ـ في آخر الآية ـ الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية لأن العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الطبيعة على خشية الله تعالى. «روح الدين الإسلامي» ص 227.

وفي هـذا المعنى يقول البتـاني أعظم الفلكيين المسلمين، إن الإنسان ليصل عن طريق النجوم ـ أي علم الفلك ـ إلى برهان وحدة الله ومعرفته، وعظمته الكاملة، وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه» «شمس العرب تسطع على الغرب» ص 111.

خاتمة العوامل الذاتية

من خلال هذه الأمثلة نستخلص أن القرآن الكريم نبع حضاري من عدة وجوه، فهو منبع حضاري لأنه دعوة وداعي إلى التجديد وتطوير أساليب العمل، وضابط حضاري يمنع من وقوع الانحراف، وإذا وقع قام الدعاة والمجددون بالتصحيح والتقويم مسترشدين بالمنهاج القرآني.

كما أنه نبع حضاري من جهة ثانية لأنه شمولي ينظم علاقة الإنسان بأخيه وبالله والكون، كما أنه كتاب يدعو إلى المعرفة والعلم بكتب الله الثلاثة المستور والمسطور والمنشور، فالعلم الحقيقي في القرآن الكريم هو الذي يتخذ ثلاثة أبعاد واتجاهات تلتقي كلها لتكون مثلثا متساوي الزوايا، وهو العلم بأحكام الشريعة وقوانين النفس والمجتمعات والنواميس الكونية.

وبواسطة هذا العلم يسيطر الإنسان على نفسه أولا، ثم على الطبيعة ثانيا فيسخر الكون ويستغله استغلالا ينفعه وينفع غيره في العاجل والآجل، لأن العمل يستلزم العلم به والانتفاع مما اكتشفه واخترعه وقننه ولا عمل أصلح ولا أنفع من الذي يهدف إلى رقي الإنسان وتمدينه وتحضيره وتغيير واقعه بأحسن منه، وضمان سعادته في الحاضر والمستقبل المعاشي والمعادي، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿**ومن يعمل في الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾.

مكناس : عبد القادر البوشيخي



نظرات في تاريخ المذهب المالكي 10 :

أثر القرينة في توجيه الأحكام

للدكتور عمر الجيدي

القرائن جمع قرينة، مأخوذة من المقارنة، بمعنى المرافقة والمصاحبة، يقال : قرن الشيء بالشيء، وصله به، واقترن بغيره : صاحبه ولازمه، ويعني بها الفقهاء، كل أمارة ظاهرة تقارن شيئا خفيا فتدل عليه، وعرفها الجرجاني بأنها «أمر يشير إلى المطلوب» (1)، وهي تتفاوت في القوة والضعف مع مدلولاتها تفاوتا كبيرا، إذ تصل من القوة إلى درجة الدلالة القطعية، وقد تضعف حتى تَنْزِلَ دلالتها إلى مجرد الاحتمال، والمرجع في ضبطها وإدراكها إلى قوة الذهن والفطنة واليقظة والموهبة الفطرية، وتلك صفات مطلوبة في القاضي الذي يتصدر للحكم بين الناس، والمفتي الذي يتولى الإفتاء في النوازل، على أن قوتها وضعفها هو أمر نسبي تختلف فيه الأنظار، فما يعتبره بعض الفقهاء من القرائن قويا وكافيا في الاستدلال ويترجح لديه على غيره، قد يعتبره غيره ضعيفا واهيا لا يعتمد في الاستنباط ولا يقوم دليلا على الإثبات، وهي إلى جانب الشهادة، واليمين، والنُّكول، تشكل طريقا من طرق الإثبات...

وقد عقد ابن فرحون في التبصرة بحثا قيما في القضاء بما يظهر من قرائن الأحوال والأمارات، واستدل على اعتبارها من الكتاب والسنة وعمل السلف (2).

فدليل اعتبارها من القرآن قوله تعالى : ﴿**تعرفهم بسيماهم**﴾ (3) دلت الآية على أن السيمة المراد بها حالة تظهر على الشخص بحيث إذا رأينا ميتا في دار الإسلام وعليه زنار، وهو غير مختون لا يدفن في مقابر المسلمين، وكذلك قوله تعالى في قصة «يوسف» عليه السلام : ﴿**وجاءوا على قميصه بدم كذب**﴾ (4)، روى ابن الفرس (5) في كتابه أحكام القرآن (6) أن إخوة يوسف لما أتوا بقميص يوسف إلى أبيهم يعقوب تأمله فَلَمْ يَرَ فِيهِ خرقاً ولا أثر ناب، فاستدل بذلك على كذبهم (7)، قال القرطبي : «قال علماؤنا لما أرادوا

1) التعريفات 152.
2) التبصرة 111/2.
3) البقرة : 272.
4) يوسف : 18.
5) أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرس، فقيه مفسر محدث توفي سنة 599 هـ.
6) يوجد الكتاب مخطوطا في المكتبة الملكية (الحسنية) ويوجد الجزء الأول منه في الخزانة العامة بالرباط يبتدئ بسورة البقرة وينتهي بسورة الأنعام - مجلد ضخم -
7) التبصرة 111/2.

أن يجعلوا الدم عَلاَمَةَ صدقهم، قرن الله تعالى بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التمزيق، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف، وهو لابس القميص ويسلم القميص، وأجمعوا على أن يعقوب استدل على كذبهم بصحة القميص، فاستدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل كثيرة من الفقه» (8).

يقول ابن العربي : «والعلامات إذا تعارضت تعين الترجيح، فيقضي بجانب الرجحان، وهي قوة التهمة لوجوه تضمنها القرآن منها : طلبهم إياه شفقة ولم يكن من فعلهم ما يناسبها، فيشهد بصدقها، بل كان سبق ضدها وهي تَبَرُّمُهُم به، ومنها أن الدم محتمل أن يكون في القميص موضوعا، ولا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس للقميص، ويسلم القميص من تخريق، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات» (9)، وقوله تعالى : ﴿**وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين**﴾ (10)، قال ابن الفرس : «هذه الآية يحتج بها من العلماء من يرى الحكم بالأمارات والعلامات فيما لا تحضره البينات» (11)، وقوله تعالى : ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾ (12) بين الله سبحانه مواقف أولئك القوم من أنبيائهم إذ جعلها علامات وأمارات لمن تأمل ذلك وتوسمه للاستنباط منها، والاعتبار بها، وفي ذلك يقول ابن العربي : «التوسم هو التفعيل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها» (13)، وقوله تعالى : ﴿**فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون**﴾ (14) فجعل تعالى ملامح إخوة يوسف وكلامهم ولباسهم علامة وقرينة توصل بواسطتها يوسف إلى معرفتهم وَتَمْيِيزِهِمْ مع إنكارهم له، وعدم معرفتهم إياه (15)، ومن مثل ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ (16) فبين سبحانه الأوصاف التي أضفاها على نبيه، وجعلها عَلاَمَات وقرائن قوية يعرف بها أهل الكتاب صدق نبوة رسول الله ﷺ معرفة تصل حد معرفتهم لأبنائهم، ومع ذلك يرفضون اتباعه (17).

هذا من القرآن، أما من السنة النبوية، فما روي أنه ﷺ حكم اللوث في القسامة، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا وَيَسْتَحِقُّوا دم القتيل في حديث حُوَيْصَةَ وَمَحِيصَة، واللوث دليل القتل، ومنها ماورد في الحديث الصحيح في قضية الأسرى من قُرَيْظَةَ لما حكم فيهم بعد أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية، فكان بعضهم يدعي عدم البلوغ، فكان الصحابة يكشفون عن مُؤْتَزَرِهِم فيعلمون بذلك البالغ من غيره، وهذا من الحكم بالأمارات (18)، ومنها : أنه ﷺ أقر الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وجعل وصفه لعفاصها ووكائها قائما مقام البينة، وكذلك حكمه ﷺ بالقافة، وجعلها دليلا على ثبوت النسب وليس فيها إلا مجرد الأمارات والعلامات..

ومنها أنه ﷺ، أمر الزبير بعقوبة الذي اتهمه باخفاء كنز ابن أبي الْحَقِيق، فلما ادعى أن النفقة والحروب أذهبته، قال ﷺ «لعهد قريب، والمال أكثر» (19)، ومنها ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فجعل رسول الله ﷺ الفراش قرينة على المخالطة المشروعة، وقوله ﷺ : «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان» فجعل رسول الله ﷺ مداومة الرجل المسلم على ارتياد المساجد وشهود الصلوات لا يتخلف عنها، أمارة كافية على إيمانه وفيه دليل على اعتبار القرائن والحكم بظاهر الحال...

أما من فعل السلف : فقد حكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه والصحابة معه برجم المرأة إذا ظهر بها حمل ولا زوج لها، وبذلك قال مالك وأحمد اعتمادا على القرينة الظاهرة (20) وقد حكم الصحابة (عمر وعثمان وابن مسعود) بوجوب الحد على من وجد فيه رائحة الخمر أو قاءها، اعتمادا

8) الجامع لأحكام القرآن : 49/9.
9) أحكام القرآن 1078/3.
10) يوسف 26.
11) التبصرة 111/2.
12) الحجر : 75.
13) أحكام القرآن 1119/3.
14) يوسف : 58.
15) الجامع لأحكام القرآن 22/9.
16) البقرة : 146.
17) تفسير القرطبي 400/6.
18) التبصرة 111/2.
19) المصدر.
20) التبصرة 113/2.

على القرينة الظاهرة (21)، روي أن الشعبي قال : «شهدت شُرَيْحاً وقد جاءته امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينيها وبكت، فقلت يا أبا أمية، ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة»، فقال : «ياشعبي، إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون»، فقد اعتبر شريح فراسته القائمة على الأمارات والقرائن التي لمسها في حالة المرأة...

ثم إن القرائن تنقسم إلى قسمين : قرينة عقلية، وقرينة عرفية.

أ ـ فالقرينة العقلية : هي التي تكون النسبة بينها وبين مدلولها ثابتة يستنتجها العقل دائما، كوجود المسروقات عند المتهم بالسرقة...

ب ـ والعرفية : هي التي تكون النسبة بينها وبين مدلولها قائمة على عرف وعادة تتبعها دلالتها وجودا وعدما، وتتبدل بتبدلها، كشراء المسلم شاة قبيل عيد الأضحى، فإنها قرينة عرفية على قصد الأضحية، وكشراء الصائغ حليا، فإنه قرينة على أنه اشتراه للتجارة، ولولا عادة التضحية عند الأول، والتجارة بالمصوغات عند الثاني، لما كان ذلك قرينة (22).

وتنقسم باعتبار آخر إلى قسمين :

1) قرائن شرعية أو قانونية، وهي التي يعتمدها الشارع أساسا في إيجاب بعض الأحكام.

2) قرائن قضائية، وهي التي يتخذها القاضي دليلا في تمحيص الوقائع واثباتها ويعود إليه تقدير دلالتها.

فالقرائن الشرعية أو القانونية هي في الأغلب من نوع القرائن العقلية، لأن الشارع يبني عليها حكما ثابتا فيجب أن يقام على نسبة ثابتة بين الدلالة ومدلولها كا في حكم التقادم، وطلاق الفرار...

أما القرائن القضائية، فقد تكون عقلية أو عرفية، لأن القضاء يستأنس بجميع الأدلة ولو وقتية (23).

والفقه الإسلامي قد اعتبر القرائن من الأدلة المثبتة التي يعتمد عليها في القضاء، وإن المتتبع لكتب فروع المالكية يرى أنهم أخذوا بها في مسائل لا تعد كثرة...

فمالك رحمه الله كثيرا ما كان يرجع إليها ويعتمدها في الأحكام، حتى عدت من قواعده التي بنى عليها مذهبه، وفي هذا يقول الجشتيمي في منظومته :

قرائن الحال لدى الإمام ... مذهبنا من عمد الأحكام

قرائن الأحوال في المسالك ... يبنى عليها الحكم عند مالك

فاحكم بها ولا تخف ملاما ... واقطع بها النزاع والخصاما

وذا له أصل قوي عندنا ... حكم القرائن التي تبينا

وذاك من قواعد الإمام ... مالك المقلد الهمام

غير أن الفقهاء اختلفوا هل القرينة وحدها كافية تشهد لمدعيها وتحط عنه اليمين، أو لا بد له من أداء اليمين، وهذا بناء على أن العرف هل يقوم مقام شاهد واحد أو شاهدين، قال الإمام المَازَري : «الأظهر في الجوب أن القَرِينَةَ تقوم مقام الشاهد» (24).

ثم هذه القرائن إما أن تكون قطعية، وإما أن تكون غير قطعية، ففي الحالة الأولى، تكون كافية بمثابة بينة، فلو رأينا رجلا مذبوحا في منزل، والدم يجري وليس في الدار أحد، ورأينا رجلا قد خرج من الدار في حالة متنكرة علمنا أنه هو الذي قتله (25).

وأما الحالة الثانية، فإن الفقهاء يعتمدونها دليلا أوليا يَتَرَجَّحُ بها قول المدعي مع يمينه، إلى أن يثبت خلافها وفي ذلك يقول الجشتيمي :

وأيدت قرائن الأحوال ... تصديق ما فيه من المقال

وقد اتفق الإمام مالك وأبو حنيفة على اعتبار القرائن، وخالف الشافعي في ذلك ظنا منه أن في هذا مخالفة للحديث «البينة على المدعي واليمين على من أنكر» غير أن صاحب تهذيب الفروق لا يرى مخالفة بين هذا الحديث، وبين الحكم

---

21) المصدر.

22) المدخل الفقهي العام 919/2.

23) المدخل الفقهي العام 923/2.

24) التبصرة 113/2.

25) التبصرة 119/2.

بالقرائن، إذ أن «القاعدة أن المدعي هو كل من كان قوله على خلاف أصل أو عرف والمدعى عليه هو كل من كان قوله على وفق أصل أو عرف مثلا : المدعي بالدين على خلاف الأصل، لأن الأصل براءة الذمة، والمطلوب المنكر على وفق الأصل، والمدعي رد الوديعة وقد قبضها ببينة هو المدعي لأن قوله على خلاف الظاهر والعرف، بسبب أن الغالب : أن من قبض ببينة لا يرد إلا ببينة، والمدعي عدم قبضها لكون قوله على وفق الظاهر والعرف، هو المدعى عليه، وهذه القاعدة تقضي أن المرأة إذا ادعت (مقنعة) وشبهها كان قولها على وفق الظاهر وقول الزوج على خلاف الظاهر، فالزوج مدع فعليه البينة، وهي مدعى عليها فالقول قولها، تقول بموجب الحديث لا أنه حجة علينا» (26).

وقد قرر الفقهاء على أساس اعتماد القرائن العرفية حلولا كثيرة في شتى الحوادث فنصوا على أنه إذا اختلف الزوجان في متاع البيت وهما في العصمة، أو بعد طلاق أو موت، وكان التداعي بينهما، أو موت أحدهما، فكان التداعي بين أحد الزوجين وورثة الآخر، فإن الحكم في ذلك أن يقضى للمرأة بما يعرف للنساء وللرجال بما يعرف للرجال، وما يصلح لهما قضي به للرجل، لأنه صاحب البيت في جاري العادة، فهو تحت يده فيقوم لأجل اليد، فما يستعمله الرجال عادة كالسيف والعمامة وثياب الرجال عموما يقضى بها له، ويترجح قول المرأة فيما يستعمله النساء كأدوات الزينة والجواهر والحلي، وهذا بقرينة عادة الاستعمال وعرفه، وهذا تابع لعرف المتنازعين، فرب متاع يشهد العرف في بلد أو زمان أنه للرجال، ويشهد في بلد آخر أو زمان آخر، بأنه للنساء، ويشهد في الزمن الواحد، والمكان الواحد، أنه من متاع النساء بالنسبة إلى قوم، ومن متاع الرجال بالنسبة إلى قوم آخرين (27)...

وَحَيْثُ قلنا إن ما يعرف للرجال يقضى به لهم، وما يعرف للنساء يقضى به لهن ما لم يكن أحدهما صانعا أو تاجرا في النوع الصالح للآخر، وإلا فالأمر عندئذ يختلف. هذا ما يصلح لأحدهما، وأما ما يصلح لهما معا كالدار يسكنانها، والماشية يتصرفان فيها، فيترجح فيه قول الزوج، لأنه صاحب اليد، وهي قرينة على اعتبار الملك (28)، قال الإمام مالك : «إذا اختلفا وهما زوجان أو عند الطلاق قضى للمرأة بما هو شأن النساء، وللرجال بما هو شأن الرجال، وما يصلح لهما قضي به للرجال، لأن البيت بيته في العادة، فهو تحت يده، فيقوم لأجل اليد» (29).

وكذا لو اختلف المتبايعان في قبض السلعة أو الثمن، فالأصل بقاء الثمن بيد المبتاع، وبقاء المبيع بيد البائع، ولا ينقل ذلك إلا ببينة أو عرف، كالسلع التي جرت العادة أن المشتري يدفع ثمنها قبل أن يَبِينَ بها، كاللحم، والخضر، ونحو ذلك، فيحكم في ذلك بالعرف والعادة، ولو اختلف عطار ودباغ في العطر والجلد، أو اختلف فقيه وحداد، في نحو الجبة والكير، كانت لهما عليه يد حكمية، أو تنازع رجل وامرأة رمحا يتجاذبانه، فالقول في هذا كله، قول من شهد له العرف والعادة، وقرائن الأحوال.

فالجبة للفقيه، والكير للحداد، والرمح للرجل، وكل هذا مع اليمين (30).

وقد منع مالك وأصحابه سماع الدعوى التي لا تشبه الصدق عرفا، بل العرف يدل على كذبها، كدعوى رجل لدار بيد حائز يتصرف فيها بالهدم والعمارة مدة طويلة، والمدعي شاهد ساكت ولا ثمة مانع من خوف أو قرابة، ولا صهر، فإن ذلك قرينة دالة على كذب الدعوى، وكذلك لو ادعى رجل على آخر أنه سرق متاعه، والمدعى عليه ممن لم يتهم، فإن المدعي لا تسمع دعواه، لقيام شاهد الحال على كذبه... إلى غيرها من الأمثلة (31) وهكذا نرى الفقهاء اعتبروا سائر القرائن العرفية المشابهة من المرجحات الأولية التي يعتمدها القضاء، مع اليمين في ترجيح قول أحد المُتَخاصِمَيْن، أو بلا يمين على الخلاف المتقدم...

وها هنا قد يعرض لبعض الناس سؤال، وهو : لم اللجوء إلى القرائن ولنا في النصوص ووسائل الإثبات ما يغني ؟ والجواب أنه قد تسجل بعض الحالات يتعذر فيها على المدعي إقامة البينة على صحة دعواه، وامتناع المدعى عليه

26) تهذيب الفروق 185/3 على هامش الفروق.
27) التبصرة 158/2.
28) الفروق للقرافي 148/3.
29) الفروق 149/3.
30) الفروق 152/3 والتبصرة 115/2.
31) التبصرة 111/2.

عن الإقرار، مع ان المدعي واثق من صحة ما ادعاه، والقاضي قد توافر لَدَيْه من القرائن والأمارات ما يجعله يقتنع بسلامة وجهة نظر المدعي، فكيف يجوز إهدار هذا الحق لصاحبه، وتبرئة المدعى عليه التي حامت حوله الشبهات وبدت عليه مخايل الكذب والاحتيال ؟

الواقع أن الفقهاء لما أخذوا بمبدأ الحكم بالقرائن كانوا محقين فيما ذهبوا إليه، ومسايرين لمبدأ السلطة التقديرية للقاضي، فالقرائن ضرورية الاعتبار في القضاء، لإفادتها في اثبات الكثير من حقائق المنازعات والخصومات، وهي من السياسة العادلة التي تخرج الحق من الظالم وإنصاف المظلوم، ولا ينكر أحد فائدتها وأهميتها لشدة الحاجة إليها عند فقدان الدليل، أو عند التشكيك في الأدلة المعروضة على القاضي، ومن ثم قال الحافظ ابن العربي : «على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهو قوة التهمة، ولا خلاف في الحكم بها». والله أعلم وأحكم.

د. عمر الجيدي

العمل السوسي في الميدان القضائي

●● من نظم أبي زيد عبد الرحمان بن عبد الله الجشتيمي وشرح ومقارنة الرحماني عبد الله بن محمد الجشتيمي صدر عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط الجزء الأول من كتاب (العمل السوسي في الميدان القضائي)، وقد قدم له الدكتور عمر الجيدي بكلمة تحليلية جاء فيها على الخصوص : «...هذا عمل آخر جليل، يقدم عليه الزميل عبد الله الرحماني في ميدان تحقيق التراث، فبعد أن حقق كتاب (الحوض) في الفقه المالكي باللسان الأمازيغي للفقيه محمد أوزال والذي طبع عام 1977 م هاهي يده تمتد من جديد لتحقيق كتاب آخر لا يقل أهمية عن سابقه ويتعلق الأمر بمنظومة الشيخ عبد الرحمان الجشتيمي الذي سماها بنظم ما ليس في المختصر، والمعروفة عند بعض أهل العلم بمنظومة (العمل السوسي) من باب تسمية الشيء بجزئه. والمنظومة مرتبة على أبواب الفقه المعتادة لدى المالكية عبادة ومعاملة، بدءا بمسائل الطهارة وانتهاء بمسائل الميراث مشتملة على عشرين بابا. والمنظومة لا غنى لها لأي باحث في التراث الفقهي لمعرفة تطور التشريع في المغرب.

ويقع الكتاب في 306 صفحات من القطع الكبير ●●

دراسات في الأدب المغربي: (17)

مَيْمُونُ الخطّابي

للأستاذ عبد الكريم التواتي

امتازت الحياة العامة لمغرب المرابطين والموحدين معا، وامتاز مجتمعهما بالفتوة والأعمال الحربية العظيمة التي كونت من الدولتين قوة عسكرية يحسب لها حسابها في الموازين الدولية لتلك العهود، ويخشى بأسها، ويرغب في محالفتها، وخاصة حين استطاع المغاربة أن ينشئوا قوة بحرية هائلة استطاعت أن توقف زحف الصليبيين من أوروبا على الأندلس، وعلى الشرق الإسلامي أيضا، وتمكنت بذلك من تقديم العون غير المباشر لقوات صلاح الدين الأيوبي هناك وإن حاول بعض المؤرخين الأجانب، بل وحتى من المغاربة، أن يذيعوا بأن المغاربة تقاعسوا عن مد يد المساعدة لإخوانهم الشرقيين الذين كانوا يومئذ يخوضون معارك مصيرية ووجودية ضد الحملات الصليبية المتكالبة، والمشنة من كل أمم أوروبا وأمم المسيحية على الإسلام وعالمه شرقا وغربا، وقد حلا لهؤلاء أن يطلقوا العنان لاتهاماتهم فراحوا يبحثون لأجدادنا المغاربة عن أعذار تبرئ ساحتهم من تهمة هذا التقاعس - وكان على رأس من اتهم بالتقاعس ومن الملوك المغاربة يوسف ابن تاشفين - فقد زعموا أنه كان ينهج في علاقته بالشرق الإسلامي سياسة التخلي، أو عدم الاهتمام واللا مبالاة بماجريات الأحداث ومصائر الأمور هناك، وذهبوا - تبعا لذلك - إلى القول بأن المغاربة لم يلبوا صراخ ونداءات صلاح الدين الاستغاثية ومطالباته بإمداده بما كان في حاجة ماسة إليه من أساطيل بحرية، تسهم في ميادين المعارك الضارية التي كان يخوضها الشرق الإسلامي ضد الغزو الصليبي، وينتحل أولائك المؤرخون المختلقون لهذا التقاعس الموهوم تعلات واعذارا هي أوهى من بيت العنكبوت، ويوردن لتأكيد ذلك - كمبررات وأسباب قوية أن عدم استجابة ابن تاشفين لاستغاثة الأيوبي كان بسبب ما قام به الأيوبي من إرسال أعوان له مخربين كلفوا من طرفه بالعبث والإفساد في شرق الإمبراطورية المغربية، وكانوا بزعامة (قراقوش) وعرب بني هلال وبني سليم، بينما علل بعضهم عدم الاستجابة المغربية بسبب عدم اعتراف الأيوبيين بخلافة المغاربة واستقلالهم الذاتي عن تبعية الخلافة العباسية ببغداد، وتجلى عدم الاعتراف ذاك في رفض الشرقيين مناداة السلاطين المغاربة بلقب الخليفة.

ولكن الحقيقة أن أجدادنا المغاربة كانوا أيامئذ يخوضون نفس المعارك الصليبية التي كان يحاول رد طماها الجارف اخوانهم المسلمون في الشرق، وإن اختلفت ميادين المعركتين وربما حتى أسلوبهما، وتباينت مظاهر تلك المقاومة الباسلة التي كانت تستميت فيها وتبديها الجيوش الإسلامية في وجه أولائك المغيرين الصليبيين الحانقين تباينت في المغرب عنها في المشرق.

ذلك أن المغاربة كانوا يرومون وراء حركاتهم الحربية ضد الآباء (البينيديكتيين الأسبان) متزعمي حركة التمرد ومقاومة الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، والذين كانوا معززين روحيا من الفاتيكان بروما، وماديا من كل أمم أوروبا النصرانية، أقول كان المغاربة يرومون وراء ذلك أمرين اثنين :

الأول : الحفاظ على مكاسب الإسلام في الأندلس، لا بوصفها مصدر ثروات مادية وموارد ضخمة من الاقتصاد والمغانم، وإنما بوصفها خط دفاع وجنة ووقاية ترد عن الممتلكات الإسلامية في المغرب الكبير أطماع الاسبان الذين كانوا يومئذ - وقد كانوا استردوا قبل كثيرا من الحصون والبلاد من أيدي المسلمين - يحاولون الإجهاز على ما كان تبقى من قلاع وحصون من أيدي الأقزام ملوك الطوائف، الشيء الذي جرأهم على التفكير في محاولة القيام بغزو المغرب الكبير من مختلف جهاته، ولا شك أن التحركات الحربية التي كان قام بها مسيحيو صقلية على المهدية بتونس أعظم برهان وأقوى دليل على رغبتهم تلك.

الثاني : الحفاظ على وحدة الصف في أجزاء الامبراطورية المغربية المترامية الأطراف الشاسعة الأرجاء - والتي كانت تمتد من طرابلس ليبيا شرقا، إلى قريب من حدود فرنسا غربا - عن طريق ابقاء القوة العسكرية أبدا على أهبة واستعداد، بل وأن تكون تلك القوة في حالة استنفار قصوى وذات القدرة الدائمة على مباشرة القتال في الميادين الحربية، ومواصلة اتونها الفوار، فإخلاء حامية أو معقل من حماته يعني فتح فجوات وثغرات في الواجهة الحربية التي يجب أن تكون متراصة متماسكة.

على أنه ليس في استطاعة أي كان أن ينكر أن الحملات الحربية المغربية في الأندلس كانت من أقوى حركات التأييد لحملات الأيوبيين في الشرق، إذ ثبت تاريخيا أن (الفاتيكان) كان قد أصدر مراسيم تقضي بحرمان كل اسباني يفكر في ترك موقعه من معارك اسبانيا ليلتحق بصفوف الصليبيين بالشرق، وقالت مراسيم البابا في الموضوع : إن النضال ضد عرب ومسلمي الأندلس يعد جُزْءاً أساسيا من النضال الكنسي المشن لمحاربة الإسلام.

وكانت هذه الأوضاع الحربية القائمة لمهدي الدولتين المرابطية والموحدية مما اقتضى صبغ المجتمع المغربي بصبغة الحياة الجادة، البعيدة عن اللهو والترف والدعة واستمراء مباهج الحياة الهادئة.

وقد انعكس هذا الواقع على آثار أدباء وشعراء المغرب لتلك الحقبة، ضرورة أن هذين الفنين مرايا تعكس صور الأحداث المعيشة، وتجسم الآمال المتوخاة، وترسم أبعاد المجتمع الأكثر إلحاحا وعمقا.

وقد تأثر كل شعراء وأدباء تلك الحقبة بهذا الواقع الجدي، بما فيهم شعراء وأدباء الأندلس، الذين لم يتخلوا في معظم محاولاتهم الفكرية، عن خصوص ما كانوا ألفوه من شعر الانهزامية أو التفسخ والانحلال الأخلاقيين، وإنما أيضا تبنوا الطريقة المغربية في التناول، تلك الطريقة القائمة على التغني بالحروب والأمجاد، وما يستدعيه ذلك من أساليب تعبيرية تتسم وتتصف بضخامة الألفاظ، وصدق التعابير، وأحيانا الإغراق في المعاني المتسمة بالغلو والخروج عن المألوف.

بالإضافة إلى سمة أخرى هي استلهام الروح الدينية، واسترفاد معطياتها، وصوغ كل ذلك فيما عرف بعد بالقصائد النبويات، وبالابتهالات، التي ستتخذ في عصر بني مرين، والعصور بعده، ميزة بارزة للأدب المغربي شعرا ونثرا، وقد يكون ذلك من جانب - ولو إلى حد ما - انكفاء لهذه الآداب على نفسها، وانحرافا عن المسيرة التي اتبعتها أختها الآداب الشرقية، مما أوجد هذا النضوب العاطفي - وخاصة في ميادين الشعر العربي - في الأدب المغربي، وقد تكون تلك النبويات متنفسا لهذا الكبت المفروض بحد السلاح على أدباء المغرب حين وجدوا أنفسهم مكبلين داخل قوقعة ما اعتبره الفقهاء دينا وافترضوه وحده عقائد مؤيدين بمساندة الدولتين المرابطية والموحدية. وبعد هذه الفذلكة سنحاول الآن أن نتناول بعض آثار الفقيه الأديب (ميمون الخطابي) بالدرس بوصفه الشخصية التي تكاد تكون صورة مجسمة للأديب الشاعر الذي يُبرزُ في انتاجه الخاصيتين اللتين أشرنا اليهما آنفا. أي خاصية التعلق بشعر القوة والفخفخة حين تناوله الحوادث المعيشة والواقع الحربيين، وخاصية الإغراق في

الابتهالات الصوفية الغيبية المتسترة بالتهويمات الدينية واستلهام الأجواء اللدنية، حين ينكفئ على نفسه يجتر أفكاره ويستعرض أوهام الدنيا، ويقارنها بالحقيقة الأبدية السرمدية.

وميمون الخطابي يكاد يكون متخصصا في هذه الأشعار الدينية التي تهتم بصورة خاصة بالأمداح النبوية، على خلاف صاحبيه : ابن حبوس وأبي حفص عمر الأغماتي، وهذا التخصص سمة جديدة لم تبرز في الآثار الأدبية للمغرب قبل هذه الحقبة، أعني بالوفرة التي برزت في ملاحم ميمون الخطابي، الذي قد يكون تأثر فيها بالحركة الشرقية في هذا المجال تلك الحركة التي كانت أخذت أعلامها ترفرف على الجو الأدبي في الشرق لعهد ظهور صاحبنا الخطابي، وكان لشرف الدين البوصيري (600 ـ 682 هـ) البربري الأصل، المحدث والخطاط، فضل تقعيد هذا النوع من الأدب العربي بوضعه قصيدتيه : (البردة، والهمزية) في مدح خير البرية سيدنا محمد عليه السلام.

ونفحات ميمون الخطابي في مدح الرسول محمد عليه السلام، لا تقل في روعتها الفنية : عرضا وتنسيقا وتعابير راقية عن تحفتي البوصيري، وإن لم يخلد في هذا الميدان إلى الآن سوى قصيدتي البوصيري اللتين ترجمتا إلى عدة لغات، كما أن المعاني التي عالجها ميمون الخطابي في قصائده النبوية تدل على روح دينية مشبوبة وعاطفة قوية متأججة، عهدت دائما في جميع أفراد الشعب المغربي المتدين المسلم، بل طالما دفعته هذه العاطفة الدينية إلى تحقيق المعجزات.

وإذا كان الحظ قد تنكب طريق ميمون الخطابي ـ ككل الذين ولجوا هذا الباب، باستثناء البوصيري قطعا كما قلنا، إما لأن زامرة الحي لا تطرب ـ كما يقولون ـ، وإما لأن الناس لم يطلعوا على آثاره في هذا الميدان، ومن ثم لم يعطوها ما تستحقه من دراسة واهتمام، ثم من تغن وترتيل وترديد، أو لأنه كما يقول العامة المغاربة ـ لم تحظ بالقبول، أقول إذا كان الحظ قد تنكب الخطابي، فإن تاريخ فن القصائد الدينية أو النبويات بتعبير المادحين والمقرئين لن يكون في مقدوره أن يجحد فضل هذا الرجل يوم تقام لهذا الفن الموازين.

وميمون الخطابي كما في الجذوة لابن القاضي، هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي، نسبة إلى قبيلة من صنهاجة قد تكون ذات علاقات عرقية بأسرة آل الخطابي الجزائرية، وهي أسرة تقطن الغرب الجزائري في التقسيم الجغرافي الحالي، يوجد أفراد منها حاليا بالمغرب الأقصى كانوا جاءوا مع الحملة الفرنسية، وقد كونوا لهم في اقليم الغرب ممتلكات فلاحية مهمة، وهم يدعون انحدارهم من أبوة عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للرسول عليه السلام.

والخطابي هذا من مواليد مدينة فاس، ويعرف بابن خبازة، لقب كان اشتهر به أحد أخواله يدعى الشاعر ابن خبازة. ويبدو من هذه الكنية وهذا الانتساب أن الرجل لم يكن من المتطفلين أو الطارئين على الميدان الشعري، وإنما له به صلة وثيقة، وله به وشيجة قربى، وخؤولة دم. ولعل هذه الصلة هي التي دفعت بالرجل إلى الضرب بسهم وافر في ميادين ـ لا خصوص تلك التي لها اتصال بالأدب والشعر ـ وإنما أيضا في كل ميادين تحصيل العلوم، وخاصة تلك المتصلة باللغة وفقهها بالإضافة إلى الآداب ومختلف مجالاتها. حتى صح لصاحب الجذوة ابن القاضي أن يكتب عنه يقول : (ـ عن فقهه الأدبي ـ كان سريع البديهة، ناظما، ناثرا، مع الإجادة، والتفنن في أساليب الكلام، معرفة واتقانا، في هزله وجده، على اختلاف اللغات).

وتوفي ميمون الخطابي برباط الفتح من سلا سنة (637 هـ)، أما ولادته فمجهولة، كما هو الشأن في أغلبية رجالاتنا لما أشرنا إليه سابقا في دراستنا هذه وإن كان من المحقق ـ وكما يذكر مؤلفو الطبقات أن الرجل عمر طويلا، وأنه اتصل بالسلطة الزمانية لعهده، وأنه كلف بمهمة في حسبة الطعام بمراكش.

ومن يقف على آثار الرجل التي تتوزعها الأضابير وبعض كتب الطبقات ـ إذ ليس للرجل ديوان شعر خاص، ولم يجمع شعره حتى الآن ـ ويستشف أشكالها ومضامينها، سيسلم ويلمس إلى أي مدى كانت كلمات ابن القاضي صاحب الجذوة عن صاحبنا هذا صادقة، فإن قوة الجرس الموسيقي في أساليب الرجل، ورصف الكلمات أفقيا وعموديا معا ـ وهذا نوع من الأشكال الأدبية التي

استحدثت أيامئذ ـ مما أضفى على آثار الرجل قوة، وأكسبها وقعا خاصا، هي إلى وقع آثار فحول شعرائنا الأسبقين أقرب، وبها ألصق. فلنقف قليلا نقرأ له مثل هذه المقاطع من قصيدة رثى بها ولدا لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الجد افتقده شابا يافعا، قال :

أرجة الصعق يوم النفخ في السور
أم ذلة الطور يوم الصعق في الطور ؟
أم هذه الأرض اظهارا لما زجرت
به الخليقة من إيقاع محذور ؟
أم الكواكب في آفاقها انتثرت
وباتت الشمس في طي وتكوير ؟
ما للنهار تعرى من ثياب سنا
وشابه الليل في أثواب ديجور
قد كان للصبح طرف زانه بلل
مقسم الخلق بين الدجن والنور
فما الملم الذي غشى بدهمته
أديمه عنبرا من بعد كافور ؟
اصخ لتسمع من أنبائها نبأ
يطوي من الانس فيه كل منشور
وانظر فإن بني عدنان ما حشروا
إلا لرزء عظيم القدر مشهور
رمى قريشا فأصمى سهم حادثه
أبناء فهر بتوفيق المقادير
فخانها الجد في ابن الجد يوم قضى
وأثر الخطب فيها أي تأثير
نوارة عندما راقت بدوحتها
أهوت إلى الترب من بين النواوير
جار الذبول عليها عندما ملأت
معاطس الدهر من طيب وتعطير
قضى، فرافق شهر الصوم مرتحلا
ووافق الشهر في فضل وتطهير
فسار للحين مسرورا، وخلفنا
للحزن، فأعجب لمحزون بمسرور
ناديت ياحادي الأحزان يوم حدا
اظعان قلبي، رفقا بالقوارير
فالوجد والدمع من حزن قد اقتسما
قلبي وجفني بمنظوم ومنثور
وللملائك في آفاقها زجل
قد شفعته بتهليل وتكبير
ياعامر الترب كم خلفت من كبد
ومن فؤاد بشاوي الحزن معمور
لو كنت تحمى وتفدى للعلى ابتدرت
الآمها بالقنى أو بالقناطير
لكنها الموت حكم ليس يدخله
نسخ لخلق وعدل دون تجوير
يقضي على الأسد في الآجام حاكمه
وفي الكناس على البيض اليعافير
ويمتطي الشهب في شم الجبال، كما
في الوكر يعتام أفراخ العصافير
أعظم بآيته، من آية عظمت
فليس تدرك في حال بتفسير
فاسمع بقلبك، فالأشياء ناطقة
وألسُنُ الحال تُغني كل نِحْرير
مقدمات الليالي طالما فضحت
نتائج الغدر منها كل مغرور
جمع السلامة معدوم الوجود بها
فكم بها للردى من جمع تكسير
والكون طرس، وهذا الخلق أحرُفُه
والحرف ما بين ممحُوٍّ ومبتور
والدهر يعرب، والأفعال يظهرها
طوعا ويعجم منها كل مسطور
وإنما الخلق أسماء تعاورها
إعرابه بين مرفوع ومجرور
وكلهم في مدى الأعمار تحسبهم
كحالها بين ممدود ومقصور
والموت مثل عروضي يكسر من
أبياتهم كل موزون ومكسور
ما من يؤمل أن يبقى وقد نفضت
أيدي المقادير من ابرام تقدير
هذه الحقيقة لا ما حدثتك به
آمال نفسك عن دنياك من زور

لا تخـدعنـك الليـالي، إن فتنتهـا
كـادت، فكـادت ترينـا كـل محـذور
هـو القضـاء أبي بكر أصِبْتَ بـه
فـاْصْبِرْ، وسلم لـه تسليم مَـأجُور

ونلاحظ أن هذه القطعة ـ بالإضافة إلى ما حملها من أفكار فلسفية عن الموت والحياة ـ صاغ الأبيات الأخيرة، التي أوردناها ـ والقصيدة يتجاوز عدد أبياتها الثمانين ـ بما يبرز الموسوعية العلمية التي كان يمتاز بها، ومدى تمكنه العميق، من فهم أسرار قواعد اللغة إلى درجة التلاعب بمختلف معانيها، مجازيها والحقيقي منها.

ومع ذلك، فإن عبقرية ميمون الخطابي إنما تبرز وتتجلى بصورة واضحة، وبكيفية محسوسة قويت في قصائده النبوية، فلنسمع إلى مقاطع من قصيدة له في هذا الباب، بلغت أبياتها أكثر من المائتين، تعرض فيها ـ تقريبا ـ للسيرة النبوية من بدايتها إلى نهايتها وصاغها في قالب شعبي جد محترم، ومن تلك المقطعات قوله :

حقيق علينـا أن نجيب المعـاليـا
لنفني في مـدح الحبيب المعـانيـا
لنطلع من أمـداح أحمـد أنجُمـاً
تلوح فتجلو من سناه الديـاجيـا
كـواكب إيمـان تلـوح، فيهتـدي
بـأنـوارهـا من بـات يـدلـج ساريـا
سهـوت بمـدح الخلق دهرا، وهـذه
سجـودٌ لجَبْرِي كـل مـا كنت سـاهيـا

رسـول براه اللـه من صفـو نـوره
وألبسـه بردا من النـور ضـافيـا
ثـوى في ظهـور الطيبين، يصـونـه
وديعـة سر، صـار بـالبعث فـاشيـا
وخص بطـون الطيبـات لحملـه
ليحمـل فرعـا للسيـادة زاكيـا
.... وآدم لمـا خـاف يـزرى بـذنبـه
تـوسـل بـالمختـار للـه داعيـا
فتـاب عليـه اللـه لمـا دعـا بـه
وأدنـاه مِنْـه بعـدمـا كـان نـائيـا

وقـد يهجر المحبـوب في حـالـة الرضى
ويـأبى الهـوى أن لا يصـدف واشيـا
... وكم شـاهـدت من آيـة أمُـةٌ بـه
يصير بهـا جيدُ الـديـانـة حـاليـا
رأت في معـاليـه مَرائيَ جَمّـةً
وصـدقت الآثـارَ منـه المرائيـا
.. بـدا واضعـا كفَّيـهِ بـالأرض، رافعـاً
لعينيـه نحـو الأفـق بـالطرف سـاميـا
وأعْـوَلَ ابليسُ اللعينُ، وقـال : قـد
يَئِسْتُ، وقِـدْمـاً كنتُ للكفر راجيـا
.. وقـال (هرقـل إذْ أطل زمـانـه
: بَنِيّ، أرى مُلـكَ الخِتـانِ موافيـا
وإيـوان كسرى اهتـز ليلـة وضعـه...
وبـات عليـه قصره متـداعيـا
وحُمـل ذاك الحِلمَ حِجْرُ (حليمـةٍ)
لِتُرضِعَـهُ دَرَّ الفضـائـلِ صـافيـا
أبى حَمْلَـهُ النسـوانُ لِلْيُتْم وانبَرت
لـه، فرأت ـ من حينهـا ـ الرزق نـاميـا
وبُغِّضَتِ الأصنـامُ لِلْمُصطفى، فلم
يـزل هـاجرا فعـل الضلالـة قـاليـا

إلى أن يقول ـ بعد أن يشير إشارات جامعة مانعة لكل مراحل سيرته ﷺ وشمائله ومعجزاته ومـا أحـاط بظهوره من تلك المعجزات :

وآيتـه جلت عن العـد كثرة
فمـا تبلغ الأقـوال منهـا تنـاهيـا
وأعظمهـا الـوحي الـذي خصـه بهـا
فبلـغ منـه آمرا فيـه، نـاهيـا
تحـدى بـه أهـل البيـان بـأسْرِهم
فكلهم ألفـاه بـالعجـز وانيـا
وجـاء بـه وحيـا صريحـا يـزيـده
مرور الليـالي جـدة وتعـاليـا
تَضَمَّنَ احكـامَ الـوجـود بـأسْرِهـا
وعم القضـايـا مثبتـا فيـه، نـافيـا
وأخبر عمـا كـان أو هـو كـائن
يرى مـاضيـا أو مـا يرى بعـد آتيـا

ومـــا كتبت يمنـــاه قـــط صحيفـــة
ولا ريء يـومـــا للصحـــائف تـــاليـــا
عليـــه ســلام اللـــه لازال رائحـــا
عليـه مــدى الأيـــام حقـــا، وغـــاديـــا

ومن تتبع آثار ميمون الخطابي قد تشم منه رائحة الاهتمام المتزايد بالشؤون العامة، لا الاجتماعية فحسب، وإنما بصورة أوضح وأعمق بالشؤون الإيديولوجية التي كانت مدار الساعة، ولها في حياة الدولة المكانة السامية، فكان ينال منها ما لا يتفق وما يعتقده بالنقد والتجريح ويفندها بالتأويل والتصريح، مما يؤكد أن الرجل لم يكن غرا ولا مصدقا ـ على الإطلاق لكل ما يراد أن يروج له مهما كان مصدر ذلك، كما يدل على أنه كان يقف من الدعوات التي لا تتفق والفكر الديني الحقيقي موقف المعارضة التي لاتتخفى وراء الرمزية، وكان أكبر دليل على ذلك موقفه من ادعاء ابن تومرت لفكرة المهدوية، فقد انتقدها في سخرية لاذعة مرة وأبان زيفها، ومن قوله في ذلك البيتان الآتيان :

وجـــد النبـــوة حلـــة مطـويـــة
لا يستطيـع الخلق نسج مثـــالهـــا
فـــاسر حســوا في ارتغــــاء يبتغي
بمحـــالـــة نسجـــا على منـوالهـــا

وحيث أن الإنسان من حيث إنسانيته، مجموعة من الأعصاب الفكرية، وفورة من العواطف، لابد أن يبحث لها بين الحين والآخر ـ عن متنفس فإن ميمونا الخطابي وما كان يخرج ـ وهو الإنسان الشاعر الرقيق الإحساس المرهفه، عن الأحاسيس البشرية وطينتها المتقلبة الأهواء والنوازع، المتباينة الميول والرغبات، وحيث أن أهم وأبرز عاطفة إنسانية على الإطلاق ـ والتي تعطي الإنسانية حقيقتها السرمدية ـ هي الحب، فإن ميمون الخطابي يمنح هو الآخر من تذوق حسراته اللذيذة وآلامه ـ التي وإن تكن أحيانا مبرحة ـ المحببة الشيقة وإنما شرب منها حتى الثمالة، وسجل عنها في شعره بعض ما ناله منها وإن يكن هذا التسجيل بدأ في صورة محتشمة، كأنما يربأ بفقيه أن يبدي الضعف والوهن وهو المفروض فيه الصبر والاحتمال، وإذ لم يكن في استطاعته أن يمر على حياة القلوب مر الكرام فقد أبى إلا أن يسجل ـ كما قلنا ـ ما ذاق منه من نفحات عاطرة وأن يصوغها في سبحات من القول الصادق المعبر الفوار، ومن كلماته في هذا المجال، الأبيات الآتية التي نختم بها حديثنا القصير عن هذا الرجل ذي المجالات الواسعة للتناول والدرس، قال :

هب النسيم ضحى، ففـــــاح المنـــــزل
وتـــــأرجت منــــه الصبـــــا والشمـــــال
أبرى عليـــلا، فـــاستحثُّ إلى الصَّبـــا
صبـــاً بـــأنفـــاس الصَّبـــا يتعلَّـــلُ
فهـوى الغـوير وســاكنيـــه ومن لـــه
لـــو كـــان يـــدنـو منـــه ذاك المنـزل
فـــاشـــام برقـــا بـــالغضـــا، ثم انبرى
شـوقـــا، على جمر الغضـــا يتململ

فاس عبد الكريم التواتي

من نوادر المخطوطات بخزانة القرويين

الأرجوزة الطبية

لأبي بكر ابن الطفيل

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

إن الاعتناء بالطب مظهر من مظاهر الحضارة العربية في المشرق والمغرب والسبب في ذلك راجع إلى علاقة هذا العلم بحياة الناس وحفظ أبدانهم ورعاية أجسامهم ولذلك كان التواصل مرتبطا بين العلوم العربية والعلوم عند الأمم الأخرى في هذا الباب لأن الجسم رهن بمدى العناية التي يوليها المهتمون به سواء فيما يتعلق بدراسة أعراضه الذاتية أو دراسة ما يتصل به من وسائل العلاج؛ الشيء الذي جعل الاهتمام الطبي لا ينصب على تشخيص الأمراض فقط بل انصب أيضا على البحث عن وسائل العلاج بطريق التغذية وطريق التكيف مع الطبيعة وقويت بسبب ذلك الدراسات المهتمة بالنباتات والحيوانات والمعادن وغيرها واتصلت الدراسات المتعلقة بعلم الصيدلة مع الدراسات المتعلقة بالطب العام أو الخاص وورث العرب كثيرا من هذه الدراسات عن اليونان والهند والفرس وغيرهم وأضافوا إليها من تجاربهم وخبراتهم فأصبحت أبحاثهم بسبب ذلك ذات شأن عظيم.

ولقد تتبع أهل البحث ما توصل إليه العرب من اكتشافات هامة في أحوال الجسم البشري وفيما يعود عليه من النفع سواء كان ذلك يتصل بميدان الطب السريري أو يتصل بالطب الجراحي وسواء كان متصلا بوسائل الوقاية أو بوسائل العلاج.

ولقد وصلت الكتب اليونانية القديمة إلى العرب عن طريق الترجمة في عهد العباسيين فعرفوا بسبب ذلك طب جالينوس وأبقراط واستوعبوا قواعده وجربوا نتائجه وأبدعوا فيه حينما ربطوه ببيئتهم وعارضوه بأحوالهم وأخضعوه لتجاربهم فكانوا بسبب ذلك رواد الحضارة المعاصرة وأساتذتها السباقين إلى وضع القوانين العلمية وإلى تيسير عناصر المعرفة للناس.

ولقد حاول المهتمون بإحياء التراث في العصر الحاضر أن يبحثوا عن المجهود العربي في هذا الميدان فوجدوا الخزانات العالمية مليئة بالمخطوطات العربية المتعلقة بأنواع شتى من الاختصاصات الطبية ولقد ذكر الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله في كتابه عن الطب والأطباء بالمغرب أن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية كانت قد كلفت الدكتور صلاح الدين المنجد، مدير معهد المخطوطات في الأمانة العامة بوضع كتاب عن مصادر تاريخ الطب المخطوطة فإذا به يسجل في كشفه نحوا من ألف كتاب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه المادة قد وجدت العناية الكافية من أرباب الثقافة في العالم الإسلامي سواء كانوا من علماء الاختصاص أو كانت لهم مشاركة في مواد الثقافة العربية والدراسات الإسلامية. ولا ريب أن الذين يسايرون البحث عن رجال الفكر في

تاريخ الإسلام سيجدون أن عدداً وافراً منهم كانت لهم خبرة علمية موسوعية لم يكن الطب ببعيد عنها لا فرق في ذلك بين النابهين في المشرق وبين النابهين في المغرب.

وإذا كانت الحركة العلمية قد سايرت الفتوحات العربية في كل مكان، فإن طبيعة البحث العلمي دفعت العلماء المسلمين إلى الاستفادة من خبرة من سبقوهم كما دفعتهم إلى الاستفادة من مجهودات النابغين فيهم وهذا هو سر التداخل الموجود بين الحركة العلمية في المشرق والمغرب وسر التداخل الموجود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية على اختلاف أشكالها.

ونحن في الثقافة الطبية لا يمكننا أن ننسى المجهود الذي بذله الرازي وابن سينا في المشرق كما لا يمكننا أن ننسى المجهود الذي بذله بعض علماء الأندلس والمغرب كابن رشد وعبد الملك بن زهر وأبي بكر بن طفيل فجميع هؤلاء قد ساهموا مساهمات عملية في تطوير البحث الطبي وإن كانت درجاتهم تختلف حسب مواهبهم وشهرتهم.

ففي الأندلس مثلا خصوصا في عهد المرابطين والموحدين حينما كانت الأندلس تابعة لبلاد المغرب كانت الرعاية الطبية قوية وكان بعض الأطباء يحرصون على تسجيل ملاحظاتهم وتدوينها وعلى البحث عن الوسائل الميسرة للتلقين فكانوا بسبب ذلك يجمعون بين الصنعة الطبية العملية وبين المضمون النظري المؤدى بأحسن الطرائق التعليمية النافعة.

وفي هذا العصر ألف ابن رشد كتابه «الكليات» وألف أبو مروان عبد الملك ابن زهر كتابه «التيسير» وألف ابن طفيل أرجوزته الطبية التي تحتوي على أكثر من سبعة آلاف وسبعمائة بيت من الرجز السهل الواضح البين.

والظاهر أن شهرة ابن رشد وابن زهر من الناحية الطبية قد تجاوزت شهرة ابن طفيل نظراً لكون هذا الأخير قد استمال الناس بأسلوبه القصصي فيما يتعلق بالفلسفة الإشراقية فشغلهم بكتابه حي بن يقظان وجعلهم يتساقون إليه ويتأملون في رموزه فنسوا بذلك مؤلفاته الطبية التي لم تصل إلى حد الإبداع الموجود في كتاباته الفلسفية ومع ذلك فإن ابن الطفيل لم يهمله المؤرخون في الجانب الطبي فذكروه من بين الأطباء المرموقين في عصره فهذا ابن ابي زرع في كتابه القرطاس جعله من أطباء يوسف بن عبد المومن الموحدي وذكر أنه من أهل الحذق بصناعة الطب والنظر في الجراحات (1)، وهذا ابن أبي أصيبعة يذكر أن له مباحثات ومراجعات على كتاب الكليات لابن رشد (2) والظاهر أن من يقرأ كتبه سيعرف من خلالها أنه كان ذا خبرة بعلم التشريح نظرا للدقة التي يتحدث بها عن جل الأعضاء الداخلية في الجسم.

ومن ضمن هاته الكتب أرجوزته المحفوظة بخزانة القرويين المسجلة تحت رقم 1969 فهي رغم إصابة كثير من أوراقها بالسوس والرطوبة ما زالت تمثل في كثير من أبوابها طريقة المؤلف في وصف الأمراض وفي وصف علاجها.

هذه النسخة الفريدة في وضعها تشتمل على ثمان وأربعين ومائة ورقة من مقياس 30 × 21 إلا أنها عارية عن ذكر تاريخ نسخها وعن ذكر الناسخ نفسه يبدؤها الناظم بقوله :

الحمد لله العلي الظاهر
ذي الملك والعز المجيد القاهر (3)
نحمده حمداً على آلائه
واسأل المزيد من نعمائه
ثم الصلاة والسلام سرمدا
على النبي الهاشمي أحمدا
أرسله الله بدين الحق
فكلم الناس بمحض الصدق

1) الجزء الثاني من الأنيس المطرب بروض القرطاس المطبعة الوطنية صفحة 176

2) عن مقدمة كتاب حي بن يقظان بقلم الدكتور جميل صليبا وكامل عياد الطبعة الأولى.

3) لم يكن الشطر الثاني موزونا فعدلناه بإضافة كلمة (والعز) ويمكن أن تعوض بكلمة في وزنها مثل (والعلم) مثلا.

وقـــام بـــالجـــد والاجتهـــاد
بمـــا نـــوى من واجب الجهـــاد

ثم تعرض لموضوع النظم فقال :

أذكر فيـــه علـــل الإنســـان
بغـــايـــة الإيضـــاح والبيـــان
وأذكر الأعضـــاء فيـــه جمعـــا
ذكراً يفيـــد من وعى واستمعـــا
يكـون بـــالرأس ابتـــداء الـــذكر
ثمت بـــالرجـــل انتهـــاء الأمر
وأذكر العـــلاج والـــــدواء
ومـــا يحيـــل السم والأدواء

وانتهت المنظومة بالحديث عن القوبا وعلاجها من غير أن يكون هناك تناسب بينها وبين ترتيب الكتاب وختمت بقول الناسخ تمت المقابلة على قدر الاستطاعة بعد شق النفس والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي الورقة الأولى من هذه المخطوطات تحبيس الإمام أحمد المنصور السعدي وفي وثيقة التحبيس ذكر اسمها ونسبتها إلى مؤلفها فليس فيها عنوان خاص يبين حقيقتها ولا أي شيء يدل على أنها لابن طفيل فلو فقدت تلك الوثيقة لانقطعت الصلة بيننا وبين حقيقة هذه المنظومة.

إلا أننا نلاحظ أن هذه النسخة ملفقة من ثلاث نسخ نظرا لاختلاف مسطرتها واختلاف خطوطها واختلاف وضعها ويتجلى ذلك واضحا عند المقابلة بين الورقة الأولى والثانية فهما قد كتبتا بخطين مختلفين ولولا أن الورقة الثانية قد تكرر فيها بيتان من الورقة الأولى ما كان عندنا يقين بأنها تنتمي إليها هي وما يشبهها من المضمومات (4) ونقصد بالشبهية ما يسير على شكلها ومقاسها وترتيبها ولهذا فإننا نشك في أن الورقة التي تحمل الرقم الثالث عشر بعد المائة من الكتاب كما نشك في كون الأوراق الموجودة ما بين الرقم السابع عشر بعد المائة والرابع والعشرين بعد المائة منه أيضا وذلك لعدم التسلسل الموضوعي أحيانا أو لكون بعض العناوين قد كررت مع اختلاف ما هو موجود في تحليلها. والغالب أن هذا الخلط ناتج من جمعها وضم شتات ما يتقارب منها وربما سيتيسر فيما بعد الوصول إلى الحقيقة إذا وجدنا في الخروج ما نكمل به النسخة أو وجدنا من المخطوطات ما تقابل به هذه النسخة المتحدث عنها.

وعلى كل حال فالمنظومة في حد ذاتها على الشكل الحالي تعتبر من الناحية التاريخية صورة للموضوعات الطبية المطروقة في عصر ابن طفيل فقد ألفها على سبع مقالات جلها مقتبس من الطب القديم المعهود لدى أطباء العرب وسيتضح لمن يطلع عليها أن لابن سينا بصمات في كثير من موضوعاتها وأنها تعتمد على تشخيص المرض وعلى ذكر أسبابه ثم على ذكر ما يتعلق بعلاجه، وفيما يأتي تفصيل الحديث عن ذلك حسب الترتيب الذي سار عليه المؤلف في كتابه وحسب الاهتمامات التي أولاها لموضوعه العلمي الجاد، وقد ادمج في كل مقالة ما يناسبها واستخرج منها ما يتعلق بها.

المقالة الأولى : في أمراض الرأس

وفيها تحدث عن داء يسمى بداء الثّعلب وعن انتشار الشعر وتكاثره وعما يمنع الشيب قبل وقته وعن الإبرية وهي الحزاز وعن قروح الرأس وعن نوع منها يسمى بالشهدة وعن مرض يعرض بالوجنتين وقذال الرأس ويسمى بالسّعَفَة والربة وعن الصداع وأنواعه وأجزائه وعن الشقيقة وأقسامها وعن وجع الهامة وعن البرسام الحر والبرسام البارد (5) ثم تحدث بعد ذلك عن بطلان الذِّكْر وعن السبات والأرق والسهر وإفراط الخُمار والدوار وإفراط عرق الرأس وعن العشق والقطوب والكابوس والمَالِنْخُونْيَا وهو مرض يعتري الإنسان فيفقد بسببه الانضباط ويصير حينئذ غير متحكم

4) البيتان المكرران هما :
وإن يفتك الفصد بالحجامه
في أخدعي قفاه باستقامه
وإن بدا البلغم في المكان
ولم يغب ذاك عن العيان

5) نبّه ابن سينا في كتابه القانون (ج 2 ص 45) أن الورم الذي يكون بالدماغ لا يسمى برساما بالباء وإنما يسمى سرساما بالسين لأن البرسام بالباء يكون بالصدر لا بالدماغ ولكن ابن طفيل لم يتقيد بهذا لأنه أطلق البرسام على ورم الدماغ أيضا.

في وعيه، فيتخيل بعض الأشياء التي لا وجود لها في الحقيقة ويضحك بغير سبب ويخلط في الكلام دون تثبيت. ثم تحدث بعد ذلك عن الصرع وهو علة تعطل الأعضاء النفسية عن أفعال الحس والحركة والانتصاب منعاً غير تام وعن السكتة وهي علة قال عنها ابن سينا في كتابه القانون (ج 2 ص 86) إنها تعطل الأعضاء عن الحس والحركة لانسداد واقع في بطون الدماغ في مجاري الروح الحاس والمتحرك.

ثم تحدث المؤلف عن الفالج واللقوة والتشنج والارتعاش والاختلاج والخَدَر وعظم الرأس وبذلك أنهى هاته المقالة التي اشتملت على ستة وثلاثين باباً (6) إلا أن الاستفادة تتعذر من أكثرها نظراً لتلاشي جُزء كبير منها وضياع الجوانب اليمنى في كثير من أوراقها خصوصا فيما بين الباب السادس عشر والباب الأخير.

المقالة الثانية في الأدواء العارضة في الوجه وتشتمل على واحد وسبعين بابا وفيها تحدث عن انتفاخ الوجه وعن سواد الأجفان وعما يقلع الوشم وعن الكلفة وعما يزيل النمش والخيلان وعن آثار الحروق في الوجه وعن صفرته وعما يبيضه ويحسنه وعن البثور العدسية الصغار التي تعتريه وعن الاحتراق والشقاق فيه.

ثم تحدث بعد ذلك عن الرمد بأقسامه وعن علاجه ثم عن الحول والغرب وهو دم عارض في المآقي ناتج عن تورم فيها يحدث وجعاً أليما وعن الغدة وهي اللحم الزائد بالمآقي وعن السُّلاَق وهو غلظ في الأجفان مع احمرار وتقرح ثم عن الجُساء الذي يعرض للعينين وَعَرَّفَهُ بقوله (7) :

قد يعرض الجُساء للأجفان
مع وجع تحسه العينان
وحمرة وعسرة انفتاح
عند انقضاء النوم في الصباح
وشدة ليست مع الصلابه
وقلة الحراك والإجابه

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأذن وأمراضها وعلاجها وعند تعرضه لما ينشب فيها لم يستعمل كعادته النظم في كل ما يتعلق بالموضوع بل وصف علاجاً من العلاجات نثراً ثم تحدث بعد ذلك عن مرض اللثة واللسان والأسنان واللهاة وبذلك أنهى المقالة الثانية (8).

المقالة الثالثة في العلل العارضة في الحلق والصدر وآلة التنفس (9) تحدث فيها عن الذبحة وعن بحوحة الصوت وعن خشونته وعن ذات الرئة وهو السل والذبول وعن نفث الدم وعن بلع العلَق وعن الربو وعن أمراض القلب وعن أمراض الشديين ونتن الإبطين ثم تحدث بعد ذلك عن المعدة وعن سوء الهضم وعن الشهوة الكلية للطعام وعن شدة العطش وعن الزَّحير، ولا أدري الدوافع التي جعلته يتحدث عن هاته الأمراض الأخيرة مع أنها لا تناسب موضوع المقالة.

المقالة الرابعة : في آلات الغذاء وفي أمراض المعي والبطن (10) تحدث فيها عن ضعف الكبد وعن أورامها وعن تحجرها وعن كثير من أنواع أمراضها أو الناتجة عنها كمرض الاستسقاء ومرض اليرقان ثم تحدث عن أمراض الطحال وعن المغص وعلاجه وعن القَوْلَنْج المعروف بإيلاوش وهو مرض يحدث وجعا في الأمعاء ومن علاماته زيادة على شدة الوجع الادمان على القيء وَيتسَبَّبُ في نتانة التنفس وفي كراهية الرائحة التي تصدر عن ريح المريض ولهذا كان هناك نوع يقال له المتعاذُ منه وقانا

---

6) تتكون المقالة الأولى من الورقة الثانية في الترقيم مع أنها الورقة الأولى في الواقع إلى الوجه الثاني من الورقة الحادية والعشرين.

7) الوجه الأول من الورقة 37 من المخطوطة المتحدث عنها.

8) أخذت المقالة الثانية من المخطوطة ما بين الوجه الثاني من الورقة 21 وبين آخر الورقة 47.

9) استغرقت المقالة الثالثة من الوجه الأول من الورقة 48 إلى الوجه الثاني من الورقة 70.

10) استغرقت هذه المقالة من الوجه الثاني من الورقة السبعين إلى الوجه الثاني من الورقة الثالثة والثمانين، إلا أنه يلاحظ إقحام الورقة الحاملة للرقم الواحد والسبعين فهي ليست من المقالة المذكورة وذلك واضح لأنها لا تتناسب مع الموضوع زيادة على أنها كتبت بخط مغاير إلا أنه يلاحظ في وجهها الثاني أنها تتصل بهذا الكتاب من حيث الإشارة إلى إتمام المقالة الثالثة وبداية المقالة الرابعة وبعد مشقة تبين لنا في آخر الورقة نفس العنوان الذي وضع للمقالة الرابعة المتحدث عنها وعلى كل حال فهناك خلط ينبغي أن يعنى به المهتمون بتحقيق هذا الكتاب في المستقبل.

الله شر ذلك ولقد أحسن ابن طفيل تشخيصه بأسلوب يدل على براعة في الأداء اللغوي فهو حينما بينه وبين أنواعه قال (11) :

دليلـه الـوجـع في الأمعـاء
والقيء بـالإدمـان في استيـاء
وربمـا تقيـأ البرازا
فصـار في القيء يُرى ممتـازا
وذا يسمى المتعـاذُ منـه
وليس للشـاكي خروجٌ عنـه
وهـو الـذي يُقـذفُ فيـه الـزبـل
ونـوعـه الثـاني الـذي ينحـل
من نَفَس العليـل فيـه نتن
كـأنـه بسلحـه مُنتن
ونـوعـه الثـالث مـا الجُشـاء
يُحْسَب فيـه أنـه فُسـاء
ونـوعـه الرابـع مـا الريـاح
تُحْسَب فيـه أنـه سُـلاح
وخـامس الأنـواع فيـه الجسمْ
جميعـه النّتن لـه يعم

وختم هذه المقالة بالحديث عن مرض البواسير وعن علاج ذلك.

المقالة الخامسة : في أمراض الكلى والمجاري البولية وأمراض الرحم (12) وفيها تحدث عن تولد الحصى وعن عسر البول وسلسه وحرقته وكثرة القيام إليه وفي هذه النقطة تحدث عن هذا المرض الذي كان يعرف عند اليونانيين بديابيطا وقال عنه (13) :

تعرف ذي العلـة بـاليـونـاني
ديـابيطـا في منطـق اللسـان
وهي التي يشرب فيهـا المـاء
وليس بـالجـوق لـه بغـاء
تهبـط في الحين من كـلاه
قـوتـه حتى يلي مجراه
ويـدفـع المجـاري للمثـانـه
في سرعـة ولم تطـل زمـانـه
ويخرج البـول بـلا تلـوين
كـأنـه مفـارق في الحين
فهـو إذا كـان كـذا ردي
في حـالـه ونـوعـه وبي
وهـو إذا كـان بِصِبْغ صـالـح
ويظهر العـلاج فيـه نـاجـح
وأصلـه أن تـتـدر القـوة
رطـوبـة الكلى بجـذب عنـوه
فيعتري من ذاك شـوق المـاء
ويشرب العليـل بـالـدلاء
ويخرج البـول بغير حرقـه
ودون عسر فيـه أو مشقـة
وكلمـا يشرب مـاء بـا لا
ولم يطـق لثقلـه احتمـالا

ثم بعد ذلك خصص عنوانا لعلاج هذا المرض ذكر فيه أنواعا من النباتات ومركبات من الدواء منها ما يمكن الانتفاع به إلى الآن.

ولقد أثارت هذه الأبيات من المنظومة اهتمام عدد من الأطباء الذين زاروا خزانة القرويين فرأوا فيها دقة في الوصف وتتبعاً لمراحل المرض خصوصا فيما يتعلق بالتشخيص وذكر العوارض ولم يقتصر الأمر على الذين اطلعوا عليها بل إن بعض البواعث العلمية جعلت بعض الأساتذة في كلية الطب بالرباط يستنسخونها وهم الآن يدرسونها حسب المعطيات العلمية المعاصرة ويوجهون عناية طلبتهم إلى هذا الميدان العلمي التاريخي الذي يمكنه أن يحقق تصورات حضارية في نفوس العرب المعاصرين ليجعلوا من علمائهم السابقين قدوة حسنة تعينهم على البحث المتواصل عساهم بذلك أن يحيوا مجداً غبر وأن يمنحوا أمتهم فرصة أخرى للازدهار الحضاري وللتقدم العلمي.

---

11) المخطوطة الوجه الأول من الورقة الثمانين.

12) استغرقت هذه المقالة من الوجه الثاني للورقة الثالثة والثمانين إلى الوجه الثاني من 104.

13) المخطوطة الوجه الأول من الورقة التسعين.

إن هذه المقالة كانت من أهم ما كتبه ابن طفيل وقد وفق في أسلوبها وفي عرضها وجعلها من الموضوعات التي لا يتحقق الحكم فيها إلا على الاستقراء العلمي وعلى التجارب المتصلة بذلك، وكانت الجوانب الطبية فيها واضحة تمام الوضوح كما أن النتائج الموصول إليها كانت مبنية على خبرة تامة تدل على اعتناء ابن طفيل بأبحاثه وموضوعاته.

المقالة السادسة : خصها للحديث عن أنواع كثيرة من الحميات (14).

ويظهر من تحليله أنه كان يتحدث عن الحميات المرضية وعن الحميات العرضية ويستفيد القارئ العادي من هذه المقالة أسماء عدد من الحميات حسب المصطلحات التي كانت سائدة آنذاك.

فمن ذلك حمى يوم وحمى الدق وهي غير مرتفعة الحرارة وتستمر ثلاثة أيام فأكثر وحمى الغِبّ وهي شديدة جدا يقول عنها في منظومته :

تبدأ بالنابض حمى الغب — يوما ويوما لا بأمر صعب

ومدة النابض لا تطول — وبردها مقصر قليل

لكنها تبدأ بالتسخين — ويسرع التهابها في الحين

وحرها يلدغ كف اللامس — كأنه لهب نار القابس

وربما خلط في الكلام — صاحبها في شدة المقام

لا سيما إن كان ذا مزاج — محترق ملتهب وهاج

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحمى المحرقة وعن الحمى الدموية وعن الحمى البلغمية النائبة كل يوم، ونلاحظ بعد ذلك وجود ورقة تحمل الرقم الثالث عشر بعد المائة مغايرة في الشكل والخط لما قبلها ولما بعدها أضيفت للكتاب وهي ليست منه وفيها حديث عن الحميات أيضا والدليل على أنها ليست من الكتاب، وجود نفس العناوين أحيانا مع اختلاف النظم المحلل لمعانيها فمن ذلك مثلا الحديث عن حمى تسمى بحمى الغشي، ففي تلك الورقة تجد تحديدها على الشكل الآتي (15) :

تحدث للإنسان حمى الغشي — كنوب حمى بلغم في السعي

تدور مثل دورها في الأكثر — ويذبل الجسم بسر الضرر

ويعتري في وجهه التهيج — وذا دليل واضح منتهج

في حين نجد في الأوراق العادية نفس العنوان لكنه يفسر بما يأتي (16).

يحدث بالإنسان حمى غشي — كنوب حمى بلغم في المشي

تدور مثل دورها سواء — فيذبل الجسم بها استيلاء

ويسقط النبض وتمضي القوة — من نوبة حين تنوب عنوة

ثم يستمر في وصفها وفي ذكر علاجها..

وبعد الانتهاء من ذكر الحميات تحدث عن الجدري والحصبة، ثم تسربت أوراق بخط مغاير تعرضت لذكر البحران وأطالت في تحليله وتفسيره ثم تعرضت لتدبير الناقه إلا أنها لم تشرحه (17) وقد أعيد هذا العنوان المتعلق بتدبير الناقه مرة أخرى وشرحه شرحا يتلاءم مع ما هو معروف في الطب آنذاك إذ من المعلوم أن العناية بالناقه أمر كان يهتم به الأطباء كثيرا لما ينتج عنه من النفع ولما يحقق من المصالح الجدية المتوقفة على الوعي الطبي والتربية الصحيحة، فليس من اللائق أن يبقى المريض معرضا بعد شفائه لبعض الطوارئ التي قد تعيد إليه المرض، بل هو في حاجة إلى التربية السليمة والتعهد المتواصل والرفق الذي لا ينقطع وقد خص ابن سينا لهذا الموضوع

14) المخطوطة الوجه الثاني من الورقة 108 إلى الورقة 125.

15) المخطوطة الوجه الثاني من الورقة 113 وقد بدلنا في البيت الثاني كلمة الجسد بالجسم ليستقيم الوزن.

16) المخطوطة الوجه الثاني من الورقة 114.

17) الأوراق المقصودة ترقم في الكتاب من 117 إلى 124.

نفسه في كتابه القانون دراسة دقيقة مفيدة قال فيها (18) «يجب أن يرفق بالناقه في كل شيء ولا يورد عليه ثقيل من الأغذية ولا شيء من الحركات والحمامات والأسباب المزعجة من الأصوات وغير ذلك ويدرج إلى رياضة معتدلة رقيقة فإنها نافعة جدا...» ونظرا لأهمية هذا الموضوع فإن ابن طفيل لم يهمله في هذه المقالة فهو به قد ختمها وقال عند تحليله (19).

من كان من حماه ذا استقلال
فينبغي في أكثر الأحوال
أن يلزم الشيء الذي اغتداه
وقت العلاج قبل أن يفضاه
أو ما يكون زائلا قليلا
ثم إلى أقوى كذا تعديلا
مندرجا إلى غذاء الصحة
فإنه بذا ينال نجحه
وامنعه أن يسهر والحماما
إلا إذا البرء له استقاما
ومره أن يجتنب الجماعا
ولا يضار جوعه إن جاعا
ولا يضار عطشا شديدا
والخمر لا يكن لها مريدا
وامنعه من كل طعام حار
لا سيما إن كان ذا اشعار

وعلى كل حال فإن ابن طفيل اعتنى بهذا الموضوع كاعتناء ابن سينا به لما فيه من الأهمية الصحية التي يجب أن يتنبه إليها المرضى وأن يطبقوها بكل دقة، فإن للمريض مسؤولية كبرى في ممارسة أسباب العلاج فليس الطبيب إلا مشخصا وواصفا أما المباشر للأدوية والمراقب للوقاية في الغالب، فهو المريض الذي يجب أن يعي مسؤوليته وأن يلتزم بها.

وبعد هذا الموضوع أنتقل إلى المقالة الأخيرة وهي التي نوضح موضوعها فيما يأتي فيقول :

المقالة السابعة في العلل التي تعتري البدن من الخارج وعلاجها وفي السموم وقد قسمها إلى أربعين بابا حسب ما يظهر من الهامش الموجود بطرة الكتاب أثناء ذكر المقالة (20) وفيها تعرض لكثير من السموم وأظهر عوارضها ومفعولها وما يتيسر علاجه منها وما لا يتيسر ويمكن للمختصين أن يطلعوا على هذه الأبواب في الكتاب ذاته فهي مفيدة جدا.

وعلى كل حال فالكتاب ككل يعتبر صورة للتصور الطبي الذي كان سائدا في عصر ابن طفيل نهج فيه ناظمه نهجا تعليميا حيث يبدأ بتشخيص المرض وذكر خصائصه ثم يتعرض بعد ذلك لأنواع العلاج ويشير في هذا العرض إلى تجاربه وإلى ما هو متداول معروف ولذلك لا يمكن التثبت بما فيه إلا إذا قوبل بما يتلاءم معه في موضوعه وفي مواصفاته ولا يتيسر الاستفادة منه إلا إذا كانت هناك ثقافة لغوية وطبية في آن واحد فكثير من النباتات والمعادن والحيوانات ظلت لها أسماؤها الموروثة عن الحضارة القديمة، وكثير من الأدوية ارتبطت عند الذكر بمن وضعها ولعلها كانت متداولة آنذاك، فهو عندما يتحدث مثلا عن أقراص جالينوس كوسيلة من وسائل العلاج، لاشك أنها كانت أقراصا مستعملة ومعروفة لمن توصف إليه وهو عندما يشير إلى بعض النباتات أو بعض المقاييس سيجد ولا ريب آنذاك صيدليات موازية لإنجاز ما يشير إليه، فالازدهار الطبي دائما يعايش الازدهار الصيدلي ولعل الطب الحديث قد استفاد من تجارب سابقيه وهذا أمر لا ينكر إلا أن هذه الاستفادة تقبل المسايرة والاطلاع على أكثر ما يمكن الاطلاع عليه من مخلفات الأجداد فقد نجد إلى الآن فيها شيئا يضفي على ملاحظات المعاصرين ما ينمون به مشاهداتهم وما يغيرون به بعض النظريات التي قد تكون داخلة في باب المسلمات؛ فالعلم في تطور ولا ينمو العلم إلا بالحرص على المعرفة المتواصلة والبحث الدائم وقد نجد في إحياء التراث ما يحقق تطورا أو يصحح رأيا يفيد الإنسانية في مستقبلها المجهول الذي نتمنى أن يكون خيرا وسلاما.

---

18) كتاب القانون الجزء الأول صفحة 106.

19) المخطوطة، الورقة 125.

20) تستغرق المقالة من الورقة 125 إلى اخر الكتاب.

حول تاريخ الأديان السماوية (1)

للأستاذ محمد كمال شبانة

تقديم :

تطلق كلمة «الدين» فتعني وضعا إلهيا، يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات. وقد عرّفه الفقهاء، فقالوا : إن الدين هو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة.

ولقد عرف الإنسان الدين منذ القدم، فأخضع سلوكه تجاه ما لمسه وعاناه من الطبيعة، حتى قيّض الله للإنسان الرحمة، فبعث إليه بالأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، وليضيئوا له طرق الحياة، وليجعل العلاقات البشرية مرتكزة على أسس تليق بالإنسان الذي كرمه من بين خلقه، وجعله خليفته في أرضه.

والأنبياء الذين بعثهم الله على فترات من الزمن نوعان : أنبياء بلا رسالات، وأنبياء برسالات، ثم تجلت حكمته فأنزل التوراة على موسى، وأعقب بالإنجيل على عيسى، وأخيرا ختم بالقرآن على محمد، عليه وعلى كافة الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام.

ومن المقرر عند الجمهور أن عدد الرسل والأنبياء غير محصور، وليس من الممكن - بل من غير المعقول - أن يحاول بشر حصره، ولكن القرآن الكريم أورد عددا منهم في مواطن مختلفة من سوره وآياته، تبعا للمناسبات المتنوعة. ومع هذا فإنه أغفل ذكر الكثير منهم، وما ذلك إلا لأن القرآن ليس كتابا تاريخيا، أما ما ورد فيه من إشارات تمس الجانب التاريخي فإنما مرد ذلك للعظة والاعتبار، لا سيما من تلك الإشارات ما ورد خاصا بأحد الأنبياء والرسل، وفي القرآن نفسه ما يؤيد هذه النظرية :

﴿فاصبر، إن وعد الله حق، فإما نرينك بعض الذي نعدهم، أو نتوفينك، فإلينا يرجعون. ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق، وخسر هنالك المبطلون﴾ (1).

ومهما يكن من ملاحظة على تعدد الأنبياء والمرسلين، وتعدد أقوامهم الذين أرسلوا إليهم، فإن جوهر الرسالات في جملتها واحد، وهو أن طريقها طريق الحق سبحانه وتعالى.

---

1) غافر : 77 - 78.

وقد أبرز القرآن الكريم هذا الجوهر في أكثر من آية منه ﴿...**إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون**﴾ (2).

- ﴿...**يأيها الرسل كلوا من الطيبات، واعملوا صالحا، إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون**﴾ (3).

ومعنى أنهم «أمة واحدة» أنهم جاءوا نحو طريق واحد، وهو طريق الله، وهذا ما يفسر ختام الآية مرة بالأمر بالعبادة، ومرة أخرى بالأمر بالتقوى، واللفظتان بمعنى واحد وإن اختلفتا شكلا...

فأمة الأنبياء أمة واحدة، تدين بعقيدة واحدة، وتتخذ سبيلا واحدا، وهو سبيل الله وحده لا شريك له، فهي أمة واحدة على الأرض، ورب واحد لا معبود سواه.

ويعلق الأستاذ سيد قطب على الآية الثانية قائلا :

«... وعندما يصل إلى هذه الحلقة من سلسلة الرسالات يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل، وكأنما هم متجمعون في صعيد واحد، في وقت واحد. فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التي تربط بينهم جميعا».

«إنه نداء للرسل، ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون، ونداء لهم ليصلحوا في هذه الأرض. وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته، وإنما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه، إلى أفقها الكريم الوضيء الذي أراده الله لها، وجعل الأنبياء روّادا لهذا الأفق، ومثلا أعلى».

«وتتلاشى آماد الزمان وأبعاد المكان أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسول، ووحدة الطبيعة التي تميزهم، ووحدة الخالق الذي أرسلهم، ووحدة الاتجاه الذي يتجهونه أجمعين ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون**﴾» (4).

وعلى هذا الأساس نرى أن أهداف الرسل واحدة، لتصل في النهاية إلى العمل على صلة الإنسان بربه، صلة تتحقق بها كرامة بني آدم، وقد تحقق له هذا التكريم منذ أن استخلفه الله في الأرض ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض...**﴾ الآية، ولتحول الرسل بين الشيطان وبين أهدافه في الوصول إلى هذا الإنسان في لحظات ضعفه، ليصير إلى عبودية غير الله، وهي بطبيعة الحال عبودية تنال من كرامته، وتحط من شرفه.

فهكذا أرسل الله رسله جميعا مبشرين ومنذرين «يرشدون العقل إلى معرفة الله، وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبيّنون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة. يجمعون كلمة الخلق على إله واحد، ويبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم، يصنعون لهم بأمر الله حدودا عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم» (5).

تدرج الرسالات :

من المعلوم أن الرسل كانوا كثيرين في عهود الإنسانية الأولى، ولكن أعدادهم بدأت تتقلص مع تقدم الإنسان عمرا على هذه البسيطة، وفي ذلك ما يدل على أن الإنسانية في طفولتها كانت في أمس حاجة إلى الإرشاد والتوجيه من طرف هؤلاء الأنبياء، وأنها كلما اقتربت من النضج ضعفت حاجتها إليهم، واستمرت مسيرة الرسل على هذا المنوال حتى أشرقت رسالة محمد ﷺ، وحيث كانت الإنسانية قد بلغت درجة من النضج يمكنها معها الاعتماد في سيرها على ما بشّرها به من كتاب «لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»، فكان بهذا دينا إنسانيا عالميا، وقد أخبر الرسول نفسه بذلك

---

2) الأنبياء : 21.

3) المؤمنون : 23.

4) سيد قطب «في ظلال القرآن» المجلد الرابع، حـ 18/12، ص : 2395 ـ 2396.

5) السعادة الأبدية في الشرائع الإسلامية (ط : 4 ـ بيروت) ص : 101 ـ 103.

«...وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».

حقا، لقد كانت الإنسانية في بداية عهدها بالحياة على وجه الأرض تشعر بالضعف، ولهذا الضعف ـ الذي كانت عليه الإنسانية في مراحلها الأولى ـ فقد كثر مبعوثو السماء إليهم، فكان لا يكاد يخلو مجتمع حينذاك من رسول، ولا تعيش قرية من غير نبي..؛ وذلك لأن الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية والعناية في طور طفولته، وهو في هذا الدور من حياته إن لم يجد من يرعاه ويقوم على توجيهه هلك، أو بات في معرض الهلاك، وكذلك الإنسانية في طفولتها تكون غيرها حين تشب وترشد،، (6).

ومهما كان من تباعد المسافات في تلك العهود السالفة، وما كان من قلة وسائل الاتصال وضعفها بين هذه المجتمعات بعضها وبعض،.. فإن هذا الفارق بين مجتمع وآخر وبين نبي وآخر لم يكن له أدنى تأثير في جوهر الرسالات في مجموعها، فقد كانت الأهداف مشتركة، واللغة في مفهومها واحدة، وذلك لأنها كلها قد نبعت من معين واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

موقف البشر من أنبيائهم :

أما كيف كانت الاستجابة من بني البشر لهؤلاء الأنبياء والمرسلين، فذلك يختلف بين فريق من الناس وفريق آخر، في ذات الوقت، ونحو النبي الواحد، تبعا لنواميس الطبيعة البشرية في الهداية والتوفيق أو عدم ذلك، وعليه فنجد أن الكفار ينتحلون لأنفسهم وللناس أعذارا شتى، يبررون بها رفضهم للرسول ورسالته، بل منهم من يؤلبون الناس عليه، ويصدونهم عن السبيل القويم.

وعندما تنجح دعوة رسول من الرسل نلاحظ أنها قامت في البداية على سواعد المستضعفين من الناس، أولئك الذين كانوا يقاسون من إرهاق القائمين على أمورهم، بيد أن سادتهم يتخذون من إيمان هؤلاء المستضعفين ذريعة للهجوم على الرسالة والرسول :

﴿كذبت قوم نوح المرسلين، إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون، قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون !!؟﴾ (7).

ـ **﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه : إني لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرا مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين﴾** (8).

الرسول إنسان :

لقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يرسل إلى بني البشر رسولا منهم، يمارس من شئون الحياة ما يمارسون، ويخضع كمثلهم لنواميس الطبيعة البشرية، فقد يكون الرسول أو النبي غنيا، وقد يكون فقيرا، كما يمكن أن يكون ذا صناعة أو زراعة أو تجارة، كما يجوز أن يكون مرموقا مشهورا بين القوم، أو عاديا مغمورا.

وعليه فكون النبي أو الرسول بشرا أمر طبيعي، بل لابد أن يكون كذلك، لأنه مرسل إلى بشر، وبالتالي فلا يمكن إلا أن يكون مثلهم؛ حيث يترجم أقواله وتعاليمه إلى أفعال تبرز في تصرفاته، فيسترشد القوم بما يأتي من سلوك بشري، يتمثل في فعل المأمورات، واجتناب المنهيات، وهكذا تكون بشرية الرسول أمرا منطقيا، وغير هذا يكون قلبا للأوضاع، ومنافاة لمنطق الأمور.

بيد أن الكفار قد جبلوا على قلب الحقائق، تراهم يقلبون الحق باطلا، والباطل حقا. وعليه فبدلا من أن تكون بشرية الأنبياء والرسل شيئا طبيعيا بادىء ذي بدء،

---

6) عبد الكريم الخطيب في «الله ذاتا وموضوعا، وقضية الألوهية بين الفلسفة والدين» ص : 91 (ط : 2 عام 1971 م).

7) الشعراء : 105 ـ 111.

8) هود :27.

ومنطلق قوة تدفع بهم إلى تصديق أولئك الأنبياء، بدلا من هذا... نراهم يتخذون من بشرية المرسلين نقطة ضعف تغريهم بتكذيبهم، والصدّ عن طريق الله الذي يدعون إليه.

إن القرآن الكريم يحكي لنا هذه المواقف المتناقضة من الكفار على مدى الدهور، وما كانوا يأتونه من أفعال وأقوال تنبيء عن غيبة العقل، كاتخاذ آلهة من صنع أيديهم، يعبدونها من دون الله، وينسبون إليها كل خير أو شر يصيبهم، بل ويلتمسون عندها الخير والبركة وصلاح الحال، إلى وصفهم نجاح الرسل بأن المستضعفين من الناس هم الذين وقفوا إلى جانبهم في دعوتهم، إلى إنكارهم كون الأنبياء بشرا مثلهم، إلى غير ذلك من الترهات والتخيلات التي لا تستند إلى منطق أو واقع سليم.

وها هي الآيات من سورة الفرقان، كاستشهاد على تلك المواقف الشاذة من أولئك الكفار المعاندين :

﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيرا. الذي له ملك السموات والأرض، ولم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديرا. واتخذوا من دونه آلهة، لايخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا. وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، إنه كان غفورا رحيما. وقالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق !!؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. أنظر، كيف ضربوا لك الأمثال !! فضلوا، فلا يستطيعون سبيلا**﴾ (9).

ولا تترك سورة الفرقان قضية بشرية الأنبياء والمرسلين دون تأكيد بعد ذلك، مشيرة إلى أنهم جميعا كانوا كذلك، يمارسون ما يمارسه البشر في كافة مجالات الحياة والمعايشة ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا**﴾ (10).

ونلاحظ أن هذه السورة كأنما سميت بهذا الإسم لتقطع على الكافرين سبل التشبث بأمور تخالف الطبيعة وتناوىء المنطق. فهي بذلك «تفرق» بين الحق والباطل، وتحسم هذه القضية بما لا يدع مجالا لضال أو مضل.

وبهذه المناسبة نذكر أن «الفرقان» اسم من أسماء القرآن البارزة المبنى والمعنى، فقد سمي بذلك لجمعه بين دفتيه ما «يفرق» بين الحق والباطل، وما يضمن للبشرية جمعاء سعادتها الدنيوية والأخروية، فالقرآن فرقان «بما فيه من «فارق» بين الحق والباطل والهدى والضلال، بل بما فيه من «تفرقة» بين نهج في الحياة ونهج، وبين عهد للبشرية وعهد. فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها، في صورتها المستقرة في الضمير، وصورتها المتمثلة في الواقع، منهجا لا يختلط بأي منهج آخر مما عرفته البشرية قبله، ويمثل عهدا جديدا للبشرية في مشاعرها وفي واقعها، لا يختلط كذلك بكل ما كان قبله. فهو «فرقان» بهذا المعنى الواسع الكبير، فرقان ينتهي به عهد الطفولة، ويبدأ به عهد الرشد، وينتهي به عهد الخوارق المادية، ويبدأ به عهد المنجزات العقلية، وينتهي به عهد الرسالات المحلية الموقوتة، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة» (11).

(يتبع)

د. محمد كمال شبانه

---

9) الفرقان : 1 ـ 9.

10) الفرقان : 20.

11) سيد قطب «في ظلال القرآن» المجلد الخامس (جـ 19 ـ 25) ط : 4 ص : 2547.

هل أصبح الفكر الغربي على طريق الإسلام اليوم؟

للأستاذ أنور الجندي

(2)

دخل موريس بوكاي ساحة الإسلام عن طريق العلوم التجريبية، فقد وجد أن القرآن، قبل أربعة عشر قرنا حسم الرأي بالنسبة لحقائق علمية لم يكن للبشر في هذا التاريخ أن يعلم عنها شيئا حتى جاء العلم فكشف عنها فدلَّ ذلك على أنه وحي من الله تبارك وتعالى؛ أما (روجيه جارودي) فإن تجربته تختلف، فقد دخل الإسلام عن طريق معطيات الحضارة الإسلامية للإنسانية : العدل الاجتماعي والرحمة والإخاء البشري، وهو ما تفتقده الحضارة الغربية المعاصرة، فهل يستطيع الإسلام أن يعطي هذا الضياء للغرب، ربما هذا هو المنطلق الذي انطلق منه جارودي عندما ألف أول كتاب له يعترف فيه بفضل الحضارة الإسلامية ويطلب الحوار معها (حوار الحضارات)، فهو من هذا المنطلق يرى عطاء الإسلام بعد أن فقد أمله في اشتراكية إنسانية حين ترك الحزب الشيوعي الفرنسي منذ سنوات.

ولا ريب أن ما يطوف في ذهن هؤلاء المثقفين الأوربيين من فساد الحضارة الغربية وإيمانهم بأنها حرمت القدرة على العطاء بعد أن التمسوا لها مناهج الشرق والغرب هو الذي دفعهم أخيرا إلى التفكير في الإسلام على النحو الذي تطلع إليه برنارد شو وغيره، ممن ظنوا أنه يمكن تطعيم الحضارة الغربية بنتاج الحضارة الإسلامية، وكان «توينبي» يرى أن تحريم الخمر والمساواة بين الألوان هما ما يمكن للحضارة الغربية أن تقتطفه من الإسلام، وهي نظرة ضيقة جدا حين ظن أنه يمكن إقامة الدين الرباعي من المسيحية والإسلام والبوذية والهندوكية، ولقد اثبتت الأيام للمفكرين الغربيين سذاجة هذه النظرة وعجزها عن العطاء وتساقط النظرة الأخلاقية القائمة وراء بعض الأديان الوضعية المنفصلة عن التوحيد، وكذلك تداعت منظومة المسيحية واليهودية بعد أن تكشفت فكرة بشرية الرسائل المقدسة وكانت مطروحات بوكاي بأن القرآن هو وحده العطاء الرباني الأصيل بالوحي. إنه توصل إلى ذلك عن طريق معطياته التي قدمها قبل أربعة عشر قرنا وأقرها العلم الحديث اليوم، فقضية (روجيه جارودي) هي مع الحضارة الحديثة، فهو ينتقدها وينتقد ما أفرزته من نظم سياسية واجتماعية وفلسفية، ويرى أن هذه المدنية قد قامت على فتات موائد الحضارات الأخرى التقطها لصوص التاريخ في غفلة من أعين الشرق موطن التراث الحضاري الذي يدعي الغرب الانتماء إليه، وعنده أن العلوم في الغرب قد ابتعدت عن هدفها الأول المتمثل في خدمة الإنسانية والسعي إلى خلاصها، وهو يتهم تلك العلوم بأنها قد تحولت إلى سلطة قائمة بذاتها خارجة عن أي رغبة وتوق إنساني في السعي نحو الأفضل، وما القلق والفوضى والإحساس بالعبث والفراغ سوى نتائج أولية للصراع القائم بين السلطة

القامعة، التي أفرزتها تلك العلوم، وبين الإنسان، بعد أن تمحورت تلك العلوم والتقنيات حول ضمنية الإله في هدف السيطرة على الإنسان والطبيعة معا، وفي الوقت نفسه كانت العلوم الإنسانية ولم تزل تهدف في الدرجة الأولى إلى خدمة الإنسان.

لذلك امتزجت تلك العلوم بالحكمة واتسمت برحابة الأفق الروحي، وتخدرت في بعد غيبي يقي الإنسان من الوقوع في العبث والفراغ، وأي علم خال من الحكمة هو في النهاية خال من أي مقومات أساسية لتقدم الإنسان. وهكذا بعد أن كانت أوربا في القرون الوسطى (متوحشة جاهلة أصبحت الآن «متوحشة عارفة»)، على هذا النحو يصور جارودي موقف الغرب من الحضارة، وهو في نفس الوقت يدافع عن (التنظيم الإسلامي) ويرى فيه خلاصا للإنسانية من تعسف السلطة السياسية ويقول إن الزكاة هي أول نوع من أنواع الضريبة المجباة في سبيل خدمة المجتمع وطريقة جبايتها وتوزيعها على الخدمات العامة هي الطريقة المثلى ولا يضاهيها في ذلك أي نظام ضريبي حديث.

ويدعو جارودي إلى فتح حوار بناء وإيجابي مع الحضارة الإسلامية وإلى إلغاء قرون من العداء والحقد والكراهية لهذه الحضارة التي أثرتْ وما تزال تؤثر في الفلسفة والاجتماع والتنظيم السياسي، ويرى جارودي أن الحملات الصليبية كانت نتيجة للصورة المشوهة عن الإسلام والمتواجدة في أذهان أجيال وأجيال من الغربيين، ويدعو في كتبه الثلاثة «حوار الحضارات»، «نداء إلى الأحياء» و«وعود الإسلام» إلى عقد مصالحة بين الحضارة الغربية والفكر الإسلامي تبدأ بإعادة فهم هادئ ورزين لمعطيات الحضارة الإسلامية.

ويرى الدكتور عبد الحليم الكناني أن جارودي قد كشف في كتبه جملة حقائق هامة **(الأولى :** أن الحضارة الغربية شرقية كانت أم افرنجية، أوربية كانت أم أمريكية لم تنجح حتى الآن في وقف الحروب ورد الطغيان وتحرير الشعوب وإطعام مئات الملايين من الجوعى وإيواء الملايين من المشردين من أوطانهم وتعليم أكثر من ربع البشرية القراءة والكتابة، ولم توفق حتى الآن إلى حماية الإنسان من أخيه الإنسان وصيانة الكرامة الآدمية والحفاظ على القيم الدينية والروحية والأخلاقية والجمالية التي تعطي الحياة معناها الحقيقي وبهجتها وقوتها الخلاقة.

(الثاني) : الإعجاب بالإسلام لاهتمامه بأمور الدنيا والآخرة معا وأنه يشرك في بناء المجتمع البشري القوى الروحية والأخلاقية وتقوى الله إلى جانب اهتمامه بالحياة الطيبة وبناء المدن والاستمتاع بكل آثار المدنية والنعم واللذات عدا المحرمة.

وقد وجد (جارودي) في الإسلام نظاما اجتماعيا، اقتصاديا، روحيا، أخلاقيا يصلح لإخراج «البشرية» من ورطتها الحاضرة ويدل الناس على نمط جديد من الحياة والتنظيم تعين على معالجة المشكلات البشرية الحاضرة وتنجيها من البؤس واليأس والهلاك قبل فوات الأوان - يقول : «يملك الإسلام اليوم قوتين : قوة روحية توجه حياة (ألف مليون مسلم) ويملك في الوقت نفسه، أكثر ثروات العالم المالية والمعدنية، ولن يطول الجمع بين هاتين القوتين أكثر من عشرين أو ثلاثين عاما قد تتضاءل بعدها الثروة المعدنية كالبترول وغيره، ولذلك فإن الإسلام مدعو الآن لتحمل مسئوليته تجاه المجتمع البشري والسير بالإنسان في طريق جديدة إلى آفاق جديدة. ويرى جارودي أن الإسلام هو اليوم أصلح النظم العالمية الكبرى لتحقيق هذه النظرية السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، ومن خصائص هذه النظرية **(التوفيق بين الإيمان والعلم)** والإسلام أقدر الأديان على هذا التوفيق لأنه لا يقيم حاجزا بين العبد وربه وبين الإيمان وبين الله ولا يقيم حجابا بين الإيمان والمجتمع.

وفي تقرير ثالث عن كتاب «وعود الإسلام» (Promesses Of Lislam) للأستاذ صلاح الدين المستاوي يرى أن سر فساد المجتمعات الغربية الحاضرة هو : 1) صراع الطبقات المتحكم في العلاقات الاجتماعية. 2) اتخاذ التفسير المادي سببا لنشأة الحياة والكون.

ويرى أن الحضارة الغربية تعيش في مأزق وقد تردت في هذا الخطر من جراء «ماديتها» ومن جراء «انشطارها» ورؤيتها الجزئية للإنسان وللكون وللطبيعة. إنه لا ينكر التقدم العلمي الحديث والتقنية المتطورة ولكن

هذا التقدم لم يكن محققا لسعادة الإنسان، بل إنه سبب شقائه اليوم، ويورد احصاءات وأرقام مزعجة عن القفزة التي حققها الإنسان في مجال الخراب والدمار، والحل هو ضرورة الحوار بين الحضارات ويرى أن الحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة وأن الجدل العميق لم يعد اليوم بين رأسمالية غربية واشتراكية سوفيتية، فكل منهما يمثل نفس الغاية والأهداف مادام يتخذان الاستغلال والاحتكار والتنافس الذي لا يعرف التوقف على الأسواق والموارد الأولية والمواقع الاستراتيجية منهجا وسبيلا، ويرى أن الجدل الحقيقي اليوم هو بين (النمط الغربي للعيش) بشكليه الرأسمالي والاشتراكي ونظام جديد يتلافى السلبيات التي وقع ارتكابها في الماضي.

ولا يرى جارودي بديلا لهذا الاضطراب في الكتلتين بل في العالم كله ولا يرى منقذا إلا الإسلام.

وقد تطورت نظرة جارودي إلى الإسلام في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : في التفات جارودي إلى الإسلام ممثلة في النظر إلى عطائه في مجالات العلم والمعرفة في بغداد والقيروان وفاس وقرطبة وبرز ذلك في كتابه (حوار الحضارات) بصفة خاصة.

المرحلة الثانية : التفاته إلى القيم الروحية والحضارات الإنسانية في برنامجه الذي قدمه للشعب الفرنسي بمناسبة انتخابات الرئاسة والذي دعا فيه إلى التغيير، حيث حذر الفرنسيين، والغرب بصفة خاصة، من طغيان الاستهلاك والمادية وانخرام التوازن الاجتماعي ونبه إلى الخطر الذي يتربص بالبشرية من جراء التسابق في مجال الأسلحة النووية والجرثومية وما ينفق في سبيلها من أموال، وما ترصد لها من ميزانيات كبرى.

المرحلة الثالثة : قدّم مشروعا أورد فيه تجارب إنسانية وحضارية في أرجاء مختلفة من المعمورة في فترات متفاوتة ودعا شعوب الإسلام إلى التوجه نحو دينها وقيمها وبرز ذلك واضحا في العقود والسنوات الأخيرة في البرامج السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعدد من البلدان الإسلامية.

ولا ريب أن (الصحوة الإسلامية) قد اعطت جارودي ضوءا كاشفا على الطريق الذي سار عليه أول الأمر في حذر فاندفع بقوة حتى إنه أطلق على كتابه الجديد الذي لم تُعرف محتوياته بعد : «الإسلام هو مستقبلنا».

وجارودي الآن في موقف الإنصاف، فهو يكشف زيف النظامين ويراهما استعماريين متوحشين، ويدين تصرفاتهما وتجاوزاتهما، ويذكر بما للإسلام على الغرب من أيد، فالإسلام هو الذي غذى فنونه وفلسفته وعلومه وتقنيته وقوانينه وآدابه، وفي نقاط كثيرة كان الشرق، ولمدة طويلة، متقدما على أوربا.

إنه يرى أن الأشد وحشية ليس أولئك الذين أوقف شارل مارشل زحفهم، إن هذا الاكتشاف للغير، هذا الاعتراف المتبادل وبصفة مستعجلة بالنسبة للإسلام هو أمر ضروري اليوم، فإنه هو الذي يستطيع أن ينقذ الغرب من أزمته، إن حوارا حقيقيا يمكن أن يجري بين الحضارات، ويرى جارودي أنه يمكن للحضارة الغربية أن تأخذ وتعدل نفسها وذلك باكتشاف ماهو حي في الثقافات غير الغربية، إن جارودي يقوم إزاء قومه وأبناء حضارته بمهمة تزيح عن أعين وعقول قومه الحزازات والخلفيات والمركبات التي تحكمت في مواقفهم فجعلتهم منغلقين عن سواهم من الشعوب والحضارات الأخرى.

وليس من شك أن لنا وقفة إزاء هذه الفكرة التي تبناها جارودي في السنوات الماضية والتي نرجو أن يكون دخوله في الإسلام عاملا في تغيير وجهة نظره إليها أو إلى الأساليب الموصلة إليها فالحقيقة التي يعرفها جارودي الآن وهو من المسلمين، أن الإسلام منهج مستقل له ذاتيته الخاصة، وطبيعته المتفردة، وأن الأخذ منه ممكن ولكنه لا يكون الإسلام، وأن الحضارة الغربية غدت في انحرافها منطقة القدرة على تعديل مسارها بمفاهيم الإسلام فقد بلغت في انحرافها حدا كبيرا لا يصلح معه أي تطعيم وهي تتطلع عن طريق الغربيين إلى تحقيق أهوائها بتبرير أوضاعها المنحرفة، ولكن الإسلام لن يكون يوما مبررا لفساد الحضارات ولا خادما لإيديولوجيات الشعوب وهو وإن التقى مع الديمقراطية في بعض ظواهر (الشورى) أو مع الاشتراكية في بعض مظاهر (العدل الاجتماعي) فإنه يختلف عنهما تماما لأنه منهج منفرد رباني المصدر، قائم على التكامل الجامع بين الروح والمادة، والدنيا والآخرة،

ولذلك فإن حوار الحضارات لا يكون إلا بأن يتخلى الغرب عن سيطرته حتى تستطيع شعوب الإسلام أن تمتلك إرادتها وتطبق منهج الله وتقيم منهجه على الأرض، وعندئذ يمكن أن يتم الحوار بين إرادتين، أما اليوم فإن هناك محاولات للسيطرة والاحتواء من القوى الكبرى تحاول أن تؤخر نهضة الإسلام أو تدمر يقظة أو تفسد انطلاقة. إن الإسلام يستطيع أن يعطي الكثير للمجتمعات المتطلعة إلى التماسه منهجا لها، وإلى الأمم التي ترى أنه لا يوجد منقذا للبشرية غيره، ولعل الأستاذ جارودي يبذل جهدا في هذا الاتجاه.

ولا ريب أن هذه الحقائق الثلاث التي قدمها هي منطلق صحيح وطيب لخطواته القادمة وهي قوله :

1) إن الله هو المالك الوحيد.
2) إن الله هو المشرع الوحيد.
3) إن الله هو الحاكم الوحيد.

ففي النقطة الأولى تحدث عن الاقتصاد الإسلامي وركز على مبدأ الاستخلاف الإلهي للإنسان، وبيّن كيف أن المؤمنين كانوا يتجردون مما يملكون تقربا إلى الله وأن الزكاة أحد أركان الإسلام والاقتصاد.

2) وفي النقطة الثانية يقول : اختصاص الله بالتشريع في المجتمع الإسلامي كان مصدرا لإنسانية التشريع الإسلامي ومرونته وصلاحيته لكل الأزمان والأماكن ومن هذا المنطلق أزاح ما أشاعه، بهتانا، خصوم الإسلام من ادعائهم قسوة أحكامه خصوصا في نظرته إلى المرأة

3) وفي النقطة الثالثة يقول : حاول استقصاء أصالة النظرية الإسلامية السياسية وارتكازها على الشورى وتحدث عن ثراء وعطاء الحضارة الإسلامية في مجالات العلم والمعرفة المختلفة والازدهار الكبير الذي حدث للمسلمين في كل بلد حلوا به، وعدد أسماء أعلام مسلمين أثروا في مسيرة الحضارة الإنسانية في الطب والفلك والعلوم في وقت كانت فيه أوربا في ظلام دامس وليل طويل.

وبالجملة، فإن جارودي رد اعتبار الحضارة الإسلامية أولا، ثم رد اعتبار المنهج الإسلامي أخيرا، وهو كسب كبير للإسلام، ونحن نعتبره هو وبوكاي مقدمة لخير كثير في محيط المثقفين الغربيين، فهذه ظاهرة جديدة طيبة بعد مرحلة طويلة من كتابات الإنصاف للإسلام من مفكرين غربيين ظلوا محتفظين بعقيدتهم، ولعل عباراته التي ختم بها كتابه (وعود الإسلام) توحي بالوجهة الجديدة حيث يقول :

«إن الإسلام الذي يمثل قوة حية ليس فقط في ماضيه ولكن في كل ما يمكن أن يبتكره ويقدمه في الحاضر والمستقبل. الإسلام الذي ظل قرونا طويلة مكروها غير مرغوب فيه من طرف الغربيين من جراء آثار الحروب الصليبية. إن المسألة مسألة مستقبل. مستقبلنا جميعا».

هذا ونقول للأخوين المسلمين «بوكاي وجارودي» : مرحبا بكما في ساحة لا إله إلا الله.

... ومات داود

للشاعر الأستاذ محمد الحلوي

رزئ المغرب في علم من أعلامه ورائد من صفوة رواده الأستاذ الفقيد محمد داوود وكان فقده خسارة للفكر وفاجعة للوطن، فإليه من خلال هذه القوافي صلواتي وتحياتي.

أكـذا تـذبـل الريـاض وتغفـو
أعين فـارقت لـذيـذ الرقـاد ؟
ويغيب الرعيـل والليـل داج
وتـولي عنـا نجـوم البـلاد ؟
أي نفس تلقى الرزايـا كنفسي
وفـؤاد ممتزف كفـؤادي ؟
كلما مزقت يـدي ثـوب حزن
نجت لي الأيـام ثـوب حـداد !
لم تعـد أعيني ترى ومض نـور
أو بيـاضا إلا خـلال سـواد !
مـا بكانـا على الأحبـة والبـا
كـون من خلفهم على ميعـاد !
ودعـوهم وهم بكاة وعـادوا
بعـد تـوديعهم بـلا أكبـاد

يسكــون القلــوب خشيـــة أن تهــوي

وفيضـــــا من دمعهم كالفـــــوادي

☆ ☆ ☆

ليس بين الحيـــــاة والمـــوت إلا

غفــوة ليس بعـــدهـــا من سهـــاد

مـــا ارانـــا إلا طرائـــد للمــو

ت خلقنـــا لأسهم الصيـــاد

وقطيعـــا يتيـــه في دربـــه الموحش

بـــادي العنـــاء والإجهـــاد

يـــذهب الرائـــد الأمين على الركب

ويمضي رفـــاقـــه والحـــادي

مـــا بكانـــا إلا صـــدى من بكـوا قبـل

وولى مفـــديهم والفـــادي

ومراث تصـــاغ بعـــد مراث

ودواوين في الكـــلام المعـــاد

والحيـــاة التي نعيشهـــا مـــأتم

بـــاك بـــلا شـــاعر ولا إنشـــاد !

☆ ☆ ☆

أي عيش يحلـــو إذا خلت الـــدار

وأغفى سمارهـــا في النـــادي ؟

وتـــوارت عن أفقنـــا أنجم

كانت منـــارا في حـــالكات العـــوادي

مـوت داوود رجـــة بعـــد رجـــات

أطـــاحت بصـــانعي الأمجـــاد

أوهن القلب نعيـــه يـــوم نـــادى

- غير واع - بمن نعـــاه المنـــادي

شيعت نعشـــه الفضيلـــة والنبـ

ـــل ومـــاض معطر الأبراد

عـــانق العلم وهـــو في ميعـــة العمر

بقلب إلى المعـــارف صـــادي

ترك الحب للغـــواة وألهـــاه هـ

ـــوى العلم عن هـــوى شهر زاد !

واغتنى بـــالكتـــاب عن كل حب

فـــانـزوى بين كتبـــه والمـــداد

ورأى الجهـل حـولـــه أربــد الــوجـ
ـــه يغـل العقـول بـــالأصفـــاد

فتحـــــــداه غير وان بعـــــــزم
لا يبــــالي مثبطـــات الأعـــادي

وإذا ســـادت الجهـــالـــة شعبـــا
صرفت أمره يـــــد الأوغـــــاد

واستطـــاب الحيـــاة في ظلهـــا
الـــوارف بين الفســـاد والافســـاد !

ومشى كـــالأسير يرسف في القيـــــد
ويجثـــو لهيبـــة الجـــلاد !

☆ ☆ ☆

كان داوود مشعـــــلا ومنـــــارا
في مســـار يضـل فيــه الهـــادي

مـــوقن القلب أن كل انتفـــاض
لم يـــدعم بـــالعلم شبــه رمـــاد

لم يقـــده تنـــافس لعـــداء
في حيـــاة لم تخـــل من أضـــداد !

ألف الظـــل في جهـــاد مـــع النفس
أديبـــا في خلـــوة العبـــاد

واصل البـــذل في تـــواضع أخـــلاق
وصمت وفي حيـــــاء بـــــادي

وسجـــايـــا النفـــوس كالعطر في الـــز
هرة تنمـــو من لحظـــة الميـــلاد

إن يكن داؤه العضـــــال قضـــاء
فـــابتـــلاء الأرواح في الأجســـاد

وربيـــع الحيـــاة يفتر من بعـــد
ذبـــول الأوراق في الأعـــواد

☆ ☆ ☆

قـــد جـلا عن تطـوان مـــا حجب التـ
ـــاريخ عنهـــا من عـــزة الأجـــداد

أسفرت كالغـــزالـــة عن مـــاض
وضيء الرؤى رفيـــــــــع العماد

وتهـــادت حسنـــاء تنفض عنهـــا
مـــا اعتـلاهـــا من قـــوة الآبـــاد

كان بـــــارا بهــــا، وكم شقيت
أم وعــــــــانت تنكر الأولاد !

وعقــوق الأبنـــاء أصبح مــألـوفـــا
ودينـــا في عـــالم الإلحـــاد !

☆☆☆

جمعتني بـــه مجـــالس فكر وأحـــا
ديث في ريـــــاض الضــــاد

فـــــإذا بي أمـــــام قلب كبير
وسجـــايـــا أصيلـــة الإمـــداد

لم تكن غير خلســـــــة ثم ولت
وعيـون الأيـــام بـــالمرصـــاد !

مـــوتـــه لم تكن فجيعـــة تطـــوان
ولا كان بــــالأسى المعتـــاد

إنـــــه رزء أمــــــة ووداع
مستمر لمـــــوكب الـــــزواد

غير أن الأعمـــــال تبقى منـــ
ـــارات تضيء المســـار لـــلأحفـــاد

فعليـــــه من ربـــه رحمـــات
رايحـــات مـــع النسيم غـــوادي

تطوان ـ محمد الحلوي



إعادة الاعتبار لجاليليو

● بقلم : فريدريك غولدن

● ترجمة : الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

لم يجلب حادث في تاريخ العلاقات، العاصفة غالبا، بين العلم والدين (المسيحي) من المتاعب، مثل شَجْبِ الكنيسة الكاثوليكية (الجاليلو جاليلي). ففي سنة 1633 م حوكم العالم الإيطالي الشهير وهو في التاسعة والستين، من طرف (محكمة التفتيش) بتهمة خرق مرسوم الكنيسة ضد اعتناق نظرية (كوبيرنيكوس) المختلَف فيها، والقائلة بأن الشمس، وليس الأرض، هي مركز الكون. ومن جراء ذلك عاش (جاليليو) السنوات التسع الأخيرة من حياته سجين منزله.

وفي عصر كان الملحدون فيه يُحرقون على الأعمدة، فقد عومل (جاليليو) برفق نسبيا. ورغم ذلك فقد أصبح يُعرف كشهيد العلم الذي أهين من طرف رجال كنيسة متخلفين. ورغم بعض الثناء الذي أصبغه على (جاليليو) بعضُ قادة الكنيسة المتأخرين، بمن فيهم عدد من البابوات، فإن إدانته بقيت لطخة في العلاقات بين (الفاتيكان) - وربما جميع السلطات الدينية - وبين العلماء.

وقد صار هذا الانقسام مصدر اهتمام خاص بالنسبة للبابا (يوحنا بولس الثاني). ففي تصريحاته العامة، ابتداء من خطاب (للمجمع البابوي للعلوم) سنة 1979، قال بأنه ليس هناك خلافاتٌ لا تُجْبَر بين العلم والإيمان. وكَرَمْزٍ للمجاملة، جعل رد الاعتبار إلى (جاليليو) هدفا هاما. وفي سنة 1980 عيَّن (يوحنا بولس الثاني) لجنة من العلماء والمؤرخين واللاهوتيين لإعادة البحث في الأدلة والحكم (الصادر ضد جاليليو).

وقد أعلنت اللجنة منذئذ نتيجة عملها. ففي مجموعة مقالات صدرت بالإيطالية والفرنسية بعنوان : (جاليليو جاليلي : 350 سنة من التاريخ)، يعترف تسعة أساتذة كاثوليكيين، واحدٌ منهم أميريكي، بأن الكنيسة كانت مخطئةً في اسكات (جاليليو).

ويكتب رئيس الأساقفة (پول پوپارد) رئيس (المجلس البابوي للثقافة) ورئيس تحرير المجموعة : «إن القضاة الذين أدانوا (جاليليو) أخطأوا».

ويضيف كتاب المقالات أن ادانته كانت نوعا من الانحراف حسب مقاييس الكنيسة نفسها. ويشيرون إلى أن موقف الكنيسة من العلم حينئذ لم تكن متخلفة بالشكل الذي نتصوره اليوم أحيانا. بل حتى في القرن الثالث عشر، حسب العالم الفيزيائي الفرنسي (جورج بين George Bene)

1) مجلة تايم (12) مارس 1984.

حذر علماء اللاهوت، مثل (طوماس أكويناس Thomas Aquinas) من خطر التأويل الحرفي للإنجيل.

إلا أن (جاليليو) كان يبدو أنه يجر المصاعب على نفسه. فكشوفه من خلال المنظار المقرب، الذي كان حديث الاكتشاف، لجبال القمر، ودوائر الزهرة، وأقمار المشتري ـ جعلته معروفا عبر أوروبا. ولكنه كان بطلا ذا عيوب، فقد كان فظا، ومتغطرسا، ومغرورا، وقد ادّعى اكتشافات ليست له : مثل اكتشاف بُقَع الشمس التي كان قد رآها غيره من مراقبي القرن السابع عشر. وكان يكتب بأسلوب مزخرف باللهجة الإيطالية الشعبية، محتقراً بذلك اللغة اللاتينية المدرسية، ليصل إلى جمهور أوسع. وبين الذين لذَعَهم قَلَمُهُ الفلكيون اليسوعيون. فبعض أعضاء طريقتهم كانوا يؤيدونه، إلا أنهم حين جاء وقت محاكمته، كان حماسهم له قد فتر، وهاجمه خلفاؤهم بعنف حين واجه «محكمة التفتيش».

وكان أولُ احتكاكٍ (لجاليليو) مع السلطات في 1616 م، حين جاءه تحذير من (روبيرت كاردينال بيلارمين)، كبير اللاهوتيين في ذلك العصر. نبّه (بيلارمين) (جاليليو) إلى أن نظرية (كوبيرنيكوس) عن الأفلاك ينبغي أن تُعامَل على أنها مجرَّدُ افتراض. وعمل (جاليليو) بتلك النصيحة بعض الوقت. ولكن حين أصبح صديق قديم له، وهو (مافيو كاردينال باربيرني Maffeo Cardinal Barbini) البابا (أوربان الثامن) سنة 1623 م، أحس (جاليليو) بالثقة الكافية لكتابة أكبر أعماله إثارةً للجدل، وجلباً للخراب عليه في النهاية، وهو (حوار حول النظامين العظيمين للعالم).

وناقش الكتابُ الذي كتبه في شكل حوار بين ثلاثة أشخاص خياليين، الفضائلَ النسبية للكون (الكوبيرنيكي) والنظام البطليموسي الأقدم القائل بأن الشمس والكواكب تدور حول الأرض. وكان واضحا أن (جاليليو) يتحيز للشخص الذي يدافع عن وجهة النظر الكوبيرنيكية، ويعامل معارضيه بازدراء. وجعل المدافع عن (بطليموس) يبدو ساذجا، لدرجة أنه أعطاه اسماً مشتقاً من السذاجة هو (سيمبليسيو). وعلى لسانه جاء بحججٍ كان يطرحها البابا (أوربان) ضد عالم (كوبيرنيكوس).

ولما تأكد البابا (أوربان) من أن (جاليليو) أعلن عن حماقته، أعطى الإشارة (للتفتيش) ضده. ورغم أن سجل المحاكمة أبعد ما يكون عن الوضوح، فإن (جاليليو) أدين بتهمتين، إحداهما، أنه تحدّى الأمر بعدم اعتبار النظام الكوبيرنيكي مجرد افتراض، والثانية : أنه باعتناقه تلك النظرية وقعت عليه «شبهة قوية بالهَرْطَقَة».

وكما لاحظ (البابا) جان پول ـ يوحنا پولس الثاني فإن القضية كونت في أذهان كثير من المتدينين شكوكا في إمكان وجود «انسجام بين العلم والإيمان، وبين الكنيسة والعالم». ولكن بإضافته أن الانسجام يمكن أن يوجد في الواقع، فإن البابا يعني أن الكنيسة الآن دفعت ثمنا مناسبا (لجاليليو) بقبولها دفاعه : «بأن الكتاب المقدس لا يحتوي حقائق علمية معينة، ولكنه يتكلم مجازيا عن بعض الأحداث مثل خلق حركة الشمس». وكما قال (جاليليو) مقتبسا كلام رجل دين في عصره : «إن مهمة الروح القدس هي تعليم الناس كيف يسيرون إلى السماء، وليس كيف تسير السماء». وذلك شعار يمكن أن يقبله أي فلكي معاصر، بل أي عالم من علماء القرن العشرين.

بقلم
فريديريك غولدن
رواه عنه : ويلتون وين
من (روما)

ترجمه عن الإنجليزية : أحمد عبد السلام البقالي

الطب الأندلسي بين هفوة الإهمال وغفوة النسيان

-4-

للدكتور عبد الله العمراني

مولد فنّ جديد

لا نريد أن نغادر هذا القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، دون أن نعرج على معلمة من معالمه الخالدة، وقع تجاهلها من بعض الباحثين، ونعني بها الطبيب النّطاسي، والجرّاح الماهر، أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي (324 ـ 403 هـ = 936 ـ 1014 م) مؤلف كتب عديدة في الطبّ، أهمها وأشهرها : (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذي يعتبر موسوعة طبيّة تقع في ثلاثين جزءا، آخرها خاصّ بالجراحة.

وقعت ترجمة هذا الكتاب إلى عدّة لغات منها البروفنصالية : Provençal واللاّتينية : ترجمه إليها الإيطاليّ جيراردو الكريموني Gerardo de Cremona كما ترجمه إلى اللغة العبريّة شم طب Semtob وكان الجزء الثلاثون الذي نشر باللاّتينية تحت عنوان : الجراحة Chirurgia أوسع الأجزاء انتشاراً، وأكثرها أهمية في تاريخ الطب كله : مما رفع مكانة الزهراوي إلى طبقة أبقراط : Hipocrates وجالينوس، وجعل فنّ الجراحة ـ لأوّل مرة ـ عملا مستقلا عن الطبّ، قائما على أساس من علم التشريح (1)، وعلم وظائف الأعضاء... وقد ألحق الجرّاح الفرنسي الشهير Guy de Chauliac (1300 ـ 1368) الترجمة اللاّتينية بأحد كتُبه (2).

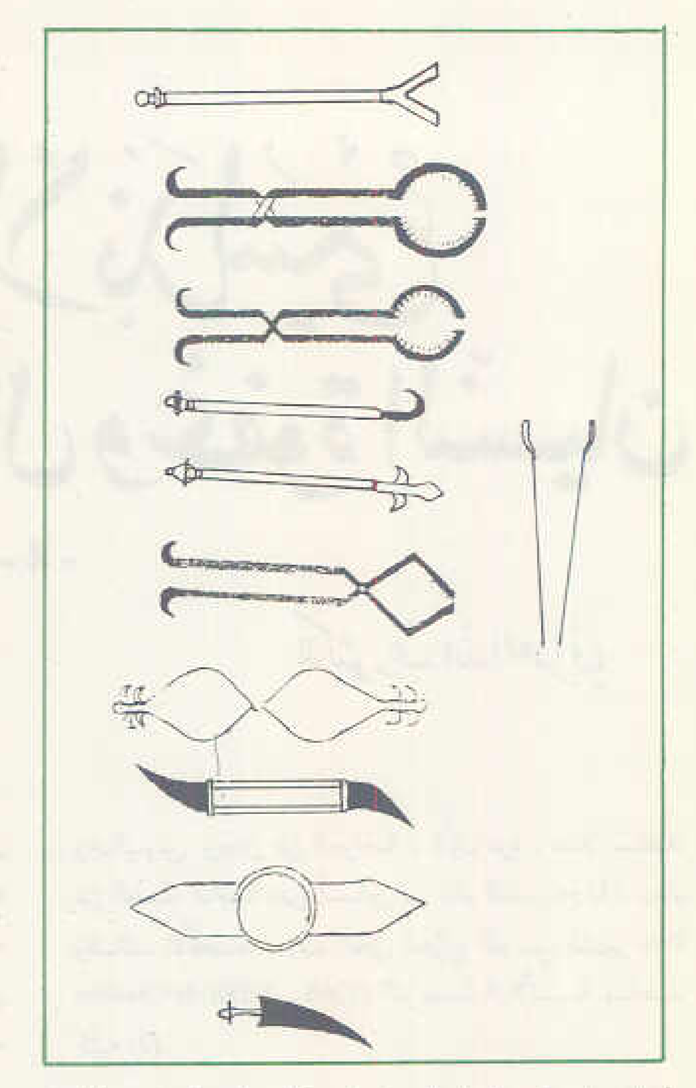
ويحتوي كتاب : «التصريف لمن عجز عن التأليف» على رسوم إيضاحية للآلات الجراحيّة التي صنعها المؤلف بنفسه، وكان لها التأثير البالغ في المؤلّفين العرب الآخرين، وساعدت ـ بصفة خاصة ـ على وضع أسس الجراحة في القارّة الأوروبية.

يتضح مما تقدم أن أبا القاسم الزهراوي ـ ويدعوه الأوربيون :Abulcasis ـ درس علم وظائف الأعضاء في أناة وعمق، كما افتتح بين العرب والمسلمين دراسة علم التشريح، وقام بتطبيقه، فشرّح جُثث المحكوم عليهم

---

1) A. González Palencia : Historia de la literatura Arabigo Española, p. 290. Editorial : Labor, Barcelona, 1945.

2) Max Meyerhof : Science and Medicine; The legacy of Islam, p. 331, Oxford University Press, 1968.



أدوات جراحية من اختراع الزهراوي (عن كتابه التصريف..) رسم نجلنا يوسف «13 سنة !!».

بالإعدام، وجثث الموتى بالمستشفيات ممن غاب عنهم أهلهم وذووهم.

ولكنّ عالمنا الجليل، لم يكن يلجأ إلى الجراحة، إلا إذا كان لا بدّ مما ليس منه بُدٌّ. فلقد كان يقدّم لتلاميذه نصائح غالية، تنمّ عن حُسن إدراكه، وعن إخلاصه للمهنة، وتقديره للمسؤولية الملقاة على عاتقه كطبيب، فقد كان يقول لتلاميذه : «لا تقوموا بعمليات جراحيّة ألبتّة، ما لم تعرفوا بالضبط موقع الأوردة، والشرايين، والأعصاب : Nerves وأوتار العضلات : Tendons».

3) يذكر البروفيسور فيليب حتي في كتابه المطوّل (تاريخ العرب) الترجمة الإسبانية ص. 295 أن أبا بكر الرازي يعتبر مخترع الجراحة. ولا أدري مستنده في ذلك (راجع : Historia de los Arabes) الطبعة الأولى/ دار النشر : راثون اي في/ مدريد سنة 1959، ولكنه في كتابه المختصر : The Arabs A Short History عاد فقال : «إنه يُعتبر مخترع الخزام : Seton في الجراحة».

إنه لتأكيد ذو أهمية خارقة للعادة، يحدث لأول مرة في تاريخ الطب الإسلامي ويدلّ على اتجاه جديد في مزاولة المهنة.

ويزيد الأستاذ في نصح تلاميذه فيقول لهم :

«اعتمدوا - دائما - على ملاحظاتكم الخاصّة... لا ينبغي لأحد منكم أن ينسى الحالات التي تعرض عليه بقصد دراستها، ذلك لأنّه إذا ما قدّمت له حالات أخرى مماثلة، فما يكون قد تعلمه بطريقة مباشرة، يفوق كل ما خلّفه لنا القدامى مدونا في كتبهم... بالمثل : استخدموا التجربة والخبرة...»

«ليس من المسموح به القيام بعملية جراحيّة في شخص، ما لم تجرّب تلك العملية في الحيوانات مسبّقا، وما لم يكن لدى الطبيب، اليقين الكامل، والتأكد التامّ، من توافر كل ذرائع الأسلوب الفنّي (التقنيّات)؛ فعملية فتح القصبة الهوائية - مثلا - ينبغي أن تنجز في الماعز أولا وطالما لم يتم إنجازها مرات عديدة، دون أن يموت الحيوان، فليس من المباح إجراؤها في إنسان».

ألا نلاحظ في هذه النّصائح الغالية، نظرة شديدة الوضوح، للكيفية التي يجب أن تكون عليها النظرية والتطبيق في الطّب ؟ أليس جديرا بالإعجاب أن تصدر مثل هذه التعليمات الفطنة الذكية، من طبيب أندلسيّ منذ ألف سنة خلت ؟

لا نظن أن في إمكان أحدنا أن يستنكر أو يستغرب صدور مثل هذه النصائح أو التعليمات من رجل عبقريّ، فاق أقرانه، وتمتع بشهرة فائقة، ويرجع إليه الفضل في إنشاء فنّ جديد، هو فنّ الجراحة (3).

كانت العمليات الجراحية قبل الزهراوي، مقصورة على الفصادة، وردّ التخلّعات بطريقة المقاومة الفجائية، وجبر الكسور، واستخراج السهام من الجروح وما أشبه ذلك. ولربّما كانت مثل هذه العمليات، عملاً تافهاً، مزْدرىً من قبَل الأطباء، وعملاً طيّبا يجيده - فقط - ويتحمّسُ له الحجّامون (الحلاّقون)، والعبيد، والمرتزقة الفضوليّون.

ولكن، لما جاء الزهراوي، ارتفع بفنّ الجراحة إلى الأوج، وعرف كيف يخترع عدداً من الأجهزة، والأدوات، والأساليب الفنيّة، معلناً بذلك آلية الفنّ الجراحي الذي لم ينْبعث طبقاً لبداهته العجيبة، ودفعته القويّة فحسب، بل ليبلغَ بفضله أهميّةً لم يعُدْ ليفْقدها قطّ.

فأبو القاسم الزهراوي، استطاع في الواقع أن يربط الشرايين، وأن يجري عمليات صعبة لاستخراج الحصى من الحويصلة، أو لتفتيتها بالمثانة، بُغْيةَ إفرازها مع البول؛ واستطاع كذلك أن يَخيط المصارين المثقوبة، وأن يصنع كلاليب جراحيّة Forceps متقنة، وأجهزة تجبيرية تقويميّة : Orthopaedic apparatus لإصلاح تشوُّهات المرضى، أو تقويمها أو تجميلها.

استشارات طبيّة

كانت المستشفيات والمارستانات (4) في الأندلس خاصة، وفي بلدان الإسلام عامّة، أماكن للمعالجة والدراسة معاً، كما كانت الدور الخاصّة عياداتٍ يؤمُّها المرضى كما هي الحال الآن، وكما كانت الحال عند الطبيب الأندلسيّ المسيحي ابن ملوكة الذي جعل أمام باب داره ثلاثين كرسيّاً يستريح عليها مرضاه في انتظار أدوارهم للكشف عنهم وعلاجهم.

ففي المستوصفات - مثلا - كان يحضر المريض، ويمثلُ امامَ الطبيب، فيلاحظه هذا ويسأله، أو يدعو بعض تلاميذه لفحصه والكشف عنه. ثم يجري معهم حواراً مناسباً للحالة، داعيا إياهم إلى عرض كل ما يعرفونه عن المرض الذي يعاني منه الزائر. ثم يعقب ذلك شرح ضليع معمّقٌ للحالة، يقوم به الأستاذ. ثم يعيّن الدواء الذي يكون به الشفاء بإذن الله.

وفيما يلي نورد نماذج من هذه الاستشارات الطبيّة :

1 - رجل يشكو ألما شديداً برأسه : يسأله الطبيب :

- أين يوجد الألم ؟ في مقدمة الرأس أم في مؤخرته ؟ يجيب المريض :

- في مقدمته... يسأله الطبيب حينئذ :

- وهل تحسّ بخفقات في الصدغين ؟ يجيب المريض :

- أحسُّ كأن بهما ضربات مطرقة. حينئذ يصف الطبيب الدواء قائلا :



عملية فصادة (رسم نجلنا يوسف 13 سنة) (عن كتاب : الطب العربي ـ باسبانيا)

- ستأخذ البابونج، وورق الورد، ورؤوسا صغيرة من الخشخاش (الأفيون). تخلط الجميع، في مرْجَل، وتضيف ماءً لتغطية ذلك كله. ثم تغلي الجميع. انكبّ بوجهك فوق المرجل، وتنفّس الأنجرة بعمق. افعل ذلك خلال ثلاثة أيام، صباحاً ومساءً. وكغذاء لك، خذ كلّ الأشياء الرطبة، السهلة الهضم.

2 - مريض بالعَشَا (والعشا : الإبصار بالنهار فقط مع عدم الإبصار بالليل كليّا أو جزئيّا) : يوصي الطبيب هذا المريض بأن يأكل كُلَى جدْيٍ مشويّ، وألاّ يتناول أيّة أدوية.

3 - مريض ثالث يشكو ثُؤْلولاً Pimple بجفنه الأعلى في حجم بُرْعُم :

4) المارستان أو البيمارستان تسمية فارسية الأصل، مركبة من ثلاث كلمات : بي = دون + مار (أو) ماري = مريض (أو) مرض + ستان = مكان، والمكان بدون مرض : يعني المصحة أو المستشفى. والعامة اليوم تطلق كلمة المارستان على مستشفى المجاذيب.

يبعث رئيس العيادة تلميذاً له كي يتولّى فحص المريض : يجد الثؤلولَ يتحرك، يقلب الجفنَ ليرى ما إذا كان للثؤلول نتوءٌ في الداخل، لا يوجد نتوء، حينئذ يقول الأستاذ الرئيس :

إنها حبّةُ غمام (بَرَدَة : Hail) لا ثؤلول. ثم ينصح المريض بعمليات خفيفة من الدّلك، والدّعك بشيء من زيت الزيتون، مع عمل لزقة (لبيخة) من خبز ساخن، مدّة ثلاثة أيام.

4 ـ بالنسبة لمصابٍ بمرض السلّ التدرُّني : يلفت الأستاذ أنظار تلامذته إلى شكل أظافر المريض، ويُطلِعُهم على أنّ أيَّ علاج لهذا المريض، سيفشل، وأنّ نفث الدم سيتواصل... حينئذ ينبّه الطبيب مريضه بأنه لا يرجى شفاؤه، فيجب أن يحرّر وصيّته، ويستعد للقاء ربّه تعالى.

في الأَوْج

في المشرق، كما في المغرب (الأندلس) نلاحظ ظاهرتين عجيبتين حَرِيّتَيْنِ بالانتباه :

أولاهما : ظاهرة السياسة والثقافة. فمن حيث بلوغهما الأوج، نجدهما قد لا يتلازمان، ولا يرتبطان ببعضهما تمام الارتباط. فقد دلّت الأحداث التاريخية على أن الانحلال والتفكّك السياسيّ قد يكون مبعث التقدم الثقافي، والرقي الفكري. فهذه الخلافة العباسية، تتفكك في الشرق الإسلامي، فتتولد عنها ممالك وإمارات تتنافس فيما بينها. حقيقة أنها فقدت وحدتها وقوتها السياسية (والاتحاد قوة كما قيل : L'union fait la force)، ولكن استعداداتها العقلية، وقدرتها الإنتاجية في الميادين الفكرية والأدبية والعلمية والفنية، تكتمل وتنضج فتبلغ الأوج.

قُلْ مثل هذا في الجناح الغربي للعروبة والإسلام، ونعني به الأندلس : انحلّت الخلافة الأموية بقرطبة لتنشأ ممالكُ طوائفَ متعددة، يستقلّ فيها الحكام بما كانوا يحكمون، وتخلفُ العاصمةَ الواحدة عواصمُ كثيرة، تتنافس فيما بينها في ميادين العلم والأدب والفنّ، فيكثر الانتاج، وتزدهر البلاد.

وثانيتهما : ظاهرة الحروب الصليبية التي كان لها في واقع الأمر ـ وجهان اثنان :

أحدهما : حربيّ بشع ذميم، يطفح بالتجهّم والعبوس، وينمّ عن كثير من الرذائل النفسانية من حقد وحسد وضغينة وبغض وغضب وكراهية.

والآخر : سلمّي هشّ بشّ، قد يخلو من الدمامة لأنه يكتسي قناعاً حريريّا ناعم الملمس، ولكنّه يرمي إلى بعيد، وكأنه ـ على رأي المثل العربي ـ «يُسِرّ حَسْواً في ارتغاء». وجهةُ أصحاب الوجْه الأول كانت : الشرق، لاستخلاص بيت المقدس من يد «الكفّار»، بينما كانت وجهة الآخرين : الأندلس، ليستقوا من ينابيعها الثرّة، ويدرسوا كتبها العلمية، وكتابها الديني المقدس (القرآن الكريم)، ويترجموا كل ذلك إلى اللاتينية، لغة العلم في أوربا آنذاك.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن فترة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تعتبر فترة الازدهار والاكتمال وبلوغ الأوج، برز فيها كثير من فطاحل العلم ممن لا نطيل الحديث عنهم، لأن أسماءهم ملء الأسماع والأبصار، وأعمالهم وآثارهم معروفة مدروسة، وأخبارهم تطفح بها المراجع قديمها وحديثها.

يكفي القرن السادس الهجري فخراً أنه القرن الذهبي لعلوم الطب الأندلسي، وأنّه أنجب أمثال :

أ ـ أبي بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه : Avempace المتوفى بفاس في رمضان عام 533 هـ (مايو 1139 م). كان ابن باجه ـ على غرار سائر المفكرين بالقرون الوسطى ـ مشاركاً في كل العلوم تقريبا، فقد اشتغل بالطب، والفلك، والرياضيات، والطبيعة، كما اشتغل بالعلوم الفلسفية وألّف فيها.

ب ـ أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المتوفى بمراكش سنة 581 هـ (1185 م) : كان وزير الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن، وطبيبه الخاصّ، وهو الذي اقترح عليه الخليفة تبسيطَ فلسفة أرسطو، وشرْحَ غوامضها، فاعتذر بكبر سنّه، وقدّمَ إليه أبا الوليد ابن رشد (الحفيد) فقام بالمهمة خير قيام.

اشتهر ابن طفيل بقصته الفلسفية الخالدة (حيّ بن يقظان) التي ترجمت إلى العديد من اللغات، والتي كان لها تأثير في الآداب العالمية فقد ترجمها Edward Pococke إلى اللاتينية سنة 1671؛ وتأثر دانييل ديفو (1660 ـ 1731) بها عندما ألف قصته المعروفة : Robinson Crusoe.

وقد يجهل الكثير منا أن ابن طقيل كان شاعراً أيضاً، ويتجلى ذلك مما يلي :

1 ـ بعض أشعاره الرقيقة التي أثبتها المؤرخ عبد الواحد المراكشي في كتابه : المعجب في تلخيص أخبار المغرب.

2 ـ أرجوزته الطبية المؤلفة من 7.500 بيت من الشعر : فهي أطول أرجوزة في اللغة العربية، وأهم كتاب طبّي خطير الشأن خطورة «القانون» لابن سينا، و«الحاوي» للرازى، و«الكليات» لابن رشد، و«التصريف» للزهراوي، و«التيسير» لابن زهر.

توجد هذه الأرجوزة بمكتبة القرويين بفاس تحت رقم 40/3158. وعدد أوراقها 148 (أي 296 صفحة)، ومقياسها : 30 × 22 سم. وهي في أشد الحاجة لمن يحققها وينشرها، فيخدم بذلك هذا الطبيب الماهر، والفيلسوف المقتدر.

جـ ـ أبي الوليد محمد ابن رشد (الحفيد) المتوفى بمراكش في 9 صفر 595 هـ (1198/12/11) : فقد كان فيلسوفا، وطبيبا، وفقيها، وقد تولى القضاء باشبيلية وقرطبة... وقد جعله الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف، طبيباً خاصاً له عام 578 هـ (1182 م)، وحظي عنده، وسمتْ منزلته لديه، إلى أن أفلح الواشون في إحداث النفرة بين الاثنين، فنفى الخليفة الطبيب الفيلسوف إلى اليسانة (Lucena الحالية الواقعة جنوب شرقي قرطبة) ثم عفا عنه، واستدعاه إلى مراكش العاصمة، حيث توفي ودفن قبل أن ينقل إلى مدافن أهله بقرطبة.

وأنجب القرن السادس الهجري كذلك من الأطباء، أمثال بني زُهْر الإياديين الذين سنخصّهم بكلمة في الحلقة الأخيرة القادمة بحول الله وقوته.

(للبحث بقية) د. عبد الله العمراني

مائة وألفُ مثل
من الأمثال الشعبيّة المغربيّة

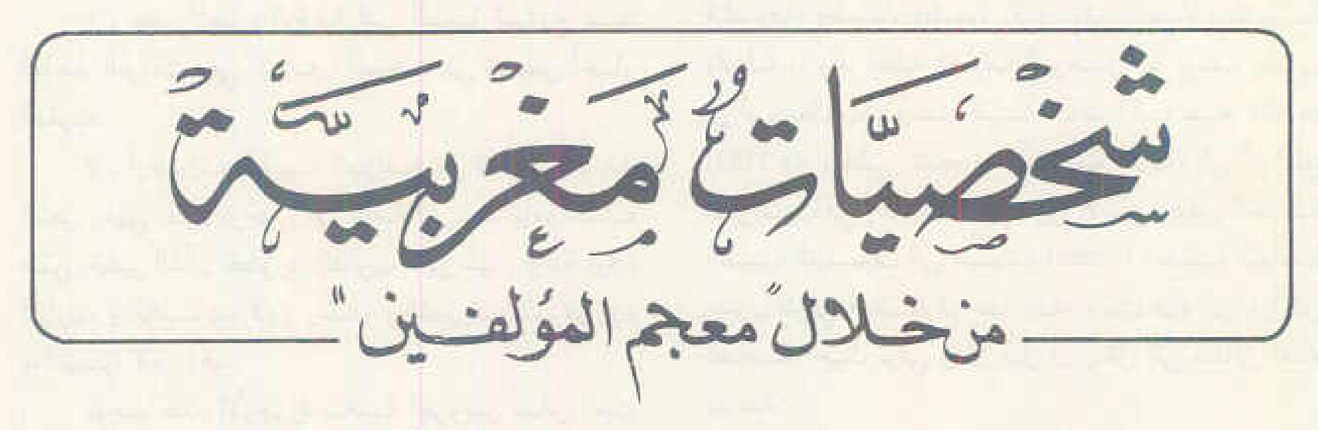
• • صدر للباحث الأديب الأستاذ محمد بن أحمد اشماعو كتاب جديد بعنوان : (مائة وألف مثل من الأمثال الشعبية المغربية). ويتضمن إلى جانب الأمثال في نصوصها بالعاميّة شروحا وتعليقات تضفي على الكتاب طابعا أدبيا ذا قيمة.





ويقع الكتاب في 120 صفحة من القطع الكبير.

وجاء في مقدمة الكتاب التنبيه «إلى أن أية خدمة للآداب الشعبية لا يجب أن تعتبر مناوأة أو مضايقة للغة العربية الفصيحة الشريفة، فمقامها مصون محترم معزز بكتاب الله العزيز، وبذخائر التراث الخالد وبجهود الحاضر المتكاثفة، وإنما هي طرائف وإبداعات وخلجات الشعب الذي فاته التعليم الجيّد الشامل، ولم يفته أن يتحدث أو يعلق أو ينكت أو يسخر أو ينتقد بصدق وإخلاص وعمق وأن يعبر عما يروج عنده في الأذهان أو ما يفيض به الوجدان» • •



للأستاذ مصطفى الشليح

(2)

21 : أحمد السوسي : (970 ـ 1046 هـ) (1562 ـ 1636 م).

أحمد بن علي السوسي، البورسعيدي، الصنهاجي، الهشتوكي، ولد في حوالي 970 هـ ودفن بفاس، من تصانيفه : وصلة الزلفى في التقرب بآل المصطفى، بذل المناصحة في فعل المصافحة.

ط : ـ البغدادي : هدية العارفين 1 : 159.
ـ الأزهري : اليواقيت الثمينة 1 : 31 ـ 32.
ـ الكتاني : فهرس الفهارس 1 : 179.
ـ البغدادي : إيضاح المكنون 1 : 175، 2 : 710.

(9 : 2)

22 : أحمد العبدري : (.... 978 هـ) (.... 1280 م).

أحمد بن علي العبدري، ثم الميورقي، المالكي، مؤرخ، أصله من المغرب، وتوفي بوج بالطائف، له بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج.

ط : ـ الزركلي : الاعلام 1: 170.

(14 : 2)

23 : أحمد الزقاق : (.... 1031 هـ) (.... 1623 م).

أحمد بن علي بن قاسم، المعروف بالزقاق، التجيبي، الفاسي (أبو العباس). فقيه مالكي، من تصانيفه : شرح منظومة أبيه سماها بالمنهج المنتخب في قواعد المذهب ولم يكمله : وشرح بعض الرسالة والمدونة ومختصر خليل.

ط : ـ المحبي : خلاصة الأثر 1 : 246.
ـ البغدادي : هدية العارفين 1 : 155.

(16 : 2)

24 : أحمد بن العياشي : (1295 ـ ...هـ) (1878 ـ ...م).

أحمد بن العياشي، سكيرج الخزرجي، الأنصاري، الأندلسي الفاسي، عالم، أديب. ولد بفاس في 2 جمادى الثانية. له من التآليف ما يناهز المائة في موضوعات مختلفة، وطبع منها نحو العشرين، وترجم منها للغة الفرنساوية، وله شعر :

ط : ـ محمد القباج : الأدب العربي في المغرب الأقصى 1 : 56 ـ 61.

(37 : 2)

25 : أحمد القباب : (... 779 هـ) (... 1377 م).

أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي، المعروف بالقباب أبو العباس (فقيه). تولى الفتيا بفاس، من تصانيفه : شرح قواعد عياض، شرح مسائل ابن جماعة في البيوع، واختصار أحكام النظر لابن القطان.

ط : ـ التنبكتي : نيل الابتهاج 72 ـ 73.
ـ ابن فرحون : الديباج 41.
ـ بروكلمان : 2 : 346.
(2 : 49)

26 : أحمـــد الهروي : (920 ـ 1013 هـ) (1514 ـ 1604 م).

أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز بن شعيب الهروي، المغربي (أبو العبـاس) صـوفي. تـوفي أوائل ربيع الأول. من تصانيفه : نتائج الأفكار على الحكم العطائية، إنشاء الشريد إلى مقامات حقائق التفريد، وبداية المريد في الجد والمجاهدة وتحقيق المراقبة والمشاهدة، الدرر النفيسة في فضائل الأدعية الشريفة، ونزهة الناظرين ومصباح السالكين والعارفين.

ط : ـ البغدادي : هدية العارفين 1 : 152.
ـ الكتاني : فهرس الفهارس 2 : 116 ـ 117.
ـ البغدادي : إيضاح المكنون 1 : 133، 169، 293، 470، 620، 621.
2 : 9، 44، 57، 148، 399، 492، 493، 496، 584، 619، 643، 653، 707.
(2 : 49)

27 : أحمد بن القاضي : (960 ـ ...هـ) (1553 ـ ...م).

أحمد بن القاضي (أبو العباس) مؤرخ، فرضي، حاسب، من أهل فاس. من مؤلفاته : جذوة الاقتباس في من كان من الأعلام بفاس، المدخل إلى الهندسة، غنيمة الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض، ودرة الرجال في أسماء الرجال.

ط : طوقان : تراث العرب العلمي 439.
(2 : 50)

28 : أحمد البلغيثي : (... ـ 1348 هـ) (... 1929 م).

أحمد بن المامون بن الطيب بن المدني بن عبد الكبير البلغيثي، الفاسي (صفي الدين). عالم، أديب، تولى القضاء، وتوفي بفاس. من تصانيفه : الابتهاج بنور السراج، شرح منظومة المتاري في "الأدب بمجلدين، مجلي الأسرار والحقائق فيما يتعلق بالصلاة على خير الخلائق، ديوان شعر سماه تنسم عبير الأزهار بتبسم ثغور الأشعار في مجلدين، رحلة إلى الحجاز، ومنظومة في علم التوحيد.

خ : ـ فهرس المؤلفين بالظاهرية.
ط : ـ الفاسي : رياض الجنة 1 : 133 ـ 163.
ـ البغدادي : إيضاح المكنون 1 : 9.
ـ مجاهد : الأعلام الشرقية 3 : 16 ـ 17.
ـ الزركلي : الأعلام 1 : 191.
(2 ـ 56)

29 : أحمد السجلماسي : (1090 ـ 1155 هـ) (1679 ـ 1749 م).

أحمـد بن مبارك بن محمد بن علي السجلماسي، اللمطي، البكري، الصديقي المالكي. عالم في البيان، والفقه، والأصول، والحديث، والقراءات، والتفسير. ولد في حدود سجلماسة، ثم دخل فاسا، وتوفي بها في 19 جمادى الأولى. من تصانيفه : الذهب الابريز من كلام سيدي عبد العزيز، إنارة الافهام بسماع ما قيل في دلالة العام، شرح المحلى على جمع الجوامع، رد التشديد في مسألة التقليد وكشف اللبس عن المسائل الخمس.

ط : ـ الأزهري : اليواقيت الثمينة : 1 : 47 ـ 51.
ـ الكتاني : سلوة الأنفاس 2 : 203 ـ 205.
ـ البغدادي : هدية العارفين 1 : 174.
ـ سركيس : معجم المطبوعات 1009 ـ 1010.
ـ البغدادي : إيضاح المكنون 1 : 84، 128، 544، 552. 2 : 364، 365.
ـ فهرست الخديوية : 2 : 61.

- فهرس التيمورية 3 : 11.
(2 : 56 ـ 57)

30 : أحمد الفاسي : (كان حيا 1211 هـ) (... 1796 م).
أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الفاسي (أبو العباس) رحالة من تصانيفه : رحلة من فاس سنة 1211 هـ إلى مكة والمدينة.
ط : ـ المكتبة البلدية : فهرس الجغرافية 16.
(2 ـ 71)

31 : أحمد الحبيب : (.... ـ 1165 هـ) (... ـ 1752 م).
أحمد بن محمد الحبيب (أبو العباس) مؤرخ، من تصانيفه : المقصد الأحمد بسيدنا ابن عبد الله أحمد، مصابيح الاقتباس في مدايح أبي العباس، والدر السني فيمن بفاس من أهل النسب الحسني.
ط : ـ الكتاني : سلوة الأنفاس 2 : 249، 350.
(2 ـ 88).

32 : أحمد بناني : (1260 ـ 1340 هـ) (1844 ـ 1921 م).
أحمد بن محمد بن الحسن بناني، الرباطي (أبو العباس) عالم مشارك في كثير من العلوم العقلية والنقلية، تولى القضاء، وتوفي في ربيع الثاني. من تصانيفه : حاشية على شرح المكودي في ثلاثة أجزاء، شرح على البردة سماه : اتحاف أهل المودة، لم يكمل.
ط : ـ الفاسي : رياض الجنة : 1 : 116 ـ 118.
(2 ـ 90)

33 : أحمد التطواني : (... ـ 1179 هـ) (... ـ 1765 م).
أحمد بن محمد بن عبد الله الورزازي، الدرعي، التطواني، (أبو العباس). محدث، توفي بتطوان. من مصنفاته : فهرسة جمع فيها مروياته.
ط : ـ الكتاني : فهرس الفهارس 2 : 429 ـ 430.
(2 ـ 124).

34 : أحمد بن البناء : (654 ـ 721 هـ) (1256 ـ 1321 م).
أحمد بن محمد بن عثمان الازدي، العدوي المراكشي، المعروف بأبي البناء (أبو العباس)، عالم مشارك في كثير من العلوم. ولد، وتوفي بمراكش. من مصنفاته الكثيرة : التلخيص في الحساب، اللوازم العقلية في مدارك العلوم، الروض المريع في صناعة البديع، منتهى السول في علم الأصول، والأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة.
ط : ـ ابن حجر : الدرر الكامنة 278 ـ 277.
ـ التنبكتي : نيل الابتهاج 65 ـ 68.
ـ الشوكاني : البدر الطالع 1 : 108 ـ 109.
ـ حاجي خليفة : كشف الظنون 472 ـ 949 ـ 1174.
ـ طوقان : تراث العرب العلمي 378 ـ 381.
ـ فهرست الخديوية 5 : 179.
ـ البغدادي : إيضاح المكنون 1 : 161، 167، 608.
ـ بنشنب : موسوعة الإسلام 2 : 389 ـ 390.
ـ بروكلمان : 2 : 363 ـ 364.
(2 : 126 ـ 127).

35 : أحمد بن عطية : (.... ـ 1029 هـ) (.... ـ 1620 م).
أحمد بن محمد بن عطية الأندلسي، الفاسي (أبو العباس) صوفي، مؤرخ. توفي في 18 ربيع الثاني. من مصنفاته : التفكر والاعتبار في تاريخ المصطفى وبعض أصحابه الأخيار من اتبع من العلماء والسادات الصوفية الأبرار، وسلسلة الأنوار في ذكر طريقة الصوفية الأخيار.
ط : ـ الكتاني : سلوة الأنفاس 1 : 371.
(2 : 127).

36 : أحمد المريني : (.... ـ 1277 هـ) (... ـ 1860 م).
أحمد بن محمد بن علي المريني، الفاسي، عالم مشارك في أنواع من العلوم. من مؤلفاته : حاشية على المكودي.

ط : ـ الأزهري : اليواقيت الثمينة 9 : 75.
(135 : 2)

37 : أحمـــد التجـــاني : (1150 ـ 1230 هـ) (1737 ـ 1815 م).

أحمد بن محمد (فتحا) بن المختار التجاني المغربي (أبو العباس) مؤسس الطريقة التجانية بالمغرب. ولد بعين ماضي، ونشأ بها، وتوفي بحضرة فاس في 17 شوال. من آثــــاره : السر الأبهر في أوراد القطب الأكبر. جـــوهرة الحقائق في الصلاة على خير الخلائق، جوهرة الكمال في الصلاة على سيد الارسال. في الأدعيـة : حزب التضرع والابتهال، وحزب المفتي.

ط : ـ الحفناوي : تعريق الخلق 2 : 38.
ـ الكوهن : طبقات الشاذلية الكبرى 164 ـ 165.
ـ البغدادي : إيضاح المكنون 1 : 386.
ـ فهرس التيمورية 3 : 47.
ـ البغدادي : هدية العارفين 1 : 183.
ـ مرجوليوث : موسوعة الإسلام 4 : 784 ـ 785.
(143 : 2).

38 : أحمـــد الحـــارثي : (.... ـ 1129 هـ) (.... ـ 1814 م).

أحمـد بن محمد بن محمـد بن عطيـة السلـوي، الأندلسي، الفاسي، الحارثي، فقيه مشارك في بعض العلوم، من تصانيفه : التفكر والاعتبار في تاريخ المصطفى ﷺ، وسلسلة الأنوار في ذكر طريق السادات الصوفية الأخيار.

ط : ـ الازهري : اليواقيت الثمينة 1 : 43.
(151 : 2)

39 : أحمـــد الطـــاهري : (.... ـ 1195 هـ) (.... ـ 1781 م).

أحمد بن محمد بن مسعود الطاهري، الحسني، فقيه، محدث صوفي. من تصانيفه : تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان.

ط : الأزهري : اليواقيت الثمينة 1 : 55.
(157 : 2)

40 : أحمـــد بن عجيبـــة : (1160 ـ 1224 هـ) (1747 ـ 1809 م).

أحمـد بن محمـد بن المهـدي بن عجيبـة الحسني الإدريسي، الشاذلي، الفاسي (أبو العبـاس) صوفي، مفسر، مشارك في أنواع العلوم. توفي في 7 شوال. من تصانيفه : إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله في التصوف، البحر المـديـد في تفسير القرآن المجيـد، شرح على الأجرومية في النحو، أزهار البستان في طبقات الأعيان، والفتوحات الإلاهية في شرح المباحث الأصلية.

ط : ـ فهرس المؤلفين بالظاهرية.
ـ الكتاني : فهرس الفهـارس 2 : 228 ـ 229.
ـ الأزهري : اليواقيت الثمينة 1 : 70.
ـ سركيس : معجم المطبـوعـات 169 ـ 170.
ـ المكتبة البلدية : فهرس التصوف : 37.
ـ أحمد بن الصديق : التصور والتصديق 18 ـ 22.
ـ فهرس التيمـوريـة 1 : 12، 161. 3 : 197.
ـ الكوهن : جامع الكرامات 161 ـ 164.
(163 : 2)

41 : أحمـــد الـــدرعي : (1057 ـ 1129 هـ) (1647 ـ 1717 م).

أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الجعفي، المغربي، المالكي (أبو العباس) محدث، صوفي. ولد في سجلماسة، وتوفي 18 ربيع الثاني. من تصانيفه رحلة المشرق، وكتاب الأجوبة.

ط : ـ الكتـاني : فهرس الفهـارس 2 : 88 ـ 90.
ـ سركيس : معجم المطبوعات 872.
ـ البغدادي : هديـة العـارفين 1 : 169. 170.
ـ البغـدادي : إيضـاح المكنون 1 : 551. 2 : 262.

- بروكلمان : 2 : 464.

(2 : 164 - 165)

42 : أحمد البوعزوي : (.... - 1313 هـ) (.... - 1895 م).

احمد بن المهدي بن محمد بن العباس بن جابر البوعزوي، المدعو ابن العباس (أبو العباس)، عالم، فقيه، راوية مكثر من أهل فاس توفي في ربيع الأول. من آثاره : مجموع فتاوى في نحو ثمان مجلدات، ومجموع تقاييد علمية وتاريخية في نحو عشر مجلدات.

ط : - الفاسي : رياض الجنة 1 : 111 - 116.

(2 : 185)

43 : أحمد الفاسي : (.... - 1021 هـ) (.... - 1612 م).

أحمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عبد الرحمن القصري، الفاسي، المالكي (أبو العباس) محدث، فقيه، صوفي توفي ببوذري، من تآليفه : جزء في أولاد المشركي، جزء في السماع وما يتعلق به، شرح عمدة الأحكام في الحديث، وشرح رائية الشريشي في السلوك.

خ : - فهرس المؤلفين بالظاهرية.

ط : - الكتاني : فهرس الفهارس 2 : 36 - 38.

- الأزهري : اليواقيت الثمينة 1 : 23.

- البغدادي : هدية العارفين 1 : 153 - 154.

- بروكلمان : 2 : 701 - 702.

(2 : 214)

44 : ادريس البكراوي : (.... - 1259 هـ) (.... - 1843 م).

ادريس بن عبد الله بن عبد القادر بن أحمد بن عيسى الحسني، الإدريسي، الودغيري، الملقب بالبكراوي (أبو العلاء)، مقرئ، خطيب، مشارك في علوم شتى من فقه ولغة ونحو وغير ذلك. توفي 16 المحرم. من تصانيفه : حاشية على الجعبري، شرح هالية الفقيه محمد بن مبارك السجلماسي في تخفيف الهمز كحمزة وهشام، والتوضيح والبيان في مقرئي نافع المدني ابن عبد الرحمن.

ط : - الازهري : اليواقيت الثمينة 1 : 97 - 98.

- الكتاني : سلوة الأنفاس 2 : 343 - 345.

- بروكلمان : 2 : 508.

(2 : 218)

45 : ادريس المنجرة : (1076 - 1137 هـ) (1666 - 1724 م).

ادريس بن محمد بن أحمد الحسني، الإدريسي المعروف بالمنجرة، مقرئ ولد بفاس في ذي القعدة، وتوفي بها في 22 المحرم، له تصانيف في علم القراءة نظما ونثرا، وله ثبت صغير سماه عذب الموارد في رفع الأسانيد.

ط : - الأزهري : اليواقيت الثمينة 1 : 95 - 96.

- الكتاني : سلوة الأنفاس 2 : 272 - 273.

- الكتاني : فهرس الفهارس 2 : 8 - 9.

(2 : 218)

46 : ادريس العمراوي : (.... - 1296 هـ) (.... - 1879 م).

ادريس بن محمد بن ادريس العمراوي، الإدريسي، وزير، من الشعراء الكتاب المترسلين. استوزره السلطان محمد بن عبد الرحمن صاحب المغرب، ووجهه إلى فرنسة في أواخر سنة 1286 هـ، فأقام بباريز 42 يوما، وألف في رحلته كتابا سماه : تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، وعاد فانتدب سفيرا باسبانية، وتوفي في رباط الفتح.

ط : - الزركلي : الأعلام 1 : 268.

(2 : 218)

47 : ادريس العراقي : (1123 - 1183 هـ) (1711 - 1769 م).

ادريس بن محمد بن حمدون بن عبد الرحمن العراقي، الحسيني، الفاسي، محدث، فقيه. توفي بفاس في

شعبان، عن نيف وستين سنة، من تصانيفه : شرح على الشمائل للترمذي، شرح احياء الميت للسيوطي، وشرح الثلث الأخير من المشارق للصاغاني.

ط : ـ الكتاني : فهرس الفهارس 2 : 199 ـ 205.

ـ الأزهري : اليواقيت الثمينة 1 : 96 ـ 97.

ـ الكتاني : سلوة الأنفاس 1 : 141 ـ 143.

(219 : 2)

الأستاذ الكبير محمد داود في ذمة الله



●● توفي إلى رحمة الله تعالى الأستاذ الكبير السيد محمد داوود محافظ الخزانة الملكية بالرباط سابقا وأحد كبار رواد النهضة التعليمية والثقافية والصحافية في شمال المملكة.

ولد المرحوم محمد داوود بمدينة تطوان عام 1901 ودرس على شيوخ المدينة ثم انتقل إلى القرويين بفاس حيث تزود بالثقافة العربية الإسلامية وعاد إلى مسقط رأسه ليضع اللبنة الأولى في التعليم الحر بإنشائه المدرسة الأهلية التي كانت نواة النهضة في هذا الجزء من المملكة. وبعد ذلك أصدر المرحوم مجلة (السلام) التي صدر منها 12 عددا، ثم جريدة (الأخبار). وتولى مناصب هامة في سلك التعليم بالمنطقة الشمالية وتفرغ للتأليف فأصدر موسوعة (تاريخ تطوان) في ثمانية مجلدات ولا تزال أجزاء من هذا التاريخ مخطوطة.

ونشر المرحوم محمد داوود في مجلة (دعوة الحق) في سنواتها الأولى مقالات تاريخية هامة.

رحمه الله برحمته الواسعة وإنا لله وإنا إليه راجعون ●●



تأليف: د. محمد رجب بيومي
عرض: الأستاذ إدريس الزمراني

هذا كتاب فيه من صور العلماء والنبهاء ما يبعث على الافتخار؛ ويدفع إلى النظر في فداحة الأمانة التي يتحملها العلماء؛ من رد للمظالم؛ ومجاهدة بالحق؛ ومغالبة للهوى، وحرص على صيانة الحدود مهما كلف ذلك من مشاق وأفرز من تبعات.

فيه صراع بين من يرى للبحث العلمي أصولاً معروفة؛ ومناهج محددة؛ وبين من ينكر ذلك كل الإنكار؛ ولا يرى في البحث سوى اطلاقاً حراً لقلم الكاتب واجتهاده حتى وإن تعارض في ذلك مع ما هو متعارف عليه من القيم الرفيعة؛ والمبادئ الأصيلة.

وهو فوق ذلك تصوير لمعقل من معاقل العلم؛ في كفاحه المستميت من أجل الحفاظ على حلقات العلم والعلماء من العبث السخيف؛ والعلم الهزيل؛ والتطاول القاصر؛ صيانة للعلماء من الخوض في أمور لا طائل من ورائها؛ ولا نفع في الخوض فيها لأنها مفصلة في الكتاب والسنة؛ مبوبة في التصانيف والأسفار.

وإذا كان المنهج الذي اعتمده الدكتور محمد رجب البيومي في الكتابة يرتكز على سرد الأدلة التاريخية؛ والرجوع إلى المصادر المعنية؛ فإن نزعته الأزهرية تطغى عليه في حماس؛ مما جعله يركب أسلوبه السلس؛ وعباراته البليغة.

وإذا كان الكتاب أيضاً قد استطاع رصد الحركات السياسية للأزهر عبر مختلف عهوده؛ وجهود علمائه بالعصر المملوكي؛ وعراكهم في العصر العثماني؛ ورد فعل الأزهر تجاه الحملة الفرنسية؛ وتولي محمد علي أمر البلاد؛ فإنه استفاض في تصوير ثورة أحمد عرابي مبيناً الأثر الأزهري في تكوينه وثقافته؛ وانتساب والده إلى علمائه؛ والتحاق عرابي بعد ذلك بالعسكرية؛ وانتظامه في سلك (الأورطة السعيدية المصرية) وزعامته للثورة التي نسبت إليه؛ وعرفت باسمه.

كما بين الكتاب دور الأزهر في قيادة ثورة 1919 متحاملاً على الذين اغفلوا عن قصد (أن الثورة بدون جهاد الأزهر تفقد الرائع الجليل) مستشهداً بما كتبه الأستاذ محمود العقاد في كتابه عن زعيم الثورة حيث أعلن «أن سعد زغلول نفسه فوجئ بالمظاهرة الكبرى التي انبعثت من الأزهر فأحدثت الشرارة الأولى في الشعب ثم اندلع لهيبها في سائر المدن والقرى».

ولعل الفصول المثيرة في الكتاب هي تلك التي أفردها الدكتور محمد رجب البيومي لمناقشة موقف الأزهر من كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرزاق؛

والأزهر وموقفه من كتاب الشعر الجاهلي؛ والأيام للدكتور طـه حسين؛ والأزهر وحريـة الفكر؛ وهي فصـول ممتعـة ومشوقة تعكس جانباً هاماً من السخونة التي عرفتها الحياة العلمية والثقافية في ذلك العهد؛ والحماس الذي كان يحرك هذا الجانب أو ذاك في تفنيد مزاعم خصمه وابطال حججه الواهية.

وإذا كان موقف الأزهر من كتاب الإسلام وأصول الحكم قد دفع المؤلف إلى طرح تساؤلاته عن سر الهجمة الشرسة التي تعرض لها الأزهر وعلماؤه من طرف الذين رأوا في ذلك الصنيع قهرا لحرية الفكر؛ وتطاولا على مبدأ الاجتهاد، فإنه أكد بالبرهان أن ذلك لم يكن صادراً في أغلبه إلا عن الذين لا يعرفون شيئاً عن حقائق الإسلام؛ وإن نصبوا من أنفسهم دعاة للحرية والرأي.

فالشيخ علي عبد الرزاق مهما بلغت الآراء التي أذاعها في الناس مجتهد أخطأ؛ وقد تصدى الأزهر لتبيان خطئه وإعلان اجتهاده في الأمور التي أصاب فيها؛ ولن يغير الحقيقة في شيء أن يخطىء الإنسان ويتراجع عن أخطائه كما فعل الشيخ رحمه الله بعد ذلك.

إن كتاب الإسلام وأصول الحكم لم يكن ليحدث كل تلك الضجة لولا أن الشيخ علي عبد الرزاق أحد أبناء الأزهر؛ وأنه قال ما قاله بصفته الدينية؛ فوجب أن يقول علماء الأزهر رأيهم فيما ينسبه أحد أبنائهم إلى دينهم الحنيف وبما يتطلبه الموقف من مسؤولية.

وينتهي المؤلف في هذا الفصل إلى أن مناقشة الكتاب لم تكن بإيعاز من أحد؛ وأن وضعه كان بهدف الطعن في المقدسات الإسلامية؛ وأن الزوبعة التي أثارها إنما كانت من وحي الذين يروجون للجرأة الدينية على هواهم؛ مؤكداً بأن اتهام الأزهر بالوصولية والرجعية لم يكن الهدف منه سوى أمر الأزهر بالسكوت عن شيء يتعارض ورسالته الدينية والعلمية.

وفي الفصل الخاص بمناقشة الدكتور طه حسين يشن المؤلف هجومه على عميد الأدب العربي مبيناً ما ورد في كتابه «الأيام» من بشاعة وغرور في تصوير فقيه الكتاب؛ وطريقة التعليم العتيقة في مصر يومئذ؛ وموقفه من الأزهر ومناهجه الدراسية الجافة؛ وكتاباته المتجنية بعد ذلك في

[illegible] رسوبه في شهادة العالمية.

ثم يعرض بعد ذلك لما كان من أمر كتابه في الشعر الجاهلي؛ والذي خرج فيه عن أصول البحث العلمي، وطعن فيه في شخصيتين تاريخيتين أثبت القرآن وجودهما؛ مبيناً افتراء الدكتور الذي لا أساس له من الصحة أو الموضوعية، منصفاً إياه في تعاطي البحث والمساءلة فيما يخص أمور النقد والأدب والثقافة عامة.

ويخلص المؤلف في نهاية حديثه عن كتاب الشعر الجاهلي مؤكداً أن الأزهر لم يقم إلا بواجبه الديني والعلمي؛ وأن حرية الفكر والرأي كما يؤمن بها الأزهر هي تلك التي تضيف ولا تنقص شيئا؛ وأن حدودها مرسومة معروفة لا تقبل العبث بها ولا التطاول عليها.

وينتهي الكتاب بالحديث عن الأزهر والسلاح الديني في الرد على السيد (موريس جودفري) صاحب كتاب (النظم الإسلامية) والذي جاء افتراء على الإسلام ومبادئه؛ ليدلف المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن الأزهر وحرية الفكر.

وفيه يرد على الأستاذ توفيق الحكيم وما جاء في كتابه (وثائق من كواليس الأدباء) من تحرش بالأزهر واتهام كاذب نحو علمائه؛ ولا سيما وأن الأستاذ محمد مصطفى المراغي رحمه الله؛ كان قد تعرض بالنقد اللاذع لكتاب الحكيم (يوميات نائب في الأرياف) مبينا خلطه فيما يتعلق خاصة برجال القضاء الشرعي، الشيء الذي جعل الأستاذ توفيق الحكيم يقول في ص 120 من كتابه (إن الانتصار الذي تم للأزهر في حظر كتاب ـ جان دارك ـ قد شجع على الاستمرار في هذه الخطة).

والأمر كما يبدو من سياق الجملة ينطوي على تهكم صارخ مفاده أن الأزهر أصبح ديدنه الحظر والمضايقة بعد فلاحه في مصادرة كاتب شهير كبرناردشو.

والخلاصة هو أن كتاب الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، والصادر ضمن كتاب الهلال، ليس إلا صورة صادقة للحركة الثقافية والعلمية المصرية بشهادة من العلماء وبرأي منهم؛ وهو أيضا دليل على وجود تيارات مختلفة تتفاعل وتتصارع في توجيه الأحداث وصياغتها.

إلا أن اللافت للنظر في هذا الصراع هو الاختلاف الحاصل في فهم الأطراف لكل من كلمتي «سياسة» و«حرية الفكر».

فالأزهر وعلماؤه كانوا ينطلقون في فهمهم من كل ما يخدم العقيدة والمجتمع ويحافظ على تراث السلف الصالح من كل تشويه أو خدش وضمن التقاليد والأصول المعروفة والمتبعة، مع السماح باجتهادات في الفرع وليس في الأصل.

وجماعة المثاقفة والعصرنة التي تشبعت بالآراء والأفكار الغربية سواء بواسطة الدرس بالجامعات أو المعاهد أو الاطلاع على المؤلفات والنظريات من أصلها كانت تنطلق في فهمها «للسياسة وحرية الفكر» من الثورة على كل ما هو سائد وهامد، إنطلاقا من التشكيك فيما لا يقبل الشك، وانتهاء بهدم ما هو قائم لإعادة بنائه ولو على حساب القيم والأعراف.

هذا هو الاختلاف في أساسه، فالمعركة لم تكن بين الأشخاص لذواتهم وإنما كانت بين الآراء والمعتقدات التي يروجون لها، ويدافعون من أجل تعميقها وسريان مفعولها في المجتمع.

ومما لاشك فيه أن الأزهر هو الذي كسب المعركة في النهاية، بدليل أن العديد من الآراء والأفكار التي شغلت الناس أمدا ليس بالقصير، عرفت تراجعا بغيضا على أيدي أصحابها أنفسهم، مع ما يشبه الندم والتوبة من إعلانها وإذاعتها في مجتمع يختلف كل الاختلاف عن المجتمعات التي استقوا منها أفكارهم ونظرياتهم.

ولولا أن كتاب الأزهر بين السياسة وحرية الفكر وقف حيث يجب أن يستمر، لقلنا إنه جاء جامعا مانعا، ولكنه أشفق من الخوض في أمور عديدة حشر الأزهر نفسه فيها حشرا، وكان لعلمائه فيها رأي صريح وواضح فيما نعيشه من شؤون وأحداث في أيامنا هذه.

ومع ذلك كله، تمنيت لو أن كتابا من هذا القبيل ألف عن جهاد جامعة القرويين العتيدة، يكشف بعضا من جهاد علمائها وأساتذتها في مختلف القضايا التي عرفها المغرب عبر تاريخه، حتى تكون شهادة علمية لجيل يركب في فهمه للدلالات مراكب متفرقة، ويسلك في بحثه العلمي طرائق قددا.

الرباط - إدريس الزمراني



الوجادات

949 - 964

للأستاذ عبد القادر زمامة

949 - يعلمها الشاهد الرقيب...!

وجدت في كتاب «معالم الإيمان» لأبي زيد عبد الرحمن الدباغ ج 3 ص 112 ط. تونس 1320 هـ.

«وكان ابن أبي زيد القيرواني بعد أن أتم «الرسالة» وجه بنسخة منها إلى «الأبهري» وبثانية إلى أبي بكر ابن زرب الفقيه الأندلسي. فأخفى هذا «الرسالة» وشرع في تأليف كتاب عوضها سماه : «الخصال» فكتب ابن أبي زيد إلى الأبهري يخبره بالأمر...

فأجابه برسالة فيها هذه الأبيات :

أعجب ما في الأمور عندي
إظهار ما تدعي القلوب
تأبى نفوس نفوس قوم
وما لها عندهم ذنوب
وتصطفى أنفس نفوسا
وما لها عندهم عيوب
ما ذاك إلا لمضمرات
يعلمها الشاهد الرقيب»

950 - وإنما يريدون أكله...!

وجدت في كتاب : «تحفة الأحباب» للرحالة أبي حامد الغرناطي ص 116.

«ولما دخلت سخسين سنة خمس وعشرين وخمسمائة اجتمع إلي الناس من أهل العلم وغيرهم ومن جملتهم شيخ ضعيف له ثياب خلقة. فألقى عندي سوار ذهب وزنه أربعون مثقالا... وقال : ما أصنع بهذا السوار...؟ فقلت : لا أدري... ما تصنع به. لست بصائغ. حتى أعلم ما تعمل به.. فقال : اشتريت سمكة بطسوج. فوجدت هذا السوار في بطنها..! فقلت : عرّفه... قد عرّفته. ثلاث سنين... أنشده في عكازي. وأدور به في المساجد. والأسواق. والبيوت. والطرقات. وفي دور الأمراء فلا أجد له من يدعيه... فقلت :

خذه أنت. فإنه مال حلال... وانفقه على نفسك... فغضب من كلامي... فقال : والله لا تراني آكله...! فقلت : لماذا تقول هذا الكلام...؟ فقال : لأني رجل صانع. أعمل الخفاف. وآخذ ما يكفيني. فقلت : افد به الأساري. من أيدي الترك... ففرح. وقال :

بارك الله عليك...! فرجت عني كربة... فقلت : أو ليس ههنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا...؟ فقال : ههنا من أهل العلم من يقول :

أعطنا إياه. ونحن نعرف ما نصنع به...! وإنما يريدون أكله....!!!»

951 ـ خير البرية...!

وجـدت في كتـاب «الصلـة» لابن بشكـوال ج 1 ص 72 ط القاهرة 1955 م.

«وذكر أنه كان بالقيروان. فقال رجل : أنا خير البرية...!! فَلُبِّبَ. وهمَّت به العامة... فحمل إلى أبي عمران الفاسي رحمه الله. فسكن العامة. ثم قال له : كيف قلت...؟ فأعاد عليه ما قال... فقال : أأنت مؤمن...؟ قال : نعم... قال : تصوم... وتصلي... وتفعل الخير...؟ قال : نعم... قال : ـ اذهب بسلام... قال الله تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريئة**﴾...!!.

952 ـ من أين توتى المكارم...

وجـدت في كتـاب «الابتهـاج بنـور السراج» لأبي العباس البلغيثي ج 1 ص 191. قطعة من شعر علي مصباح الزرويلي جاء في آخرها :

ولـولا قـواف من زهير لمـا درت
نـدا ابن سنـان قـط تيم ودارم
ولـولا معـاني الشعر مـا حن وامق
ولا صـدحت في أيكهن الحمـائم
«ولـولا خـلال سنها الشعر مـا درى
بناة العلا من أين توتى المكـارم»

والبيت الأخير لأبي تمـام كمـا هـو معلـوم...

953 ـ فلا أنا... ولا أنَا..!

وجدت في كتاب «الدرر البهية» لأبي العلاء الفضيلى ج 2 ص 322. ط. حجرية 1316 هـ هذه الأبيات. وهي من نظم أبي العباس أحمد بن محمد الغرديس المتوفى سنة 1021 هـ.

«فلما انقضى سبعون حان حماميا
وأذهلني مـاذا ألاقي أمـاميـا
وبُـدّل منـه كـل وصف بضـده
وأقعـدني عمـا أروم سقـاميـا
فـلا أنـا حيٌّ أرتجى لملمـة
ولا أنـا ميتٌ أكْفَى همّ مـلاميـا

954 ـ مَرُوجُ القصَّارين...!

وجدت في النوازل الكبرى للشيخ عبد القادر الفاسي ج 2 ص 101 ط حجرية. عند ذكر الأشياء التي فيها الانتفاع دون المنفعة...!

... ومن هذا المعنى مروج القصَّارين. التي بضفتيْ وادي فاس. فإنما فيها الانتفاع.. لا المنفعة.. فإذا وقع فيها تبايع. أو عقد. فإنما ذلك لرفع اليد. بسبب الأسبقية. على الوجه المذكور.. إذ ليس في ذلك ملك رقبة. ولا منفعة وإنما فيها الانتفاع... وقُضِي للسابق.. وإضافتها لجانب. أو إدخالها في الحُبس جَوْرٌ... إذ ليس للحُبس. إلا ما حبسه عليه أرباب الأملاك... ولا مالك هنا...!!

955 ـ من شعر الحكيم يحيى بن هذيل..!

وجدت في كتاب (الإحاطة) لابن الخطيب ج 4 ص 394 هذه القطعة. وهي من شعر يحيى بن هزيل الحكيم شيخ ابن الخطيب.

نـام طفـل النَّبت في حجر النعـامى
لاهتـزاز الطـل في مهـد الخـزامى
وسقى الـوسميُّ أغصـان النقـا
فهـوت تلثم أفـواه النَّـدامى
كحَّـل الفجر لهم جفن الـدجـا
وغـدا في وجنـة الصبـح لثـامـا
تحسب البـدر محيـا ثمـلا
قـد سقتـه راحـةُ الصبـح مـدامـا
حـولـه الـزهر كـؤوس قـد غـدت
مسكـة الليـل عليهن ختـامـا

956 ـ لحن الدهر...!

وجدت في كتاب (الوافي بالوفيات) لصلاح الدين الصفدي ج 17 ص 290 ط بيروت 1982 م ترجمة قصيدة لأبي عبيد البكري شارح الأمالي جاء فيها...

= ومن شعره :

وما زال هذا الدهر يلحن في الورى
فيرفـع مجرورا ويخفض مُبتـدا

957 ـ نبت لسانُه...!!

وجدتُ في كتاب «الوافي بالوفيات» ج 16 ص 567

في ترجمة أبي المخشي عاصم بن زيد شاعر الأندلس في زمانه. الذي قطع هشام بن عبد الرحمن لسانه..!!

«قال ابنُ ظافر في (بدائع البدائه) كان مالك رضي الله عنه يرى فيمن قطع لسان رجل عمداً بقطع لسانه. من غير انتظار... ثم رجع لما انتهت اليه قصة أبي المخشي. وأنه نبت لسانه بعد أن قطع بمقدار سنة..! قال : ثبت عندي أن رجلاً بالأندلس نبت لسانُه بعد أن قطع في نحو هذه المدة...!!!»

958 ـ إلى الظهور...!!!

وجدت في نوازل أبي عبد الله المسناوي ص 260 ط حجرية، هذا البيت ولم ينسبه :

قـــــول الفقير : إنني فقيرٌ..!
إلى الظهـــور. أبــــداً. يشيرُ...!

959 ـ كما حصلتَ..!

وجدت في كتاب (الفتوحات المكية) لابن عربي الحاتمي ج 4 ص 538 ط. القاهرة 1326 هـ.

«وكان على قبر بمدينة سلا منقطع التراب بيتان على لسان صاحب القبر...

ولقـــد نظرتُ كمـــا نظرتَ
ولقـــد نظرتُ فمـــا اعتبرت
فـــانظر لنفســـك سيـــدي
قبـل الحصـــول كمـــا حصلت

960 ـ المدروز... والدروزة...!

وجـدت في كتـاب «طراز المجالس» للشهـاب الخفاجي، ط. القاهرة 1284 هـ.

«قال الشريشي :
المدروز : المَكْدي...
ودروازة : كلمةً أعجميةً مَعْنَاها الكُدْية».

961 ـ ضَيَّع.. وثمَّر...!

وجـدت في كتـاب «التكملة» لابن الأبـار ج 2 ص 726. ط. مدريد 1887 م في ترجمة يحيى بن عبد الجليل بن مجير شاعر الأندلس في عصر الموحدين...

«ومن قوله :

لا تغبـــط المجـــدب في علمـــه
وإن رأيت الخصب في حـــالـــه
ان الـــذي ضيـــع من نفســـه
فـوق الـــذي ثمّر من مـــالـــه

962 ـ اللَّخميُّ... وابنُ مالك...!

وجدت في بعض الكناشات ما ياتي :

أكثر الإمـــامُ أبـو الحسن علي اللخمي من الأقـوال الفقهيـة في مـذهب الإمـام مـالـك... حتى قـال بعض المتقدمين :

لقـد هتكت قلبي سهـامُ جفـونهـا
كمـا هتـك اللخميُّ مذهبَ مـالـك

وذيله محمد الكفيف الأنفاسي من أصحاب ابن غازي بقوله :

وقلـدت إذ ذاك الهوى في مرادهـا
كتقليـد أعلام النحـاة ابن مـالـك..

963 ـ الجَنَّةُ... والجِنَّة...!

وجدت في كتاب «من أفواه الرجال» للأستاذ محمد المختار السوسي ج 3 ص 94.

«رأى مرة أبياتا للفقيه البركة سيدى الحاج أحمد الجشتيمي يذكر فيها. الأتاي. ويصفه فيها بأنه من النعم التي ادخرها الله للمتأخرين فكتب الشيخ عليها : بل هو النقمة العظمى التي ابتلى بها الله المتأخرين...!

قال الأول :

ان الأتـــاي لنعمـــة مـــا مثلهـــا
من نعمـــــة إلا نعيم الجَنَّـــــة

فقال الشيخ :

إن الأتـــاى لنقمـــة مـــا مثلهـــا
من نقمــــة إلا مـس الجِنَّـــــة

964 ـ توسل المجّاوي...!

وجدت في كتـاب «تعريف الخلف برجـال السلف» لمؤلفه أبي القاسم الحفناوي ق.2 ص 455. ط. بيروت

1982 م نسبة التوسل الشهير الذي يُتلى في المكاتب والمساجد... إلى القاضي محمد بن عبد الكريم المجّاوي قاضي طنجة المتوفى بها سنة 1267 هـ.

بمحمد وبنته وبعلها
وابنيهما السبطين أعلام الهدى
فرّج كروب المسلمين وضيقهم
يا خير من مَدّ العُصاةُ له اليدا

صدور الجزء الثالث من "ندوة القاضي عياض"



●● صدر عن مطبعة فضالة - المحمدية - الجزء الثالث والأخير من بحوث ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض بمراكش، وذلك من نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وكان الجزآن الأول والثاني قد صدر في بداية هذه السنة ●●

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تحتفل بعيد الشباب



• • احتفلت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بعيد الشباب الذي صادف هذه السنة الذكرى الخامسة والخمسين لميلاد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. وقد نظمت الوزارة بهذه المناسبة السعيدة حفلاً كبيراً بمقر الوزارة ترأسه السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغرى الذي ألقى كلمة توجيهية هامة بالمناسبة أبرز فيها أهمية عيد الشباب ومغزى احتفال الوزارة به في هذه الحلة القشيبة مؤكدا على استمرار الوزارة في السير وراء جلالة العاهل الكريم عاملة بالتوجيهات الملكية السامية من أجل بناء المغرب على أساس الهدي الإسلامي القويم وفي إطار الصحوة الإسلامية الرشيدة.

وننشر فيما يلي نص الكلمة التي ألقاها السيد الوزير بالمناسبة :

بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أيها السادة الكرام : السلام عليكم ورحمة الله.

لا أخفي عنكم أنني كنت هيأت كلمة للمناسبة ولكنني تركتها لأنني وجدت المناسبة أكبر من الكلمة، وأي كلمة تغني في جلال هذه المناسبة وجمالها، أي كلمة يمكن أن تحيط بمنجزات صاحب الذكرى وبجلائل أعماله، هل تتناول الكلمة أياديه البيضاء في التعليم وكيف أخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان وأسس المدارس وبنى الكليات والجامعات وبعث البعثات إلى الخارج، أي كلمة تغني في ذلك، هل تغني كلمة في أياديه في ميدان الصحة وما نشر من مستشفيات وما علم من أبنائنا فنون الطب، هل تغني كلمة فيما قام به حفظه الله في بناء الإدارة المغربية وتنظيمها وتحديثها وتطويرها، هل تغني كلمة فيما قام به جلالته حفظه الله في تحرير أرضنا وعزة بلدنا ووحدة ترابنا واستكمال استقلالنا وحريتنا ورفع رأسنا عاليا أمام أصدقائنا وأعدائنا في كل دول العالم، هل تغني كلمة في الإحاطة بجهاده في نشر الرفاهية والخير والاطمئنان والسلام والأمن في البلد، هل تغني كلمة فيما قام به جلالته حفظه الله في الميدان الإسلامي من تشجيع التعليم الديني وإحياء المؤسسات الدينية وإعادة تنظيم جامعة القرويين بمختلف الظهائر والمراسيم وإحياء المجالس العلمية وتنظيمها وتطويرها وما يقوم به جلالته من رعاية خاصة للعلم والعلماء تتجلى فيما شهدناه في أقرب شهر لنا ودعناه من قريب وهو شهر رمضان المبارك حيث شهدنا وعشنا محافل نورانية في رحاب القصر الملكي العامر حيث كان يترأس جلالته حفظه الله تلك الدروس الحسنية الفريدة من نوعها في العالم، هل تغني كلمة في شيء من ذلك لا أبدا، وهل أنتم في حاجة إلى كلمة في هذا الموضوع وأنتم أعرف الناس بأيادي الحسن الثاني وأعرف الناس بجهاد الحسن الثاني وأعرف الناس بثبات الحسن الثاني وغيرة الحسن الثاني على وطنه ودينه وقيم هذا الوطن، أبدا، لستم في حاجة إلى ذلك، لذلك أكتفي بالدعاء لهذا الملك العظيم بطول العمر وأن يحفظه الله لهذا الوطن رائدا وقائدا وهاديا ومجددا وأن يجعلنا جميعا عند حسن ظنه، وإنما إذا كان من حقنا كوزارة للأوقاف والشؤون الإسلامية، أن نحتفل بهذه الذكرى لأنها ذكرى ميلاد أمير المؤمنين وسبط النبي الكريم، فنحن أحق بهذه الذكرى من غيرنا، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أحق وأجدر للاحتفال بعيد ميلاد أمير المومنين وسبط النبي الكريم، إذا كنا أحق بهذا الاحتفال فإننا أيضا ومن باب التمعن في مغزى هذه الذكرى وفي معنى هذه الذكرى وفي أسرار هذه الذكرى نريد أن نحييها بتجديد العزم على العمل لنكون في ركاب أمير المومنين عاملين مخلصين جادين مجدين أوفياء للعرش والمبادىء التي يقوم عليها العرش وللأهداف التي يهدف إليها العرش وللجهاد الذي يخوضه العرش.

هذه هي أحسن طريقة للاحتفال بهذه الذكرى، وبوصفي وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية أحمد الله تعالى لأنني لمست في أطر هذه الوزارة هذه المعاني السامية وهذه الرغبة الصادقة وهذا الإخلاص الكبير، فعلى بركة الله نستقبل سنة جديدة من سنوات هذا العهد الحسني المبارك وكلنا أمل في الله تعالى أن يحقق رجاءنا بوجود أمير المومنين أطال الله عمره وحفظه في ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد. ولا أحتاج إلى أن أرحب بكم فأنتم في داركم وبين أهليكم وأنا الضيف عندكم والذكرى ذكرانا جميعا والفرحة فرحتنا جميعا والسلام عليكم ورحمة الله.

حضر هذا الحفل السيد محمد المرابط الكاتب العام للوزارة والشيخ محمد المكي الناصري رئيس المجلس العلمي للرباط وسلا وجمهور من المدعوين من سامي الشخصيات وموظفو الوزارة ● ●

تدشين المقر الجديد للمجلس العلمي بالدار البيضاء

● ● أشرف الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بمدينة الدار البيضاء على تدشين المقر الجديد للمجلس العلمي للدار البيضاء رفقة عامل صاحب الجلالة على عمالة عين الشق الحي الحسني مولاي العربي الوزاني وعامل جلالة الملك على عمالة سيدي عثمان بنمسيك السيد مصطفى العلمي.

وفي بداية الحفل تليت آيات بينات من الذكر الحكيم، بعد ذلك تناول الكلمة الأستاذ محمد بن عبد الله العلوي رئيس المجلس العلمي بالدار البيضاء فأشار إلى الكلمة السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني التي ألقاها خلال تنصيبه لرؤساء المجالس العلمية حيث حثهم جلالته على تبليغ كلمة الله والاهتداء بسنة رسوله ﷺ، وذلك تنويرا للعقول وسعيا للقضاء على الأفكار الهدامة.

وقد أبرز السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في كلمة ألقاها بعد ذلك معالم النهضة الدينية التي يشهدها المغرب مشيرا إلى تشييد المساجد في جميع أنحاء المملكة وإلى الاهتمام الديني المتزايد لدى الشباب ● ●

دورة تكوينية للطلبة المغاربة المتوجهين إلى الدول الإسلامية لنشر اللغة العربية

● ● بمناسبة افتتاح الدورة التكوينية للشباب المغربي الذي تقرر إيفاده إلى الدول الإسلامية لتعليم اللغة العربية أقيم حفل بثانوية مولاى يوسف بالرباط ترأسه السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بحضور السيد الأستاذ أحمد بن سودة مستشار صاحب الجلالة والسيد الدكتور عز الدين العراقي وزير التربية الوطنية والسيد محمد التوكاني كاتب الدولة لدى الوزير الأول المكلف بالشؤون الإدارية والسيد عمر بن شمسي والي الرباط - سلا والسيد عبد الخالق بنجلون عامل صاحب الجلالة على عمالة سلا والسيد مولاي المهدي العلوي عامل صاحب الجلالة على عمالة تمارة - الصخيرات.

كما حضر هذا الحفل السيد محمد المرابط الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والشيخ محمد المكي الناصري رئيس المجلس العلمي بالرباط وسلا وجمهور من المدعوين من سامي الشخصيات.

وقد تناول الكلمة بالمناسبة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية حيث ذكر بما جاء في الخطاب الملكي السامي في شهر فبراير المنصرم بمناسبة استقبال جلالته للمجلس العلمي الأعلى بخصوص إعداد طائفة من الشباب المغربي من حملة الباكلوريا إعدادا خاصا لإيفادهم إلى الدول الإسلامية غير الناطقة بالعربية لتدريس اللغة العربية لأبنائها.

وفيما يلي نص كلمة السيد الوزير :

بسم الله الرحمان الرحيم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سيدي مستشار صاحب الجلالة، السادة الوزراء المحترمين، السيد والي صاحب الجلالة على إقليم الرباط، السادة العمال المحترمين، حضرات السادة العلماء، أيها الشباب الاعزاء.

السلام عليكم ورحمة الله.

نلتقي اليوم بتوفيق من الله تعالى لافتتاح أيام التكوين المخصص لهذه الطليعة الممتازة من شبابنا والتي ستتوجه بعد ثلاثة أشهر إن شاء الله إلى مجموعة من الدول الإفريقية والأسيوية لخدمة الإسلام لتعليم اللغة العربية، وإنها لفكرة عظيمة وفاتحة خير وطالع يمن وبشارة تنشرح لها قلوب المومنين والفضل في كل ذلك يرجع إلى الفكر الحسني الخلاق وإلى ذلك الإيمان القوي الذي يعمر قلب مولانا أمير المؤمنين أدام الله وجوده وأطال عمره ونصره ووفقه.

فلابد أن تعلموا أيها الشباب الأعزاء أن وجودكم اليوم في هذه المؤسسة قصد تلقي هذا التكوين كان منبثقا من الفكرة التي عبر عنها مولانا أمير المومنين حفظه الله عند رئاسته للدورة الثانية للمجلس العلمي الأعلى المنعقد في شهر فبراير من هذه السنة، ولتعلموا كيف فكر مولانا أمير المومنين في هذه المهمة المنوطة بكم وكيف خطط لها وكيف أعطاها من عنايته ورعايته ما جعله يتولى التنظيمات والترتيبات الدقيقة لإخراجها لحيز الوجود.

لتعلموا ذلك لابد من التذكير ببعض الفقرات الواردة في خطاب مولانا أمير المومنين في هذا الشأن، وهذه الفقرات تشير إلى عمق هذه المهمة وإلى أهدافها السامية وإلى المقاصد النبيلة التي يقصدها ملك البلاد وعاهدها، فقد قال حفظه الله في خطابه : «بمجرد ما يفتح كل ذي بال وعقل وتحليل كتاب جغرافيا يرى أن الإسلام انتشر شرقا وانتشر غربا انطلاقا من شبه الجزيرة السعودية ولكن لم يكن انتشاره في الشرق كانتشاره في الغرب، ذلك أن الإسلام في الشرق الأقصى وجد نفسه مبنيا على نوعين من الرهبانية، ويجد أن الإسلام الذي انتشر غربا لم يحتج إلى تلك الرهبانية، ومنذ اليوم الأول كان سليما وبقي سليما، وما هو السبب في هذا الفرق بين الإسلام الأقصى الشرقي والإسلام الأقصى الغربي فالفرق أو السبب لهذا الفرق يقول جلالة الملك، هو سهل ويمكن أن نوجزه في كلمة واحدة عدم التعريف بالعربية، فجهل الناس للغة العربية هي التي نشرت في الشرق الأقصى المولى ونشرت رجال الدين الذين كانوا يحتكرون اللغة العربية، تلك اللغة العربية التي بها نمارس معاملاتنا وعباداتنا وحالاتنا الشخصية، تلك اللغة العربية التي يجب علينا أن ندركها ونكون ملمين بها حتى يمكننا الاستفادة من أولي الفكر ومن العلماء ومن المدرسين والمحاضرين، فأصبح الإسلام في الشرق الأقصى إسلاما يتعبد به الناس، ولا يعرفون ولا يحفظون أكثر من الفاتحة وهناك تقف معرفتهم بالعربية، والنبي ﷺ وكأنه كان يشم هذا في بداية الإسلام قال : «لا رهبانية في الإسلام» والرهبانية هنا نشأت عن جهل أفقي وعمودي للعربية».

هذه الكلمات والتحليلات يقول جلالته : «كانت محور كلمة طويلة ألقيتها شخصيا في الجلسات المغلقة في المؤتمر الإسلامي وطلبت - وكنت أرى في شاشة التليفزيون - أن جميع رؤساء الدول الإسلامية يتتبعون هذه الكلمات وكأنهم يكتشفون أمريكا في القرن الرابع عشر، ويكتشفون الثغرة، بل الهوة التي يمكن أن يخلقها الجهل بلغة الضاد، وأردت منهم على الأقل أن يعطوا حصة للعربية

في جميع مدارسهم الابتدائية والثانوية على الأقل حصة ثلاث ساعات أو أربع ساعات في الأسبوع».

من هذه الكلمات الذهبية لمولانا أمير المومنين حفظه الله يتجلى أن الغاية من هذه البعثة هي سد هذه الثغرة والقضاء على هذه الرهبانية وفتح النوافذ للإسلام لينتشر في الطبقات الشعبية لهذه البلدان التي ستتوجهون إليها وحتى يزول ويسقط ذلك الحاجز الذي كان بين بعض الشعوب وبين الإسلام.

هذه إذن مهمة سامية وسامية جدا، وسيدنا نصره الله إذ تناول مهمتكم ومسؤوليتكم من حيث الأهداف تناولها أيضا من حيث بيان التنظيم والترتيب في أدق الجزئيات، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على العناية الخاصة التي يوليها أمير المومنين حفظه الله لهذه البعثة، فقد تناول طبيعة العمل الذي ستقومون به وهو أنكم مكلفون بتلقين اللغة العربية لتلك البلدان التي تجهل اللغة العربية، ومكلفون بالدعوة للإسلام عن طريق تلقين العربية لهذه البلدان ولجالياتنا المغربية في بعض الدول الأخرى.

وتناول حفظه الله البلدان التي ستتوجهون إليها بنكلاديش والباكستان والصومال ودجيبوتي وجزر القمر وغينيا والسينغال وجميع الدول الإسلامية التي لا تتكلم بالعربية.

وحدد حفظه الله عددكم في خمسين ومائتي طالب.

وحدد الشهر بالضبط الذي ستعينون فيه وهو شهر أكتوبر من هذه السنة.

وحدد التشكيلة التي تتكون منها بعثتكم وهي بعثة من مائتين وخمسين طالبا نصفها مكون باللغة الفرنسية ونصفها مكون باللغة الانجليزية.

وحدد حفظه الله مدة التكوين وهي ثلاثة أشهر.

وحدد نوعية التكوين في لغة انجليزية وفرنسية في المستوى الذي يسمح لكم بأداء رسالتكم في هذه الدول.

واهتم حفظه الله حتى بأجوركم، فقرر حفظه الله أن الدولة المغربية ستتولى أداء أجور الطلبة المتخرجين والذين سيعملون مع الجالية المغربية في الخارج وان الدول الإسلامية الأخرى هي التي ستتولى أجور الطلبة الموجهين إليها.

ولم يترك حفظه الله جزئية من الجزئيات الخاصة بهذه البعثة إلا وتناولها في خطابه، فلم يكن أمامنا كوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إلا السهر على تنفيذ هذه التعليمات وهذه التنظيمات وهذه الترتيبات الملكية السامية.

أشار مولانا أمير المومنين حفظه الله إلى مزية من مزايا المغاربة عندما كان يتحدث عن هذه البعثة، وهذه المزية نفتخر بها كل الافتخار ذلك أن أمير المومنين أشار إلى ما قام به المغاربة في الماضي من نشر الإسلام واللغة العربية في إفريقيا على الخصوص، وأن تكوين المغاربة وأخلاق المغاربة وشخصية المغاربة جعلت بعض الدول النائية تفضل طلب العلم وطلب الإسلام على يد المغاربة بدل جيرانها الذين تتوفر لهم نفس البضاعة ونفس التكوين، وان مزايا المغاربة في هذا الصدد أنهم لا يتدخلون في الشؤون السياسية للبلاد التي يعيشون فيها ويعملون بها، فهذه شهادة لهذه البعثة وإنها في مستوى السلف الصالح الذي قام على مدى التاريخ بنشر الإسلام في نفس الدرب وستحمل نفس الرسالة ونفس المسؤولية، وستقوم بها بأخلاقها الشيء الذي سيجعل الجميع يحمد وجودكم بينهم ويرغب في المزيد.

أيها الاخوة الأعزاء :

إن مهمة الداعي إلى الله مهمة صعبة ولابد فيها من تضحية، وإن الدعاة إلى الله عانوا من الغربة وعانوا من شتى الصعاب والمشاكل، ومع ذلك صبروا وصابروا وثبتوا على المبدإ وما هانوا وما استكانوا حتى نصر الله على أيديهم الإسلام واللغة العربية في إفريقيا، واليوم أنتم بوضعية مضمونة وبمستقبل مضمون وبإمكانيات ثابتة وبدعم قوي من دولتكم ومن عاهلكم، فلم يبق لكم إلا أن تقبلوا الإقبال التام على هذه المهمة السامية بما عهد في شباب

المغرب من حماسة ومن ذكاء ومن ثقافة ومن غيرة على دينه وعلى سمعة وطنه وعلى اعتزازه بلغته العربية، وان أي مسؤول إذا أراد أن يفكر في المستوى التاريخي وفي المستوى الإنساني وفي المستوى الإسلامي لهذه العملية، سوف لن يجد أحسن مما ورد في خطاب جلالة الملك الذي سبقت الإشارة إليه عندما قال حفظه الله : «فكما أن الله سبحانه وتعالى أعطانا دور الفاتحين لا بالسيف ولكن بالقلم وبالكتاب والسنة أريد أن يعطينا مرة أخرى فرصة جديدة في تاريخنا لفتح جديد، ولي اليقين أن الأجيال المقبلة هي التي ستعرف ثواب جهدنا ومجهوداتنا».

بهذا العمل الذي نسهر عليه ونتعاون عليه جميعا والذي أنتم مقبلون عليه يعتبره أمير المومنين بحق فتحا جديدا في مستوى الفتوحات التي قام بها المغاربة على مدى تاريخهم المجيد، وأنا أذكر بهذه الأمور ليعي كل واحد مستوى المسؤولية ومستوى الأهمية ومستوى الرسالة المنوطة به، وليعى ما هو مقبل عليه بالضبط، فالأمر يتعلق بإرادة ملكية سامية فاتح في شأنها أمير المومنين إخوانه رؤساء وملوك الدول الإسلامية على أعلى مستوى في مؤتمر القمة الإسلامية المنعقد ببلادنا وحازت الفكرة قبولهم واستحسانهم واستعدادهم وخرجت اليوم لحيز التنفيذ، فينبغي أن نحافظ لها على هذا المستوى بتكويننا الجيد وبأخلاقنا الفاضلة وبهمتنا العالية حتى تكون خير مثال على نجاح هذه الفكرة وعلى فعاليتها في نشر اللغة العربية وعلى مصداقيتها في سد الثغرة التي يعاني منها الإسلام وفي هدم تلك الحواجز التي بين الشعوب الإفريقية وبين الدين الإسلامي.

وانتقل في هذه الكلمة الموجزة إلى الإشارة أن هذه البعثة قد تكفلت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بضمان تكوين عال لها باللغتين الانجليزية والفرنسية وبالوسائل السمعية والبصرية الحديثة، وإنه بالإضافة إلى هذا التكوين، عندنا برنامج كامل لدروس في التكوين الديني في الفقه الإسلامي وفي السيرة النبوية حتى يكون لكم تكوين متوازن، وكذلك محاضرات عامة في حاضر العالم الإسلامي ستكون مهمة جدا في فتح أنظاركم على واقع العالم الإسلامي في الحاضر وكذلك ستكون هناك دروس في طرق الإلقاء وفي طرق التبليغ أي ما يسمى بيداغوجية التلقين.

هذا تكوين مهم جدا وجميع الوسائل المادية متوفرة وكذلك الوسائل البشرية، والآن لم يبق عليكم إلا أن تبرهنوا على أنكم في مستوى هذه العناية الملكية السامية، واعتقد اعتقادا جازما أنكم في المستوى المطلوب لأن شباب المغرب مفخرة الشباب ودائما سباق، ودائما متفوق ودائما ناجح وسيستمر نجاحه إن شاء الله ما دام هذا العرش يحمي الشباب ويرعى الشباب ويتعهد الشباب ويعتمد على الشباب، ونحن اليوم ندشن هذه العملية ونتيمن بتدشينها في رحاب عيد الشباب وفي ظلال عيد الشباب، فنسأل الله أن يجعلنا جميعا عند حسن ظن مولانا أمير المومنين وأن يجعلكم في مستوى المسؤولية المنوطة بكم والآمال المعلقة عليكم، كما اغتنم هذه الفرصة لأشكر السيد الوزير الأول على ما وجدناه فيه من دعم ومساعدة لإنجاح هذه العملية وكذلك جميع الوزارات في حكومة صاحب الجلالة لأن الأمر يتعلق بإرادة ملكية سامية لم نجد إلا التعاون ولم نجد إلا الدعم وأنتم أيضا كونوا على يقين أن مستقبلكم سيكون زاهرا، ولكن مستقبلكم بيد الله وبيدكم فالأمر يتوقف على همتكم واجتهادكم وكل واحد منكم سيقرر مصيره بنفسه وأشكر كذلك السيد مستشار صاحب الجلالة والسادة الوزراء المحترمين والسادة عمال صاحب الجلالة والسادة العلماء الذين شرفونا بحضورهم في هذه المناسبة السعيدة والله ولي التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

وتناول الكلمة بهذه المناسبة الأستاذ أحمد بن سودة مستشار صاحب الجلالة الذي تحدث عمّا يوليه مولانا الإمام نصره الله من بالغ العناية لهذا العمل الذي يعد امتداداً لرسالة المغرب التاريخية ودوره الحضاري في الإشعاع الديني. وحثّ السيد مستشار صاحب الجلالة الطلبة على التحلّي بالأخلاق الفاضلة والاستقامة والإخلاص في القيام بمأموريتهم في إطار من التجرد والارتفاع إلى مستوى المسؤولية الجسيمة المنوطة بهم مبرزا بصفة خاصة ما يلعبه السلوك الحسن للداعية المسلم من دور في تبليغ رسالته واجتماع القلوب حوله مذكراً بأن المغاربة نشروا الإسلام واللغة العربية في الماضي بفضل سلوكهم الطيب ومعاملتهم الحسنة للشعوب التي اختلطوا بها.

وكان أحد الطلبة قد ألقى كلمة باسم زملائه حيّ فيها جهود حكومة صاحب الجلالة في مجال إعداد الشباب المغربي وتكوينه للقيام برسالة الدعوة الإسلامية ونشر اللغة العربية بين الشعوب الإسلامية الشقيقة.

وننشر فيما يلي نص كلمة السيد مستشار صاحب الجلالة :

أصحاب المعالي والسعادة.. إخواني الأساتذة أبنائي..

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..

لقد كنت في الدار البيضاء بمعية صاحب الجلالة أمير المؤمنين نصره الله وأيده، وبمجرد ما أبلغته بأن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وجهت لي دعوة للحضور في حفلكم هذا المبارك أمرني جلالته أن أترك كل المهام التي عندي جانبا وأن أحضر إلى هذا الاجتماع. ولقد حبذ صاحب الجلالة إطار عملكم كما تحدث به الآن معالي الأخ الوزير وشرح لكم المهمة التي يعلقها عليكم صاحب الجلالة، كما أن معالي الوزير بين لكم بتفصيل، الوسائل المادية والضرورية التي ستساعدكم على مهمتكم ولذلك فليس القصد من هذه الكلمة الصغيرة التي سأقولها تحديد مهامكم أو إطار عملكم أو الوسائل التي ستجعل عملكم بإذن الله ناجحة، ولكن كلمتي ستتوجه إلى قلوبكم وإلى عقولكم. وقبل أن أدخل معكم في التفصيل، أوجه لكم تهنئة صادقة صادرة من قلب مؤمن مسلم إلى شباب مسلم واعي مستقيم إن شاء الله، أهنئكم بهذا العمل لأن بهذا العمل، كما ورد في خطاب صاحب الجلالة التوجيهي وفي الكلمة التي ألقاها السيد الوزير، عملكم هذا سيكون ربطا لحاضر بماض، فقد كان آباؤكم دعاة لا في إفريقيا وحدها ولا في أوربا وحدها ولكن من مفاخر أجدادكم أنهم كانوا دعاة في أقصى ممالك المشرق الأقصى. وأذكر أنه منذ سنتين دعيت من طرف الفلبين للحضور إلى مؤتمر بمناسبة مرور ستمائة سنة على ظهور الإسلام في الفلبين وكان برفقتي أخي وصديقي الدكتور عبد الهادي التازي - شافاه الله - فألقى محاضرة وبيّن للفلبيين أن الواجب عليهم أن يحتفلوا بمرور ثمانية قرون على دخول الإسلام إلى الفلبين وبرهن بالحجج العلمية والتاريخية أن الذي أدخل الإسلام إلى الفلبين هو رجل مغربي ولست في حاجة إلى أن اعيد لكم المحاضرة، ولكن نصح الفلبيين أن يحتفلوا بمرور ثمانمائة سنة لا ستمائة وبرهن بالنصوص القاطعة على أن الذي أدخل الإسلام إلى الفلبين رجل مغربي وكان اسمه محمد المغربي.

لا أريد أن أدخل في هاته التفاصيل ولكن ما هو السرُّ في هذا النجاح الذي حققه آباؤكم، الله تعالى يقول : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ والله تعالى يقول : ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير**﴾. وهل هناك خير أكثر من الإسلام والاستقامة، والله تعالى يقول : ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في**

الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ والنبي ﷺ يقول : «لان يهدي الله بك رجلا خير لك ممن طلعت عليه الشمس». ولكن ما هو سر نجاح أولئك، هل كان أباؤكم يتقنون اللغات الإفريقية؟ وهل كان أباؤكم يتقنون اللغات الآسيوية ؟ هل كان آباؤكم يتقنون اللغات الإسبانية والفرنسية وغيرهما ؟ لم يكونوا يتقنون ولكن ما سر نجاحهم، ما سر دخول الناس في الإسلام على يدهم، انهم قدوة؛ فكل ما ستتلقونه من علوم، ومن دروس ومن وسائل فان ما هو أكبر شيء من ذلك هو سلوككم أنتم، ولذلك يجب أن تخلوا إلى أنفسكم وأن تعلموا عندما ستتقدمون إلى هاته المهمة أنكم لستم معلمين في فصل، ولا موظفين في محل، ولكنكم واقفون موقفا وقف فيه الدعاة المسلمون والصحابة الأجلاء. وبهذا قيل إن العلماء ورثة الأنبياء أي في القدوة الحسنة والمثال فإذا ذهب أي واحد منكم وكان يتقن كل اللغات وكان يعرف من التاريخ والسيرة والحديث والتسيير في كل شيء فهذا وحده لا يكفي ما لم تكونوا قدوة خلقية وسلوكية، كيف أسلم السنغاليون والسودانيون ؟ كان يأتي الرجل التاجر المسلم المغربي الذي لا يتقن القراءة ولا الكتابة فيرونه يتوضأ خمس مرات في اليوم ويتجه إلى الله وإذا تحدث تحدث كما يجب أن يتحدث عباد الرحمن **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما﴾**. وكانوا يستدينون منهم فيساعدونهم وكانوا يستأمنونهم على أموالهم بدون شهود فيردون الأمانة إلى أهلها فيتساءل السنغالي ويقول للسنغالي : ما هو السر ؟ فيقول إنهم مسلمون، فيأتي ويقول أريد أن أقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وكتب السير وكتب التاريخ حافلة بالمواقف، بالاستقامة، بالنزاهة التي كانت سببا في إسلام جماعات وقبائل ومدن، ولذلك فالشيء الأساسي يجب أن تكونوا شجعانا مع أنفسكم، فإذا كنتم تريدون أن تكونوا موظفين فقط لا أقل ولا أكثر، أنصح لكم أن تأتوا عند السيد معالي الوزير وتقولون له إنها مهمة ثقيلة. مهمتكم شريفة عظيمة، مهمة الأنبياء، مهمة الصحابة، مهمة الدعاة، ولكن الداعية إذا اكتشفت القبيلة أو الجماعة أنه غير مستقيم فإن الجماعة تكفر بذلك الدين ولذلك مهمتكم عظيمة. أنا أذكركم فقط وأعلم أن من بينكم من هو أتقى مني وأعلم وأقرب إلى الله ولكن قال الله تعالى : **﴿فذكر فإن الذكرى تنفع المومنين﴾**. إنني أهنئكم على مهمتكم وإنني أثير إنتباهكم إلى أن مهمتكم صعبة فعليكم أن تكونوا خير قدوة وخير مثال وأن تصبروا، قد تتأخر عليكم الحوالات وقد تخسرون أصدقاءكم الذين كانوا معكم بعد أن يكونوا قد ربحوا أموالا طائلة ولكن أنتم أحرار قبل أن تلتزموا فإن التزمتم أصبحتم عبيدا لحريتكم ولكنها عبودية تقربكم إلى الله.

هذه الكلمة مختصرة القصد منها هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرتي أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ان أريدإلا الإصلاح مااستطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وفي الختام دعوة خالصة إلى مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وأيده بأن أعمالكم ستكون في صحيفته مع الاحتفاظ لكم لأن رسول الله ﷺ يقول : «من حمل صدقة إلى محتاج فله أجر صاحب المال من غير أن ينقص لصاحب المال شيئا»، وجلالة الملك هو الذي خط هذا النهج وسنّ هاته السنة فستؤجرون عليها أبقاه الله تعالى حصنا حصينا للمغرب وللعروبة وللإسلام وأقر عينه بولي عهده المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وبصنوه الأمير مولاي الرشيد وبأسرته الصغيرة وبأسرته الكبيرة وبشعبه، وأنجح مساعيكم وجعلكم خير هداة، وجعلكم أكبر دعاة مثيرا انتباهكم إلا أن نجاح فوجكم سيكون مشجعا للدولة وسيدخل سرورا على جلالة الملك فلئن كنتم في هاته السنة مائتين وخمسين إن شاء الله نتمنى أن تتسع وسائل المغرب وأن تكبر حتى تصبح بالآلاف، أنجح الله مساعيكم وهدانا وإياكم إلى طريق الخير وجعلكم رسل هداية وإسلام وأصلح بكم وبالآخرين كما أصلح بالصحابة والتابعين في الأولين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية







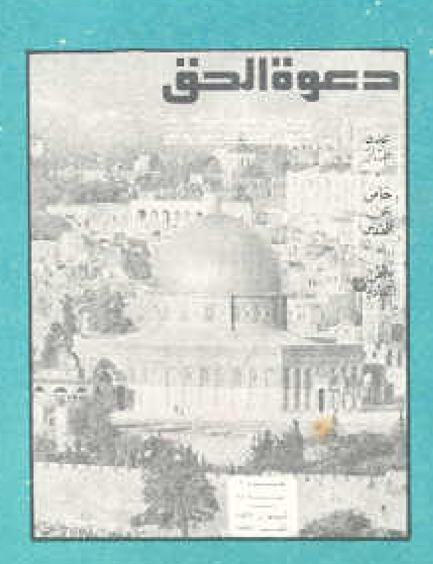


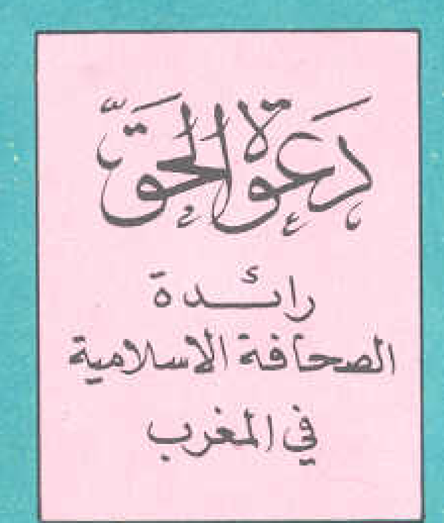
التوزيع: مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية: الرباط



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957